شاكر الأنباري

أنا والمجنون

وقصص أخرى

دار الكنوز الأدبية

• أنا والمجنون، وقصص أخرى
• شاكر الأنباري
•الطبعة الأولى ١٩٩٥
• جميع الحقوق محفوظة
• دار الكنوز الأدبية
ص.ب: ٧٢٢٦
بيروت ـ لبنان

متاهة الرمال

نهض رميم من فراشه بمزاج متألق وكان الفجر في أول بزوغه. رآه من فتحة الشباك المشرعة نحو الشرق يجلو بيوت القرية بطلاء ضوئي، راشاً حمرة يوم جديد على الدروب والأشجار. طوى كعادته فراشه المصنوع من صوف الغنم وركمه على الجدار ثم مشى خارج مضافة الرجال ودخل القسم الثاني من البيت، حيث تنام امرأته واطفاله الثلاثة. ليلة البارحة أخبرهم أن لا حاجة لهم بالنهوض باكراً فسوف يرتب امور رحلته وحده، وسوف يتجه إلى الصحراء قبل طلوع الشمس. إنها المرة الأولى التي يخرج بها إلى الغزو، دفعه إلى ذلك اخبار الغنائم التي حصل عليها بعض رجال القرية الذين مضوا إلى الصحراء بحثاً عن مضارب البدو. راودته احلام كثيرة، الجمال التي سيعود بها وفرح زوجته للثروة الهابطة وخبر بطولته الذي سيعم القرية ويصير حديثاً في جلسات السمر وعند الحقول وفي المضافات.

في الليل اعد كل ما يلزم لرحلته، اطعم فرسه عليقة من الشعير ورزم الخبز مع رؤوس البصل وجلاميد اللبن المجففة وحشرها في خرجه الأسمر الذي طرزته زوجته بخيوط حمر وصفر تدلت منها شراشيب وعقد زادت من جماله. ثم احضر سيفه ومسحه بالزيت ودسه بقرابه الجلدي ونام باكراً.

جلب خرجه الملون واتجه إلى مربط الفرس التي وقفت ساكنة تحدق إليه

بعينين سوداوين. فرس حمراء ناعمة الجلد ستحمله إلى الافق البعيد، إلى رمال ووديان وصخور كلسية ومضارب بدو. حدقت إليه الفرس بامعان ولامست كتفه برأسها وانصاعت له وهو يثبت الخرج والركاب ويعدّل اللجام. جلب قربة المياه واحس ببرودتها تحت يديه ثم علقها في الركاب وشدها بخيط من الخوص، في حين بدأت حمرة الشمس تتوهج باعثة فيه قوة سحرية وهاجساً للسفر. وفي البعيد راحت اجراس الغنم تدندن متجهة إلى المراعي وراح الفلاحون يبسمون شطر النهر والأراضي المزروعة بالسمسم والذرة، وارتفعت في الافق السنة الدخان، منطلقة من التنانير ومداخن القرويات وهن يحرقن بعر الغنم لغلي الحليب الصباحي.

فكر لو انه يملك ما يكفي من الارض لما اقدم على مغامرة مثل هذه، سيزرع القمح والجت ويربي البقر والماعز ويقضي ايام الصيف منتظراً القطاف والحصاد. فكر ان الرضا واجب وما على الانسان إلا السعي، الم يقل واسعوا في مناكبها؟ سيسعى اذن وستكون الصحراء منكبه. راودته هذه الخواطر وهو ينهي ترتيبات الرحلة، وقبل أن يعتلي ظهر الفرس تملى جيداً في بيته الصغير المنشمر على طرف القرية وودع بقلبه أطفاله وزوجته ومسح الآفاق بنظرات زائغة. إنها رحلة لا يعرف كيف تنتهي، نتائجها غير مضمونة، فالبدو مثل الثعالب يشمون الخطر على مسيرة يوم، وقد شهد الكثير من الحوادث المؤسفة التي راح ضحيتها رجال من القرية. ابتلعتهم التلال والمنحدرات وتحولوا إلى خبر تلوكه الافواه.

قاد الفرس نحو الشمال ومشى دقائق قبل ان يشمر جسده عليها، وحين ثبّت رجليه في الركاب ادار رأسها إلى القرية وودعها الوداع الأخير، ثم لكزها بحذائه الأحمر فتواثبت إلى الامام، إلى مضارب بدو غير مؤكدة الوجود.

• • •

غبار صيف يدوّم خلفه وحوافر فرسه تدق الأرض تاركة آثارها في السبخ والاملاح البيضاء. إلى الخلف وفي الاستدارة الفضائية غير المحدودة بدأت القرية تتلاشى قليلاً قليلاً.

غابت البيوت وتداخلت الألوان، اسودّ الدخانُ اخضر مراعي البقر ازرق فاتح وهج القوس السماوي اللاف للقرية. بقعة داكنة صارت القرية عندما لحظها آخر مرة، وحين دخل فم الصحراء لم يعد يرى إلا السراب. شمس في السماء ورمال على الأرض، سراب أمامه وسراب خلفه، وفرسه تقتحم اكمات مغطاة بالرمث والعاقول مغيرة نحو الشمال. الشمال كله صحراء، هذا ما يدركه جيداً، والبدو ان كانوا بهذه الانحاء سرعان ما يبينون. تبين جمالهم على الأقل.

بدأ وضع الخطط في رأسه، هل يغير على الرعاة ويحاربهم بسيفه ام يترصد غفلتهم ثم يجنب عدداً من الابل إلى فرسه؟ هل يستدل على البيوت التي لا تخفى هويتها ثم يكمن لها حتى حلول الليل كي يتسلل إلى مرابط الابل ام يتخفى بزي ضيف ليعمل عملته حين ينام رب البيت؟ اسئلة كثيرة وخطط تتسابق إلى رأسه، وكانت عيناه لا تنيان تدوران في الجهات الأربع مفتشة عن حياة: جمل أو شاة، ثعلب أو ارنب ضال.

مالت الشمس عن السمت ولا يبدو للبدو علامة تذكر. تعبت فرسه وغطاها الغبار والعرق ودب العطش في خلاياه فتناول القربة وارتشف من فمها رشفات حارة لم تطفى الظمأ. كل ما حوله ظمىء، الثعابين المتخفية في الرمال والعاقول والصخور الرملية المتآكلة بفعل ريح تصخب بغتة وتهمد بغتة. كل ما حوله موحش ميت وكأن الصحراء تابوت عتيق دُفنت فيه الحياة منذ آدم. اعتلى مرتفعاً وانحدر في واد، قاده شعب وتلقفته هوة وما برحت الشمس دليله الوحيد نحو الشمال. رأى ظله يزحف مستطيلاً خلفه، وهاهو الليل يبشّر بقدومه دون أن يرى البدو. ومن بين حين وآخر تحلق في الاجواز البعيدة صقور

ساكنة الأجنحة وتمرق قطاة فوق رأسه، ورأى مرة وكاد أن لا يصدق غراباً كبيراً اسرع بالاختفاء في سراب الشرق، وفي احدى المرات خيل له أن هاتفاً يهتف باسمه فأدار رأسه وأوقف الفرس ومد يده إلى السيف. تطلع حوله، كانت الصخور الرملية تتبعثر في الوادي الخفيض وأشجار الحاثة تنشر ظلاً عميقاً وحافة السماء تلتصق بالأرض عند نقطة غير معلومة. من الهاتف اذن؟ سأل روحه. صرف ذهنه إلى الليل القادم فعليه ايجاد مكان ينام فيه، آمناً لا تهاجمه فيه الضواري.

قبل أن يختفي الضوء وجد حفرة واسعة في الرمال تشكّل منخفضاً حاداً فكر انه سيكون مكاناً ملائماً، فمن اليمين حافة عالية لا يستطيع أحد مهاجمته منها، وما عليه إلا تدبير الحماية من الامام. فكر ان النار خير حام له، فربط الفرس وأنزل خرجه وقربة المياه وفرش بساط الصوف تحت الحافة ثم تمشى خارج الهوّة كي يجلب الحطب. كان ثمة شجيرات رمث وعروق طرفاء واوراق من العشب جمعها قريباً من البساط وأخرج زناده من الخرج وعالج اعشاباً ناعمة من الورق سرعان ماتوهجت بالنار. النار الخالدة التي ستضيء صحارى الضب والضباع والعناكب. رميم يا رميم، احذر الليل فخ بني البشر، هبّه الوهج وتحصن له بخبرتك البشرية، فالجمال بعيدة والمضارب ابعد وانت وحدك مع الصحراء. فرسك اطعمها وسيفك جرده. وهكذا كان. اطعم رميم الفرس وسل السيف وادام اشتعال النار. اخرج حبات قهوة مطحونة ومزجها بالماء وسخنها بصفيحة من النحاس. ارتشف قهوة مُرّة هو في شوق كبير إليها، صفّت خياله وجلّست ذهنه.

نجوم، السماء فوقه مليئة بالنجوم، كبيرة لاهثة وسنانة، انواع من النجوم لم يرها إلا هذه الليلة. كانت القرية تضلل عينيه بمصابيحها الزيتية فلا يرى كل هذا العدد من النجوم، وحين اوشكت النار على الانطفاء بادرها بحزمة أخرى من الطرفاء فوجّت بلهب اصفر تلاصفت له الرمال وعكسته الحصى. قام رميم

إلى فرسه وملأ لها العليقة بخليط من الخبز والشعير والأوراق الجافة ثم سكب في صفحة القهوة شيئاً من الماء وضعها امامها. رآها تأكل، رآها تشرب، رآها تميل اجفانها مأخوذة بسكرة النوم فخالطه حب وغبطة. خطى خارج الوهدة وحدّ بصره علّه يلمح نار البدو. لابدو في الآفاق، فالغرب ظلمة والشرق ظلمة، الشمال ريح سلسة والجنوب أيضاً. ينبغي النوم يا رميم، فالأطراف تعبة والروح قلقة والصباح رباح كما يقولون. النوم عبادة الروح فلنسع إليه.

• • •

من مكمنه سمع الذئب يستغيث من شيء مجهول والعضاية تدب فوق الأجراف وهسهسة الريح في الدقائق الرملية. سمع استغاثات بعيدة لحيوان يُفترس ودبيبة تُبتلع وكثيب تبلعه الريح، إلا أنه لم يستيقظ من نومه، ظل اسير احلام تكر بلا انقطاع. الأمر الوحيد الذي دفعه لفتح عينيه، حضور ذلك الحيوان الغريب الذي جلس على النار الموشكة على الانطفاء. أحس به من النخرات المتقطعة واللهاث المتردد المسموع، وسأل نفسه، هل هو حلم آخر؟ كلا، إنه في يقظة لازبة، ففتح عينيه على سعتيهما وحدق إلى حيث يجلس ذلك المخلوق الغريب المشعر ذو العينين المتوهجتين كنجمتين. لم يحرك عضواً وتحسس سيفه وقبل الاحتمالات اجمع. الحيوان لم ير له مثيلاً قبل اليوم. شعر كثيف يغطي كل جسده ووجه شبيه بوجه البشر. المواجهة يا رميم ولا شيء غيرها، فالجبان يموت مئلما الشجاع، فاحزم امرك وهز سيفك واهجم على تلك الهولة الجالسة حول النار. كلا يا رميم لا تتعجل عسى أن يكون جناً فائق القوة أو ملكاً لا يروم شراً. التريث إذن. وهكذا تزحزح رميم عن بساطه ويده لم تفارق السيف، فتنبه الحيوان إلى صحوته. رآه يبتعد قليلاً عن النار ليقعي وسط الظلمة، وكانت عيناه الوحيدتين من معالمه الدالتين على وجوده. تقدم إلى النار يا رميم، احتلها، فالنار مصدر القوة ومبعث الخوف، وسلاح الصحراء المجرب. احتل رميم النار وجلس قابضاً على سيفه، وبعد لحظات من

الصمت تقدم الحيوان نحو النار بحذر وجلس مقابله لا يفصله عنه سوى اللهب المنبعث من قبضة رمث جديدة. كانا يتطلعان لبعضهما، العين بالعين، والوجه قبالة الوجه، وتلك الخلقة لم ير مثلها. مال رميم على جنبه اليمين متكئاً على الرمال الناعمة ودهش من قيام المخلوق بالفعل نفسه. مد يده والقى حزمة حطب في النار ومسح وجهه فما كان من الحيوان إلا أن قلده بكل حركاته. يتشبه به فما العمل يا رميم؟ تذكر حُق السمن الصغير الذي جهزته زوجته فحفز من مكانه وجلبه من الخرج وكان السامر ينظر إليه بتعابير لا تفقه ما يجري. سكب قليلاً من السمن في صحفة النحاس ووضعها في المسافة الفاصلة بينهما، ورأى العينين تزوغان متأملتين هذا الشيء الجديد. بلل رميم اصابعه بالزيت وأخذ يمسح به جسده ورأسه ووجهه، فما كان من الحيوان إلا أن مد اصابعه المشعرة وراح يمسد جسده المشعر أيضاً. صب رميم مزيداً من السمن ونشر الحيوان مزيداً منه على الصدر والبطن والرأس، اصبح يقطر زيتاً وسط ليل موحش خال من الحياة. لنبدأ إذن ايها المرعب، يا من ارسلتك السماء إلي لتروعني، ولم يتوان رميم عن تناول قبس من النار راح يمرره على جسده ورأسه وأطرافه، وهكذا فعل الغريم. انطلت عليه الخديعة ووجت النار في الشعر الدسم وأصبح الجسم معدناً لاهباً ينث زفيره إلى الهواء. تراجع إلى الوراء قافزاً وشق كسكين حادة لحم الليل، واطلق صوتاً مرعباً دوى في الوديان والمهاوي. كانت كتلة اللهب تندفع إلى لا مكان، تنط بين الكثبان وتتدحرج على الصخور، وظلت تتصاغر في عيني رميم شيئاً فشيئاً إلى أن غيبها السواد.

• • •

كانت حافة الوهدة مظلة له، تحجب عنه شمساً صحراوية متهورة. شمساً هي دليله في بكورة الحياة حيث الزمن لا اسم له، وحيث الظلال هي نبوءة الوقت وتغيراته. فعندما فتح عينيه ابصر الاشعاعات الوهاجة تفرش ريشها على الفضاءات، وأول عمل قام به أنه تناول قربته وارتشف القليل من الماء، واحس

حين لامس كتلة الهواء المنفوخة انها قريبة من النضوب. لف اغراضه على عجل وحملها على ظهر الفرس وحدق بالنار الميتة ورمادها المتطاير وتذكر ذلك الحيوان ثم تراءت له في الخيال كتلة اللهب المندفعة نحو المجهول. اعتلى الفرس وانطلق خارج الوهدة وابعد عن ذهنه كل احلام ليلته الفائتة. كانت تنذره بالرجوع أو الموت، إلا أنها ذابت وسط سراب الجمال الشقر والثروة المنتظرة.

السراب لم يبدأ بعد وشواظ الشمس بأول انطلاقها. عيناه ترقبان خطوط الأفق، تفتشان عن القطعان الهائمة في البيد وبيوت الشعر. تفتشان عن غدير من المياه او بئر موشك على النضوب. مر على غيضة من الرمث في منحدر، تحتها اعشاب برية نصف يابسة فقاد فرسه إليها وأولم وليمة اليوم وبحّر في الجوار لعله يلمح شيئاً من المياه. كان يعترف أن عشباً أخضر لا بد أن يجاور الماء. حاول أن يحفر تحت الجذور، أن يفجر الكنوز الخبيئة، إلا أنه لم يجد سوى الرمل والحصى. لا ماء ثمة، وبدأت الأسئلة والظنون تتناوشه مجدداً: هل يوجد بدو حقاً في هذه الانحاء، ما العمل لو نضبت مياهه دون ان يصل بئراً أو غديراً، هل يرجع أم يستمر بالبحث، وربما تنقذه مصادفة ما والمصادفات كثيرة في الصحارى؟ هاهي رطوبة أول النهار وقد اندحرت تاركة مكانها لاشعاعات خنجرية تثقب الرأس والعين، وهاهو السراب يبدأ لعبته خالقاً انهاراً في مسافات بعيدة تختفي وتضمحل ما ان يقترب منها. خالقاً طيوفاً لبيوت سود، راسماً شخوصاً حية تقفز في الفراغ وتغيّر اماكنها بين الهنيهة والهنيهة. العالم كله سراب. بعيداً وفي تخوم غيمة جديدة من السراب تمثل لرميم راكب على جمل كان يغذ السير نحو الغرب فلحقه. لم يختف هذه المرة بل صار يتجسم بوضوح كلما دنا منه. ليس بالسراب هو ولا بالطيف، ابن آدم من لحم ودم، بدوي طالع من جوف الصحراء، لوح له وناداه فتوقف. قال له رميم انني مسافر ابحث عن مضارب بدو وقد نضبت مني المياه. قال له اتجه شرقاً فقد مررت هذا الصباح بغدير على وشك النفاد، وهو المكان الوحيد

الذي تجد فيه بغيتك، اما مضارب البدو فلي يومان على السفر لم اشاهد اي واحد منها، عجل قبل نضوب الماء وليكن الله في عونك. لكز البدوي راحلته وهام على وجهه ووقف رميم ينظر إليه حتى اختفى.

إلى الغدير اذن ايتها الحمراء، إلى الغدير، هتف رميم.

* * *

بعد جولان بغير هدى، وقبل ان تميل الشمس إلى اقصى الغرب، وقع رميم على ضالته. وجد الغدير الذي اشار البدوي إليه، وجده بقعة رطبة تنزوي تحت جرف صخري يجانب الشمس نبتت على حافاته الحلفاء والصباريات الواطئة وهروش من الحميض اصفرت ثمارها وتخبت تحت الورق الميت. أما مياه الغدير فقد انحسرت إلى أعمق نقطة فيه ومقدارها قربتان لا أكثر، خمن رميم انها ستتبخر في بحر يوم او يومين.

قاد فرسه إلى الغدير وارخى له العنان، وقام إلى قربته وملأها ولم يزل شيء من الماء يرفرف في القعر، ففكر بصحفة القهوة إلا أنه سيستخدمها عما قريب، فدار حول الغدير ناظراً في الآفاق. حلق غراب أسود وقبرات صفر بلون التراب، وشبح ارنب جوار عليقة كان ينقل عينيه حوله. لف ودار حول الغدير في أمل رؤية نيران البيوت التي عادة ما يشعلونها ساعة الغروب. فجأة وقعت ابصاره على كتلة بيضاء قرب شجيرة رمث ظنها في البدء حصاة ضخمة، وحين دقق النظر اكثر الفاها بيضة فسار نحوها ودار حول الشجيرة. لا بد أن يكون عش طير فقد تبعثرت اكثر من عشر بيوض في المكان تسترها اعشاب جافة وبقايا عاقول واشواك برية. البيض بيض نعام من دون شك، يثبت ذلك ضخامتها، قال رميم لنفسه ولامس واحدة من تلك البيوض. بيض طازج حديث العهد بالدنيا. هل يمكن الاستفادة منه يا رميم؟ اجابه الهاتف نعم، فتناول حصاة حادة راح يكسر بها البيوض برفق ويفرغ سائلها على الرمال.

وكلما فرغ من قسم من البيض ينقله إلى محطته ويملأه بالماء. تجمع لديه احدى عشرة بيضة ولم يتبق في الغدير سوى سائل ثخين لزج قدر انه سيكون طيناً في اليوم التالي.

النار يا رميم سيدة الليل. وهكذا جمع الحطب كما حدث بليلته السابقة وكوّمه على حافة الغدير، وإذا ما هاجمته الذئاب فسوف يؤج النار في اشجار الرمث ويبقي السيف للضربة الأخيرة التي تحدد المصير.

سمع مثلما الليلة الفائتة عواء الذئاب وهمسات الريح، اصوات رمال التلال ونقرات حشرات الأرض. نظر الليل أكثر من مرة ولم يلمح أي نور، وكانت الريح السلسلة تداعب ببرودتها اللذيذة اعضاءه اللزجة الملوثة بالغبار والقش والدهن. فكر بأن الغدير سيكون نقطة انطلاقه ليوم الغد، الغد الأخير في هذه البرية الموحشة.

• • •

لم تبن الشمس بعد حين استيقظ رميم. في السماء كدرة خفيفة وعلى الأرض صبغة ليلكية شافة عن تباينات لونية تؤكدها الرمال والحصى واغصان الرمث المتجمعة على نفسها. تناول افطاره ووضع قربته المعدة لتوهجات يوم حار يستقرئه في صفاء السماء وامتداد البرية الجرداء، وعلى حافة الغدير رأى بيوض النعام تصطف وقد صفا ماؤها ويداعبها نسيم صباحي خفيف.اطعم الفرس وأوردها ركوتين من الماء واعتلاها ثم لكزها خارج الحافة الصخرية. سيكون الغدير نقطة انطلاقه، مركزه الذي يعود إليه بعد انجاز مهمته. نعم، الغدير ببيوضه المائية وصخوره الشبيهة بصحف بيض ورمثه الملتف باغصانه الذربة. كان يتفحص المكان جيداً، يستحضر تفاصيله بذهنه، ويتقرى تضاريسه الارضية كي لا يتيه عنها. الرمث غمامة ارضية سيلمحها من بعيد، والصخور المرتفعة شاهد لا تخطئه العين، والوادي عن يمين الشمس مجانفاً

نحو الغرب. في المساء طيور شاهقة التحليق عيونها على رطوبة المكان وديدانه المتخفية بين جذور الطرفاء وفي مسامات الرمال البليلة وحول صفار البيض المسكوب بخثرته المتجمدة النائة لروائح عطنة. هاهي الصحراء مرة أخرى، بمضارب بدوها المتخفية عن البشر وجمالها الشهب السارحة في نباتات الحميض والعشب اليابس، هدفه هي ومبتغاه، يخب بها مثل فارس انقطعت فيه السبل، يعانقها بعينيه، يفتضها بحوافر فرسه الحمراء المتعرقة الناخرة بسبب غبار أملس ينشر السراب على اشعة الشمس الطالعة من الشرق. اين انتم ايها البداة؟ يخاطب نفسه، هل اخافكم رميم ام اقفل الحظ كل الجهات حوله؟ انتم يا من عمرتموها منذ آلاف السنين، تركتم اثاركم على معادنها ووروداها البرية، يا من دلتكم هبوبها على الأمكنة مكاناً مكاناً، كيف ابتلعتكم الاصقاع وأي المسالك قادت جمعكم؟ ما الذي تقوله القرية إذا ما عدت خائباً، إذا ما غورتكم الفيافي؟ بوجه رميم هجر البدو مضاربهم ويمموا غرباً إلى الشام، هربوا من سطوته المعقودة على رسن فرسه، أي سخرية تلفك يا رميم، يا سليل القرى ووليد الانهار والنخيل والاقياء. الشمس في قبة السماء تتسابق مع خطى فرسه وتمنحه ثمارها الفجة: اشعتها ولهيبها وسرابها المنطلق كجيوش غائرة. العطش سليل الشمس يتصاعد في جوفه، يهمز حلقومه بسوط رفيع جارح، فتسقط عيناه على القربة الساخنة الملتصقة بفخذه. يفك اسارها ويتلقفها بشفتين مشققتين، ينحدر السائل إلى جوفه فلا يرويه ويلمح الفرس ترمقه بمقلتين ساهمتين، نظرات تستنجد، تستغيث، فالخلايا جافة والعضل ناضح بعرق المشقة والقلب واهن. الماء يا رميم سيد الصحارى مثلما النار سيدة الليل. الماء جذوة الحياة، جذرها المثبت للأحلام والحركة وليس تغني الجمال ولا الشياه عنه.

فجأة لمح رميم خيالاً لجمل واقف اصفر اللون، ينساب عنقه مع تعرجات الكثبان ويميس جسده في سراب مائي. انهم البدو اذن. لملم روحه وتصاعدت الآمال فيه واحس بالنشاط يعاوده، غير أنه فكر بالفرس، فكر بها حين شاهد

كسلها الواضح وعرقها المختلط بغبار ورأسها المنحني إلى الأرض. لم ينس اطعامها في الصباح، اجل، لكنه البياس، عطش الخلايا هو الذي ينيخ عليها. فكر رميم أن ليس من الحكمة الاغارة بفرس عطشى، ومن يغامر بذلك فلا يندم امام الخذلان. اوقف الفرس ونط عن ظهرها وتناول قربته شبه الناضبة وتوارى خلف تل واطىء وراح يسقيها براحة يده. حفنة بعد حفنة والفرس تكرع بشغف، تلعق جلده الرطب البليل وتتنفس بعمق. وفي هذه الاثناء لم تفارق عيناه خيال الجمل الأصفر، الذي يغيب ويظهر بلعبة مملة. جمل وحيد في بحيرة من السراب، اين رفقته اذن، اين الرعاة المزنرون بعباءاتهم السود؟ اليهم ايتها الحمراء، قال رميم وهو يقفز على ظهر الفرس ويوجهها نحو الجمل. خب بحذر في البدء ثم حين قدّر أن المسافة لم تزل طويلة راح يمشي على هواه فيغور بواد ويعتلي تلا، يراوغ شعباً ويلتف حول غيطة شوك، وكان ذلك الجمل يختفي مرة ويبرز ثانية بكل التفاصيل. كان يبتعد ويتلاشى في خط تلاقي الأرض مع السماء، يسبح في زرقة غبارية أو يندس في الكتل الرملية، وليس من جمال عداه. هل هو ضال يا ترى، نسيه الرعاة خلفهم، أم أنه مصاب بجرب قتال استدعى تركه لمصيره؟ اسئلة، اسئلة مغلقة تنبت في الذهن مثل الحميض. كم من المرات شرب من قربته، لا يعلم، انساه الجمل نفسه ولم ينتبه إلا حين الفى الفراغ وهو ينيخ على الجلد الأسود، الفراغ المميت الشبيه بالصحراء. والفراغ نفسه ردّه إلى الحقيقة، حقيقة أن ما يتبعه سراب فقط، سراب له هيئة الجمل، ولا بدو في هذه الأصقاع.

كان اليأس يكشّر له عن اسنان صفر متآكلة، يراها في الوهاد المحيطة، في البياس المستولي على الاعشاب، في السراب وهو يصطخب كالمياه، يراها حين يرمق برعب جلد القربة المتخشب وفرسه التي ازدادت هرماً بحر يوم واحد فقط، وهاهي تجر قوائمها على الرمال جراً وتنكس بوزها على الاديم المستعر الفاح بسعير يجاوب السماء. الغدير الغدير، بؤرة الحياة وحاميها. البيوض البيوض، المياه المياه. الصخور الصحائف، الوادي الملوث بزنخ صفار بيض

النعام. ظلة الحواف الباردة مخبأ يقي من الموت. وحلق فوق رأسه غراب ثان يزعق، يملأ الهواء بريشه الأسود المتطاير، غراب يتشهى الضحية، مخالب تفتش عن طراوة اللحم، عينان تسخران فيهما من شهوة الدم ما فيهما. وكان رميم يلكز فرسه عائداً إلى الغدير، فمه فرن واجفانه اشواك. يستعجلها طي المسافات وتجاوز المهاوي، غير أن الفرس لا تستجيب. لكزها بقوة، ضربها بمؤخرة قدميه، ساطها بالرسن، والفرس غير مكترثة قوائمها استحالت إلى قضبان خشب، واصبحت عائقاً للوصول. اصبحت يداً للموت تطبق عليه، تجره إلى المصير المرعب. وبعد أن تجاوز بها أحد الوديان حرنت وأبت المشي. ضربها بالقربة، برأسه، بكفيه، إلا أنها ظلت في مكانها لا تريم. فكر بافتراسها، بشرب دمها، لكنها افكار فقط لم يستطع الاقدام على تنفيذها. هل يأكل لحم فرس، وهل يشرب الدم، كلا، كلا، فالغدير أمامه وما عليه إلا المشي بهمة وسوف يصل. تركها لمصيرها ورآها بعد فترة قصيرة تتهاوى على الحصى الناري، ورأى عقاباً ينقض وغراباً يدوّم في الفضاء. رأى الوزغة تهز ذيلها والافعى تحرك فكوكها، سمع نداء ضبع وصيحة ضار. الاتجاهات كلها ضوار تلاحق فرسه الحمراء، ومع ذلك ظل الغدير وجهة له وقبلة. الغدير الغدير، البيوض البيوض، فإلى هناك يا رميم، إلى هناك.

* * *

هنالك غربان ثلاثة تحوم فوق الوهدة، غربان تلف في دائرة واسعة ثم تنقض على الوهدة الصخرية بين الحين والآخر كما لو كانت تهاجم عدواً ما أو فريسة غير منظورة. وتحتها مباشرة لاحت بقعة الرمث الداكنة التي حولتها الشمس الحمراء إلى نقطة سوداء. بياض صخري هناك وزنخة يجلبها النسيم، والدلائل كلها تومىء إلى غديره. الاقدام عنده خيوط رثة لا تقاوم ثقل الجسد، بصره مشوش غابت عنه حدود الأشياء ومواقعها ولسانه استحال عظماً يمسد به شفتين لا تنطبقان إلا بمشقة هائلة. لقد تهاوى رميم مرة اثر مرة، وقع بأكثر

من حفرة وغار، درجته الرمال فوق ذراتها بلا مقاومة والشيء الوحيد الذي جعله لا يستسلم رؤيته للغربان، فظل يمشي ولم يرتكن إلى تيارات موته.

هنا الصخور التي على شكل صحائف، وهناك الرمل الجاف المتشقق وقد غار ماؤه إلى جوف لا يرتوي، واعمق بقعة في الغدير هوة فغرت فاها وتشققت أسنانها القديمة وتحول طينها إلى مارج يعكس الخيبة. وعلى حافة الغدير تجلت الكارثة، فقد كانت البيوض مكسّرة كلها، ولمح بقع المياه الناشفة وقد خلفت وراءها لوناً اسود خال من الرطوبة. انسفحت حياته مع مياه البيوض ورأى تصدعها في القطع الصخرية وفتاة اللبن الجاسئة وخرجه المتناثرة اشياؤه في ظلال الصخور. تلمس قشور البيض بيدين راعشتين، لملمها على بعضها علّها تنهض من خرابها امواج مياه تبل صديد روحه. كانت نثارات البيض تطوق الغدير كله فأدرك أن كائناً ما عبث بها عامداً، كاد له ليرسله إلى الموت عاجلاً، فشرع يستقرىء الاثار ويهجس الاقدام الخائنة التي فعلت فعلتها. اثار اقدام طيور تخدد البقع السود وذروق بيض متجمدة، وفي لحظة اقعى فيها على جذر عاقولة ابصر ريشة سوداء لم يشك انها لغراب. غراب من تلك الغربان التي لاحقته يومه كله وارشدت ظنونه إلى حظه التعيس. الغربان اذن هي التي عبثت باقداره. زعقاتها المتكررة، دورانها فوق رأسه، عيونها المدورة اللاصفة، امارات ما كان لها أن تغيب عن باله، ما كان لها أن تضلله إلى هذا الحد وتجعله يندفع إلى البدو دون روية. ما العمل يا رميم والمياه بعيدة والزاد قليل والصحراء موحشة، ما العمل والشمس تخب إلى غرب اعجف حمرته تفاقم وحدة البشر وتبشرهم بهلاك وشيك. أي الطرق تقود إلى المرأة والابناء، أي المسالك تدل على الفيء والنخل والساقية، أين انت ايها الحيوان المشعر، يا سامري؟

جمع رميم كما الليلتين الماضيتين العروق والاغصان وعناقيد الحميض وعمل كومة في موقد الأمس وهو يستعد لليل طويل يفكر فيه بقطرة مياه

يستحلبها أو وسيلة ترده إلى القرية. لم يعد يخشى الوحوش الليلية وحين تفجر في غابة الظلام عواء ذئب قريب احس بالألفة تخالطه، فعلى بُعد قليل منه ثمة كائن آخر يشاركه النجوم ونسيم الليل وسنى النار. جاهد لقضم لقمة من الخبز مغموسة بالسمون فوجد صعوبة فائقة ببلعها، فمريئه اشبه بجلد قربة، ولم يلبث ان قاءها على الأرض. سيوج النار إلى أعلى ما يكون، فلعل مسافراً يلمحها ويهتدي إليه، عل ظعناً راحلاً يميل إلى ناحيته. فكر أيضاً بذلك البدوي الذي ارشده إلى الغدير، لكن الليل تمطى على الجهات و لا أثر لظعن أو مسافر. هو والنجوم البعيدة وخيالات الرمال. هو وأصوات الجوف الصحراوي المنغلق على ديدانه وحشراته. خيل له أن دبيباً يقترب من مضجعه فتملى في الاجراف القريبة وتوقع رؤية حيوان مشعر او جني ذي قرون نارية، خيل اليه سماع رقيق اجنحة تخترق الفضاء، طيور مهاجرة إلى الأرض الشاسعة بافيائها وشجرها وعنابها، طيور تبزغ وتغيب دون أن تسفر عن نوعها. كانت العينان متورمتين من سفيف الغبار والجسد ناحلاً رخواً ينشمر على بعد امتار من النار. المياه المياه، كل خلاياه تصرخ، تدفعه إلى البحث عن ذلك السائل الرخيص، السائل الذي رآه قبلئذ ينسكب في السواقي والافجاج بلونه الكالح دون ان يخالطه احساس انه سيبادله ذات يوم بجواهر الارض كلها. زحف إلى قعر الغدير وحفر بيديه ومن ثم بسيفه ولكن دون جدوى. الرمال هي الرمال، وما عليه إلا أن يفجر غيظه بوجه تلك الغربان اللئيمة. سيخنقها غداً لا محالة، يفرى جسدها، يمزق اطرافها طرفاً طرفاً، يجعل اجنحتها طعاماً للنمل والعناكب. جرجر جسده إلى الحافة الصخرية واسترخى منتظراً طلوع الصباح، فالصباح يحمل المسافرين والغيوم، ويجلو الظلمات عن الأرض.

* * *

الشمس مرة أخرى، تطارده من عليائها، تطارده بجمراتها ولفحها

وشواظها. توقظه من سبات هو اشبه بالموت كان فيه يسبح خلل اشعة بيضاء مخدّرة، حيث الاماكن بلا مسميات والزمن بلا تقاطيع. هلام فقط. لم يجد نفسه في جوف ذئب أو ضبع كما توقع، كلا وجد جسده مسترخياً على الرمال في مظلة الحافة، والنور يغمر بقايا الرماد وكومة الحطب وحفرة المياه الخاوية.

اخفق بالنهوض من مكانه واعترته غيبوبة مفاجئة صبغت الدنيا بلون اصفر. الريق ناشف والاسنان ملوثة بتراب سفه الليل وعضلات جسده تحولت إلى نسيج حديدي لا ينثني ولا يلين. ينبغي مراقبة الجهات، فكر رميم، لا بد من أمل، سيلوّح للآفاق كلها بعلامات هي آخر ذبالات الحياة. انتزع دشداشته وتسلق الوهدة بمشقة واخذ يلوّح، إلى الشرق والشمال، إلى الغرب والجنوب. ما من مجيب، اعصارات فقط، رآها تلف على نفسها لتتصاعد مخروطياً إلى ا لأعلى ثم تهمد فجأة ولا يبقى سوى السراب. كان السموم قد بدأ يصفع وجهه ويجسىء بشرته ويساقط امانيه كلها في الرمال. الجمال والشهرة والصيت والبطولة، كلمات فقدت معناها ولم تعد تساوي حتى قطرة مياه. هذا هو سر الحياة يا رميم، السر الذي ادركته متأخراً.

كانت الصحراء تشويه، تنتقم منه لابنائها الرحل وابلها المعوجة الاعناق، كل صخرة من صخورها تحولت إلى جمرة انتقام، وكل ذرة من رمالها اصبحت مسماراً في نعشه. تنتقم لحيوانها المحترق لغدرانها الجافة لنعامها المهشم البيوض لدوابها التي اقلقتها الحوافر والنيران الليلية. فليكن يا رميم، واجه الموت بشجاعة واكتب مرثيتك على صخور الصحارى لعلّ انساناً ما يقرأها ذات يوم. اكتبها بدمك الشحيح على الصخور التي لها هيئة صحائف تنتظر رطوبة المداد الأحمر المتفجر من الشرايين. اكتب المرثية قبل ان تبتلعك الرمال كما ابتلعت الاجيال قبلك، كما غيبت المضارب والعشائر والجمال. ربما يمر عليها بدوي يعرف القراءة وينقل الخبر إلى قريتك، وإلا فسوف تصنف

ضمن الذين ذهبوا وما عادوا. اتخذ من الصخرة البيضاء قرطاساً ومن الطرفاء قلماً وفجر المداد من جسدك. خلد مماتك على صفاة، انثر حزنك في الهواء ودون لياليك التي امضيتها من اجل غزوة لم تتم وامجاد لا توجد إلا في رأسك، يا سليل الرطب والبرسيم، ويا صنيع الخبز الحار والطبيخ.

وكان رميم يتبع هواجسه واوهامه. من الجسد قدم المداد ومن الطرفاء القلم ومن الصخور الصحائف.

عندما وقفت الشمس فوق رأسه، انهى رميم نصف مرثيته، وقبل ان يصل حافة الصخرة السفلية لم يعد يشعر بأي شيء. سقطت الطرفاء وجفت الاحبار. وحين مالت الشمس إلى الاصيل وقبل أن يعوي الذئب ويضبح الثعلب، كانت الرمال بدورها تزحف وئيداً وئيداً إلى صخرة رميم، تدفنها في جوفها الخشن. وعند اختفاء الشمس خلف قوسها الاحمر غابت صحيفة رميم التي دون عليها مرثيته واستوت الرمال على الأرض ولم يبق في الوهدة إلا صدى بعيد لظعن يمم شطر الغدير الجاف.

يدان من ماء

ثلاث ساعات مرت على تواري الريفي، حامل البندقية الملتمعة، المدهونة بالزيت، خلف غابة الغرب المندلقة باتجاه النهر. واستطاع مهدي الدلوجي، البلاّم العريق في هذه الانحاء، وبفراسته التي لا تخطىء وتأمله الذي لا ينطفىء، أن يشم فيه رائحة مهربي العتاد واللصوص وتجار السلاح، اولئك الذين ظلوا يمرون من هنا على امتداد نصف قرن، محملين بانواع الاعتدة وتغصُّ جعبهم بالمدهش من السلاح. هم وحدهم كانوا مدار حديث أهل القرى، ومن كان جند الانجليز يرهبون تسللهم الحذر إلى الخيم المسدلة والمعسكرات والمخازن المموهة.

ثلاث ساعات امضاها الدلوجي عرضة لأسف منهمر وترقب مر، ينظر في الجانب الآخر من النهر فلا تواجهه سوى طيور الماء والنوارس وطلائع الزرازير، يتعقب خيال الرجل الذي غاب على دراجته الهوائية فترتطم نظرته بصف التين الطويل، وهو يشتبك باصرار وهوى مع اشجار السبحيح ذات العناقيد وحائة الشاطىء واوراق الثيل الطويلة المدببة، وقد اصبح جداراً رجراجاً منيعاً اوقف اندلاق الغابة إلى الماء. انزلق بصره إلى قاربه الهزيل المربوط إلى شجرة التوت، متفكراً بتلك الساعات التي لم تكن حصيلتها إلا شخصاً واحداً، ايقن انه مهرب سلاح دون شك، وتداعت في ذهنه صور بنادقهم المسروقة من معسكر

الذبّان او المهربة من سوريا: أم خبر، البرنو، ام الدلعة، الفرنساوية، ومطابق الصيد، وكانوا يزودون بها شيوخ العشائر والشحنات وافندية المدن الموسرين والبدو، حيث ازاحت بطلقاتها المرعبة ورائحة بارودها النفاذ، صليل سيوفهم المدهونة بزبد الغنم وجلجلة خناجرهم المعقوفة المزخرفة بالودع والنقوش ورعشة رماحهم اللاصفة تحت نور القمر. كان معلمه أبو العاقول، المعلم الفذ بالتجذيف والشيخ المقتول، ذات يوم، واحداً من طينة اولئك اللصوص المهربين الشجعان، سارقي بنادق الجند واسطبلات الشيوخ الاقطاعيين قبل أن يركن إلى القرية.

ـ يبدو أنه احد مهربي آخر الزمن وإلا لعبر على الجسر... مثل سائر الناس.

نثر حوله الكلمات كما لو كان ثمة شخص في الجوار يقف منصتاً إليه، وتلك عادته، فحين يمتد بقاؤه إلى وقت متأخر من الليل، ليل المسافرين والرحالة والفلاحين وتجار المواشي، ينثر كلامه على الرمال والاسماك والصراطين وقاربه المنهك، كشلالات صغيرة متلاحقة، عن غرائب الدنيا، عن الربح والشحة، عن الطقس والسماء. يناجي الهواء الجاف الحامل رائحة القفر البعيد والفيضان المدمر والصيف الذي يفجر العرق من الأجساد، وحين ينوح ثعلب، ليلاً، يصيح كالمأخوذ: إنه الخير، إنه الخير، فليس العواء المتفجر في الأحراش والغيض إلا علامة الوفرة والنماء.. هكذا هو، ثرثار في وحدته شحيح مع العابرين. إذ هو ينصت لهم ويرقب. يرقب حركاتهم، ايماءاتهم، ضحكاتهم وكيف يجهرون بها، نظراتهم واحاديثهم المتقطعة، ثم لا يلبث ان يصل إلى بلورات ارواحهم وخطوط ميولهم السرية المبرقعة، الخبيئة وسط ركام الاحاديث التافهة والحوارات المكرورة الجاهزة. ولا يبقى امامه إلا الاحتماء بكآبته المبهمة وغموضه الخاص، غموض المتوحدين والمتأملين، الغائصين في حيواتهم الداخلية ناعمي القلوب، متوهجين بنور رفيع من الحزن.

اوشك النهار على الانقضاء، فالشمس ذات صفرة ليمونية، والاصيل يترنح

بطوقه المذهب، والاشياء يكسوها الشحوب. لون اشجار الحائّة مرمل والسعف اقل خضرة، لكن السماء تبرق وتضوّي أكثر من ايماء زمرد مرئي، حتى ان غدائر الضوء الصلدة المعجونة بطراوة الهواء، لا تقوى على الانسكاب. وعن كثب، امكن له أن يرقب مساء يهز جناحيه وسيجلل يوماً آخر ثقيلاً من ايامه.

انحدر وجس الخطى، إلى القارب الرابض تحت الجرف العالي، عبر طريق ضيق يقود الاقدام خلل عروق طرفاء خشنة وعروق نخيل ملساء متشعبة متوغلة في باطن الأرض، وطالعته الشقوق الطويلة المعتمة، ترافق بعضها البعض موازاة صفحة الماء لتصل مقدمة القارب بمؤخرته العريضة. كانت تمتص الماء بشراهة، تدفعه إلى الجوف، مغطية بذلك اضلاع القارب الخشبية المقوسة. كان يشق طريقه بين العوارض الخشبية لحظة تناهت إليه اصوات سرب حجل، يفرش اجنحته في السماء مثل رقم "٨" منتظم. رقم رمادي مرقط، على سجادة شاسعة موشاة بالأزرق، عَبَر به متجهاً صوب قريته الملتفعة بالغابات، وما لبث أن حجبت المنظر اجمة بعيدة معتمة اعادته إلى القارب. عمد إلى الصندوق القابع في المؤخرة واستل منه علبة من الصفيح، ثم القى عجيزته على عارضة متآكلة مغطاة بالجنفاص. وبدأ يغترف الماء من القعر ليصبه في النهر. لبطت سمكة هائجة في الجوار، محدثة صوتاً فظاً اوقف حركته التلقائية وارتسمت على الماء دوائر واسعة، تثنت برهة وأوشكت حافاتها المهتزة على الامتداد في عرض النهر لولا لطمة موج شوهت تناسقها المرتعش. لقد كانت حركة الاسماك الفجائية معروفة لديه، فهي كلمات النهر ولغته العجيبة ذات الألوان من أحمر بني وابيض مفضض وزهري داكن. مثلما السكوت الغبشي، والموج المزبد، والنورس المنقض على سمكة ضئيلة، وزحزحة الحصى في القاع، واندفاع القطرات من النبع الأول، وتلاشي الضوء بين ذرات الغرين، وعروق الضفاف السائبة، والسلاحف المجذفة بأرجلها القطنية... تلك اللغة التي قضى عمره في تعلمها، في فك اسرارها وطلاسمها المنعزلة.

ـ أرى أن سمكاً وفيراً يسبح تحتك ايها القارب!

بهدوء وأناة، ظل يحدق في الفراغ الهائل العميق، فراغ الذكريات اللامرئي في ثنايا ذهنه، وسأل نفسه وهو يمسك علبة الصفيح سؤالاً خطر له للتو، حرّكته في نفسه لبطة السمكة واندفاع الماء بين الاجراف:

ـ متى مارست صيد السمك يا مهدي آخر مرة؟

في العشرين على الأغلب، حين كان شاباً مساعداً لأبي العاقول، يوم استعار شباك صياد رسا بقاربه تحت القرية، وكان النهر سنتئذٍ، يجري بالقرب من بستان النخيل، قبل أن يسلك سبيله الجديد. بعد جهد كبير فرش الشباك في النهر، وكان القمر غائباً في طيات ظلمة الكون، وكانت روحه هائمة بصيد الغد، من شبوط وبني وزبيد وبز وجرّي. وفي اليوم الثاني استفاق من نومه القلق قبل كل الرعاة، واتجه إلى حيث يرقد السمك، كما تخيل وصوّرتْ له احلام ليله، اطناناً تنتظر يده السحرية. وكم شعر بخيبة الأمل ذلك الصباح، لقد نبش الشبكة مربعاً مربعاً دون أن يعثر على سمكة واحدة. لم يكن ثمة إلا غاقة، مشبوكة في الطرف القصي من الشبكة. غاقة بيضاء مستسلمة لمصيرها الذي اوقع قدميها بشرك الخيوط، وهي تنجرف وتترنح مع تيارات النهر بجناحين مكسورين. وكي لا يرجع خاوياً، اقنع نفسه بهذا الصيد الثمين، الصيد الذي اختطفه ابو العاقول، ضحى، بحجته الواهية. قال له باستعطاف:

ـ انا لست طامعاً بهذا الطير المسكين... لكن ابني يريد ان يصنع مزماراً من عظمة ساقه. يقولون ان الصوت الخارج منه يرقّص حتى الجن.

بعدها لم يعد يصدق ما كان أبو العاقول يردده على مسامعه ليل نهار، من أن في النهر اسماكاً كالجاموس، فهو لم يلمح سمكة حتى ولو بحجم شاة.

توارى رأسه في جوف القارب وعادت طرطشة الماء ثانية، متباعدة متريثة، وحل محل ضوضائها هدوء وصمت، آخذان بافتراش شاطىء النهر وادغال

الشوك والعوسج، والشنبلان الملتوي كالقلائد، واكداس العليق الجاف، وعلى مدى الضفاف يسمع اندفاع دخان محشرج، ينفثه انبوب صدىء لمضخة ماء، هوى في مزاغل العتمة. نضب الماء فرمى الدلوجي علبته ولبث منتصباً مبهور الانفاس: الجهات فارغة، رمل وكثبان عارية، منخفضات مكسوة بحلفاء ورمث محمر الأوراق، جرس راع عائد من الحقول، طلائع غيوم جافة خلف الجسر. كل الجهات توحي له بعزلة خانقة تنشر غلالاتها وتجلل الكوخ القائم على الضفة الأخرى، ضفة قريته، والقارب المتراقص على الموج. سمع العزلة ترن كالصلصال، في نباح الكلاب وهديل القبرات المختبئات تحت عاقولة ما. وهاهو يراها ويسمعها في داخله، الذي يدق وينوح بلا جدوى البقاء. عليه ان يرحل. يدع النهر الذي احبه كثيراً مكتنزاً باسراره وغوامضه ثم يتقدم مغمض العينين دون الالتفات إلى الوراء. كم أحس نفسه وحيداً، مثل كوخه اليابس السعف، المقضقض القوائم. الاشياء تحاصره مذ ضاع عهده الذهبي عندما كانت القرى كلها تمر من هنا، عبر قاربه. كان الخيط المتين الذي يربط الحامضية وعيث الفاسد والشامية والجزيرة والشيخ حديد، بمدينة الرمادي. الفته الشواطىء واشباح العابرين ونداءاتهم الممطوطة المترددة بين الاجراف بصديات مضحكة جوفاء او نزقة او مشوهة. الف طلاب القرى الدارسين في المدينة ووعودهم بجلب علب السجائر، ذات المؤخرة الحمراء، وعمال معمل النسيج وهم يؤملونه بالقماش المزهر.

ـ نسانا البشر ايها القارب! انهم يعتادون الاشياء الجديدة بسرعة. اعتادوا الاسلاك وضجيج السيارات ورائحة الوقود. تراهم يذكرون الكوخ وماء جرته البارد؟ لا أظن ذلك. اذن لتشبع القوارب موتاً ولتقتلع الرياح الكوخ وجرته وظله.

قفز الدلوجي إلى الجرف، تشبث بعرق اسود خضب يده بعصيره الرماني الممتزج بالطين، ثم دار حول شجرة التوت منتزعاً حبل القارب. لفه بدوائر

ضيقة ثم انكفأ إلى الجرف ملقياً الحبل في مستطيل المؤخرة. هاهو القارب طليقاً لا تربطه بالشاطىء رابطة تذكر. ازمع الانطلاق وخالجه شعور ان سفرته هذه ستكون السفرة الاخيرة. انحنى على المجذافين وطواهما إلى الداخل واستل المردى الطويل الاملس، وهو ساق شجرة حور، وغرسه في الشاطىء، ضاغطاً بثقله عليه، فتململ القارب وانتفض، ارتعش وخض الماء تحته متدحرجاً على السطح، شاقاً مسيل التيار شقين بلوريين. ثم توالت ضربات المجاذيف من يدين خبيرتين، صارعتا الريح والعواصف النيسانية، شقتا غمار السنين وتقلبات انوائها. هو الآن في المنتصف، تحيطه جَمْجَمةُ النهر وأهواؤه ولغته: فثمة مراوح مائية تدور على نفسها وقوارب تحطمت ذات مرة فهوت إلى القاع، مهب ريح عارية مقطبة آزة ونجوم ترتعش يعكس النهر برودتها الفوقانية ووحدتها المسافرة عبر اشعة الاضواء المتغامزة. تحت السطح تربض آبار عميقة مكتظة بالرفوش والسعالي والهوام الظلامية من ذوات الخطوم والمجسات واللوامس، تترصد بأعين مركبة أو غائرة أو معلّقة، هبوط الهابطين وعطايا الارض وبقايا بني البشر. مياه تنسرب تحت رجليه ثانية، تفور متخذة سمة نبّارات مائية يشوبها الرمل، افترشت قاع القارب مجدداً. ضرب بعنف وجلجل صوته عالياً ترشح نبراته بقنوط ويأس:

ـ انها نهاية الرحلة، اتفهم؟ ما عدت اطيقك يا صاحبي.

رسا قريباً من الكوخ، ونزل مخوضاً ممسكاً بالحبل، متجهاً إلى حيث ينتصب وتدٌ ذو تفرعات نافرة، غُرس في الرمل. وبأحد فروعه عقد مهدي الحبل وانسلّ إلى الكوخ عِبرَ بابه المقوس.

في الزاوية كانت الاشياء تتكوم بفوضى بائنة: حبال رفيعة ومسامير مدببة، علبة حديدية صدئة تحتوي على القار الجاف وقصاصة من الخشب لاصقة بها، فأس حادة مركونة جانباً وبقع من النفط الاسود خضبت مقبضها الجديد الابيض المتنافر مع لون حديدها الصدىء. وتناثر بعيداً عن كومة الحاجات،

بعض الأوتاد والعوارض الرخوة، بينما علقت في الزاوية المقابلة جرّة متوسطة الحجم في عمود الكوخ، غطيت بقماش رمادي علقتْ فيه ذرات قش ناعم ورمال، وهي ترشح ماء رسم على الارض دائرة سوداء مشبعة بالبلل. وبحركة مجهدة حاش قطعاً من الحبال الرفيعة وسحب علبة القار ثم استدار خارجاً.

ـ قبل أن تضع الحبال المطلية بالقار في الشقوق يا مهدي، ينبغي افراغ الماء ثانية أف، حقاً لقد فقدت طاقتي.

تهالك على حافة الشاطىء بعد أن القى العلبة والحبال جانباً... تهالك كخرقة ملوثة بالطين.

ـ ما نفع الترقيع بعد اليوم.

تطلع بما يحيطه مستنجداً: بالنهر والغروب الينفسجي وشبح الجسر الخرساني البعيد والرمال السنية، بالاسماك الصغيرة المتقافزة بنزق إلى الهواء، هي نفسها بلا شك، التي كانت تدغدغ رجليه المدلاتين في النهر، ايام الطفولة البعيدة، ايام الشباب الحافلة، حين كان النهر ممراً لحياة عجيبة لم تخلف في الذهن إلا ذكرياتها. انه الزمن الذي كان فيه، سبيلاً وحيداً لحاصدات القمح وباذرى الحبوب وجالبات الحشيش من الحقول، للطحانين وتجار الماشية والزفافات والمهربين وبائعي الاقمشة واللصوص ومبيضي الاواني. كان ممراً أيضاً لعشرات القوارب الصغيرة الضيقة أو العريضة المفلطحة، ومراكب النفط بروائحها النفاذة وحيازيمها الغاطسة وقمراتها البيض. كان الصبية المستحمون يحتمون منها بجذور الغرب، معلقي العيون بسائقيها المتغطرسين. وانبلجت امامه نظرة ريس المركب وهو يخزر القوارب باحتقار، وابو العاقول مقعياً على قاربه راغباً عن العبور خوف الاصطدام. وبوقاحة كانت تلك المراكب تتجاوز القرويين وارانب الحقول المتوثبة وعيون البقر المستكين، نافثة هباب مداخنها الاسود كما لو كانت عفاريت تقاتل طيور فضاء خفية. انها ايام صباه التي لا تنسى، تتصاعد منها كالضباب اشباح مراكب وقفف واكلاك وزوارق ومشاحيف، شباك صيد ومجاذيف مطرزة بالقصدير والحديد لصقت عليها

قطع جلدية لتمنع تآكل الخشب. شخاتير طويلة ومهيلات محملة بخصافات التمر وعلب الدبس الابيض والملح والسكر والهيل... مرت من هنا عابرة إلى هيت وعنه وراوه وقرى الغرب الممسكة بلجام الفرات، كان يمتطيها رجال ذوو اطواق موشاة بالحرير ويعتمرون سدارات أو كوفيات حمر ملفوفة باناقة، يتربعون على السطوح امام بضائعهم النفيسة: تجار الحناء والشنان والكافور وقلائد القرنفل، طلاّب القمح والذرة والصوف والماشية وأواقي الفضة وأونسات الذهب العتيق المطبوع بصور آخر السلاطين العثمانيين. أيام... كان فيها صبياً، مساعداً لأبي العاقول مالك القارب، الذي مات بضربة بلطة وجهها له أحد العابرين، شقّت رأسه الاشيب نصفين، وعلى اثرها ابتاع الدلوجي قارب معلمه، وظلا متلازمين بألفة بين جناحي النهر. ويمثل له الآن أكبر وأغرب مركب رآه في حياته يمر عبر النهر: كان محشواً بأجهزة غريبة تدور أو تتلوى على محور لدن، ترسل تنهدات صوتية منفردة. كان كبيراً، هائلاً، فيه غرف ومقاعد ومصابيح، يضيوءها شيطان متخف يطحن اسنانه بهدير عجيب، القت انوارها على الضفاف وقشطت دكنة المساء. تناثرت على سطحه طاولات وكراس اقتعدها رجال غريبو الاطوار، بحلقوا به وبأبي العاقول المذعور بانابيب سود طويلة وضعوها على عيونهم وهم يتخاطفونها فيما بينهم. لم يسمع ضجيجاً وقرقعة قط، كالتي كانت تصدر من محركه. ظنه أحد المراكب الراحلة إلى هيت ودير الزور لجلب البضائع أو مقايضة القرى. ظل سابحاً بخفة غرباً، ولم يخلف في الافق سوى تلويحات رجاله الافندية، وهمهمات اجهزته الشيطانية، وذبالات مصابيحه المتكسرة اضواؤها على سوق القصب واوراق البردي وابر الشوك. خلّفها هنيهة ثم ابتلعها ظلام النهر واجرافه. في تلك الأمسية اصابه وأبا العاقول الخرس، ولم ينبسا بكلمة عن تلك "الهولة"، التي وفدت وتاهت خلال الموج. ظل ذلك المركب لغزاً اقض مضجعه إلى ان جلب له ابو العاقول السر. فقد أدار حديثاً مع تاجر غنم في مقهى العشائر، المجاورة لسوق اليهود، وأخبره التاجر أن المركب الذي رآه

اعدته حكومة لندن لمسح اعماق الفرات وضفافه، وربما يصبح ذات يوم ممراً مائياً يربطهم مع جيرانهم الفرنساويين عبر دير الزور... صاح نورس في السماء فظنه الدلوجي مزمار مركب نفط قدم لشحن مضخات المياه بالوقود، مع ان تلك المراكب اوقفت رحلاتها منذ عشر سنين، والتفت منتظراً بزوغ طلعته المجللة بالقطران. غير أن زعيق الطير ثانية افاقه لنفسه فحدق باندهاش وخرج من متاهة حلمه اللذيذ المتعرج السبل. فسحب رجليه خارج الماء، بينما تساقطت قريباً منه، بضع ريشات بيض، ترسبت بخفة على الرمال.

ـ لقد مضى النهار ولا من مسافر يرغب العبور. صنعتي فسدت وأنا افهم ذلك، على أية حال فالنهر كف عن منحي لقمة العيش.

في الكوخ لمحت عيناه الفأس المغطاة بالحبال فتسمرت عليها. تناولها بيد مترددة ثم انعطف متقهقراً إلى القارب حيث فصل حبله عن الوتد، وفي عقله ارتسم مشروعه الصارم. لا يريده عرضة للعيون الشامتة، سيواريه حتى اعمق نقطة في النهر، ويهيل عليه كتل المياه. انه من الماء وإلى الماء: هو وحكاياته وعجائبه وآثار الناس على خشبه، كلمات الشباب المبطنة المذاعبة للصبيات العابرات، غمزاتهم واشاراتهم الوجلة الخائفة من الرقباء، كركرات طلاب المدارس وهم يحلقون بدراجاتهم الهوائية في اساطير طفولتهم الرثة، تندرات الارامل واحاديثهن الفاضحة عن الاعراس والختان والطلاق، دم ابي العاقول الذي تشربته اخاديد الخشب.

جرجر قاربه خائب النفس، يساوره قلق مجهول محتجب لحياة قصية ودعها، لخرائب ماض متلاشية وبساتين طفولة شاخ شجر ذكرياتها واحداثها وظلت بيارق تنتأ ثمة، في العمق، كقضبان نار. كان يمشي مع التيار، صاعداً ضفة رملية أحس طراوة ذراتها البليلة، وقد نمت عليها اشجار الطرفاء وامتدت فيها السنة الحائة المهشمة واشواك العاقول المسننة. والقارب ينقاد له مستسلماً، منكصاً مَقدَّمه، هارباً من التيارات المائية. كان يرتطم في المنعطفات والاجراف

المزروعة بالعروق والنتوءات، منبهاً بخبطاته العشوائية حشرات الارض واحياءها الخيطية وقواقعها المنكوزة، إلى حفل ذبحه المر البعيد عن الاصباح العاجية والسماء المنخوبة بالنجوم.

انهمر المساء متريثاً، بنفسجياً، رش مسحوقه السحري على النهر والخلفاء وبيوت القرى الواطئات. انهمر مثل غبار خفيف يعلق بكل شيء، وتطابق الافق توا مع خيط الجسر الرقيق الحريري. الجراد جنح محتمياً باقرب اجمة وخفت ازيز اليعاسيب، وقادت مهدي الدلوجي فأسُهُ المسلولة إلى حلفاية ذات قصب جاف لف حولها الحبل باحكام. وطالعته عينا ابي عرس من تحت ارومتها الضخمة، ترقبان ما يجري وسط هذا المساء.

بحزن لم يألفه، انحدر من الجرف مشرعاً فأسه سابحاً بهالة اساه مواجهاً قاربه المحتمي بالرمال، المشبع كجسد ميت برائحة الازهار المائية وانفاس السعد. وعلى الرغم من ثقل الفأس وتراخي اعصابه، فكر أن عليه أن يضرب ضربة محكمة، تخاتل صلابة الخشب وتدفن ماضيه بين طيات الغرين إلى الأبد. رفع ساعده وهوى عليه، فانبعث رنين اخرس احتضنته الشطآن والكهوف والليل، وعقب الضربة الثانية تناثرت قطع الخشب وطفت مع غيرها من العروق والجثث والقصب على سطح الماء. ثم توالت الضربات متعجلة، خائفة، تعبر عن رغبة عميقة بمغادرة المكان. وجاءت الضربة الأخيرة من أطراف خائرة، خلخلت توازن القارب فانسرب بعيداً عن الجرف وشد إليه الحبل فتوتر وانحنت اوراق الحلفاية واستدقت. فر الحبل بعيداً عن الحلفاية، يجرجر اذيال انشوطته، بينما غاصت الفأس بثبات في النسيج الرخو.

كان القارب ينفلت من بين يديه، يزحف بعيداً عن الجرف، في ظهره طعنة نجلاء، جاراً حبله الليفي خلفه كأفعى مائية، بينما كانت نظرات الدلوجي تحملق بدهشة: من منتصف النهر خرجت يدان مائيتان تلقفتا القارب بحنو، سحبتاه إلى جنة القاع المظلمة، حيث الحكايات والكهوف وسرطانات النهر.

المحطة الأخيرة

هذا قطار الزيوت، جاثياً تحت باصريه، هامداً على سكته الساخنة كثعبان اسود يتأهب للاندفاع نحو الفريسة. وسيعقبه قطار الثامنة الذي سيأخذه إلى الجنوب، في رحلة النهاية، تلك الرحلة التي ظل يخشى لحظة مجيئها منذ بدأ حياته ناظر محطة.

بدأ الأمر قبل اسبوع فقط. حين فض البريد ووقع على كتاب احالته على التقاعد. ارسل العائلة إلى الناصرية، مع الاثاث والحيوانات التي كان يدجنها في الحديقة الصغيرة الممتدة خلف البيت، وكانت زوجاً من الارانب ومعزى بيضاء الشعر وهراً أسود الشعر اخضر العينين، اما زوج الحمام فأبقاه لابن مراقب السكة... وهو يراه الآن جالساً في باب الحانوت يشير لهما بفرح غامر وينقي ريشهما من غبار القطارات.

صفير متقطع وحشرجة تنتشر امام المحطة حيث تطغي على الحوارات الخافتة وهديل الحمام واصطفاق الأجنحة وهي تندفع نحو السقوف الواطئة لبيوت المدينة المنعقد على اسقفها دخان شفاف وغبار ناعم يتطاير من العجلات القادمة من الجنوب أو المندفعة من الشمال، نحو مدينة الدفلى. وكان يدرك أن القطارات المارة هذا الوقت، تكون عادة، محملة بالزيوت، ولا تربط مع خزاناتها عربات مسافرين. يعي ذلك بجلاء وهو يلاحق بحواسه اجمع،

محرك القطار الأسود، نافث الدخان الكحلي في الوجوه المعروقة والجدران المبيضة بالجبس والزهرات الحمر المتدلية من اكثر من سياج أو المتسلقة حتى اكثر الواجهات ارتفاعاً. القطار المحمل بالزيوت يندفع الدفعة الأولى، والسائق يومىء مودعاً، الناظر والمراقب والحانوتي والطفل مع حمامتيه ودكة المحطة الخشبية. جر عتلة المضخة الحمراء، عتلة الوقود، فاندفع دخان جارف ذو زعيق، نشر الرعب في المدينة: مكبس يلج إلى الداخل، زيت يحترق، بخار يتفرقع، عتلات تدور وتضرب بعضها، نوابض تنوس يميناً وشمالاً وكوابح تتقلص وتنبسط، ثم يتململ القطار ويرتجف ويصفر من جديد صفيراً متواصلاً، يندفع بعده إلى الامام، تحت باصري الناظر، بتراخ وخمول.

تمر الكتابات البيضاء، المطبوعة على سطوح خزانات الوقود، متربثة، سائبة نحو التلاشي، باردة الوقع على عينيه، صهريج النفط الابيض، صهريج الديزل، مقطورة نفط الوقود الثخين مجللة بالقطران، مقطورة اطفاء الحريق، عربات خشبية وقناني عملاقة باشكال بيضوية أو طويلة او مربعة، تسيل خلف القاطرة كأنها حشرة مفصصة الجسد. ما يراه الآن له مذاق خاص، وبه شيء من اللذة، لذة المناظر الغريبة التي يحرص الانسان عند مفارقتها، على امساك صورة ولو غائمة منها. انه اليوم الاخير له، لأقدم ناظر محطة على خط سكك الحديد الأيسر. اصدقاؤه الذين لن يراهم. قطاراته. حكايات المحطات ومناظرها الليلية الموحشة. سياجات البيوت الشجرية التي عدّها اعظم اكتشاف شاهده في حياته: الاستغناء عن الملاط والحجر باشجار دفلى دائمة الخضرة كأسيجة لبيوت الموظفين ومستخدمي المحطة وحتى البيوت الطينية الفقيرة.

مضى القطار مندفعاً إلى بغداد، راشاً الهواء الراكد بشواء سوائله ودخان انابيبه، وكان الناظر قائماً بجسده النحيل محاذاة قضبان السكة، ثمة رجفة خفيفة في قدميه ونغزة حسرة في قلبه. لا يمكن ارجاع السنين إلى الوراء، كما لا يمكن نسيان جريان نهر الأحداث في رأسه.

تعمد مراقب المحطة احداث جلبة مع الحمامتين وابنه، لا لشيء إلا لرد الناظر من رحلة تأملاته، وكان يدرك ابحاره في الأمكنة التي عاش فيها قبلئذ، لأنه يعشق الحديث عن الماضي: محطة التون كوبري، محطة خانقين، محطة بعقوبة بجسرها الحديدي المنتصب على النهر كمارد جبار هابط من كوكب آخر، تحيطه بيارات البرتقال واللالنكي التي تمتع بها أبو سامي الناظر أصيافاً عدة اما محطات الجانب الايمن: الموصل، تكريت، محطة الناصرية، محطة الحلة، فقد قضى نصف عمره فيها، عاملاً فمراقباً فمحصلاً.

من بين فجوات العربات المهملة، كان بصر الناظر يرتطم بأشجار يراها للمرة الأولى، أو هكذا شعر في هذه الدقائق، تميس خلف المقطورات والجدران، ميز منها اشجار جوز باسقة واشجار اثل مسرّح الاغصان متهدل الأبر، وبضع نخلات تكاد لا تقوى على حمل مظلاتها السعفية الشائكة. تمرُ الملك، الشوك الملكي، اليوكالبتوس المكتظ باعشاش ضخمة للغربان والصقور، التي تحلق دائماً فوق المحطة. وما بين الاشجار القائمة وسياج اشجار الدفلى المزهرة خلف ظهره، تتناثر ابنية المحطة بتصاميمها البسيطة: حانوت المحطة، غرفة قاطع التذاكر الضيقة المبنية بالطابوق الاصفر والمسقوفة بالصفيح، وغرفة حراس المحطة التي ينبت امام بابها جذع نخلة يابس متآكل الخشب. وعلى الجانب المقابل تقوم دائرة كهرباء المحطة، يلف قضبانها وكابلاتها تيار قدم موغل بارز للعيان. ولم تذهل الناظر بساطة الابنية، إذ أن أكثر ما اذهله كثافة اشجار الدفلى داخل المدينة. صار يراها بكل المواضع التي حل فيها: سياجات البيوت هي، شتلات الزينة في اصص النوافذ وامام الابواب، الحواجز الوسطى في مداخل المدينة ومخارجها، وخمائل التلال الخفيضة المطوقة للمدينة، مما جعلها تكتسب تفرداً مذهلاً بين المدن والمحطات التي خدم فيها، حتى ظن ان القطارات المتوقفة في المحطة تجلب يومياً شتلات جديدة بحجم الكف توزع على السكان والبيوت تحت جنح الظلام. ففي كل يوم تزداد كثافة الدفلى، وكل يوم تواجهه ازهار فاقعة الالوان، وطيلة سنواته العشر التي صرفها في هذه

المدينة، لم يدر متى كانت الشجيرات تشب ومتى كانت تشيخ ثم تموت. لقد اطلق عليها في سره مدينة اشجار الدفلى.

ـ مضى القطار، نسى رجاله والمحطات القديمة واشكال الشوارع. لقد مضى!

في الافق البعيد صقور اجنحتها سائبة، واشعة صفراء مطلية بالغبار وسقوف تنوء تحت ثقل الملابس المعلقة وهوائيات التلفزيونات والعصافير، وعلى مقربة من باب الحانوت كان المراقب يحدق مثل ابي سامي، في قطار الزيوت المندفع بقوة، عابراً جسر المدينة الكونكريتي.

ـ أجل، وعليك انتظار قطار الثامنة، فلا تعجل يا أبا سامي.

لم يظن الناظر انه سيمكث كل هذه السنوات في مدينة الدفلى ومحطتها العارية. وقد راوده هذا الاحساس اول مرة يلتقي فيها ناظر المحطة السابق وكان عصبي المزاج، ومن المعجبين جداً بالانجليز وفضائلهم. حدثه عن تاريخ المحطة يومذاك بعجلة، ولا يزال الحديث يجري في عروق ذاكرة ابي سامي وهو يرقب غبرة القطار في الهواء وراء المدينة. بنيت سنة ١٩١٨ وقتما مد الانجليز ذينك القضيبين الهائلين، بدءاً من بغداد حتى الشمال، مروراً بالمدينة، لنقل البضائع والسلاح والعتاد والجنود: جوز من جمجمال، تين من السليمانية، نفط من كركوك، حنطة من سهول دربندخان، زمان من جلولاء، وعنب من بعقوبة. وكان جنودهم من الهنود، عمائمهم ضخمة واقراطهم متدلية على اللحى المشدودة كشعر الماعز، ويفوح من اجسادهم ضوع البهارات وعلى ميناء اسنانهم صفرة الدارسين والعصفر. يطلقون عليهم اسم السيك، لم يفهم الناظر وقتها، كيف اتت ولماذا، تلك التسمية الغريبة... التقاهم في محطات أخرى غير هذه المحطة، في محطة البصرة ربما، أو الناصرية، وكانوا يُجلبون من الفاو، حيث معسكراتهم البعيدة عن المدن، لتأديب العشائر المتمردة في الاهوار وسهول الجنوب ومفازات الصحارى. كانوا ببنادقهم الطويلة، ذوات

السنكيات اللاصفة المرعبة، بسراويلهم القصيرة ولحاهم والوانهم الفاحمة كمحاريث التنانير، كانوا يتقافزون كالماعز فوق العربات العسكرية المكشوفة وهم يتعمدون ابراز مدافعهم وتجهيزاتهم ومعداتهم لاثارة مزيد من الرعب في القلوب. كانوا يرطنون بلغة لا يفهم منها شيئاً، حقاً لقد تعلم نتفاً من الانجليزية لكنه لا يفقه تلك اللغة التي يتكلمها الغرباء. جنود لا ينتمون إلى أهل البلد! خروجهم من البصرة أو بغداد أو كربلاء إلى المدن الصغيرة والقرى المتوارية في رحم الغيط والصحارى، كان يعد مغامرة هائلة، يدفعون رؤوسهم ثمناً لها. فأبناء العشائر، وقطّاع الطرق، والسلاّبة، يتربصون بهم منتظرين: خلف اجمة نخل اعجف، وسط نهر مهجور، في كهف صحراوي يشبه الغار لا يراه الرائي إلا حين يقف على جرفه، يتمطون خيولهم أو جمالهم أو حميرهم، ومشاة لا ينتعلون حتى الاحذية بعض المرات. ليسلبوا كل ما تقع عليه ايديهم، البنادق والعتاد واكياس الطحين وقند السكر والملابس الثخينة ذات الموديلات الغريبة التي تحيرهم في كيفية لبسها: انها اموالنا اغتصبها الكفرة والسيك. كان الناظر يسمعهم يتهامسون فيما بينهم. وكثيراً ما رآهم يتجولون قرب المحطات، في المنعطفات والزوايا، ساعة الغسق أو عند الافجار الموحشة، منتحلين سمات المتسولين والدراويش وبائعي اللقي والادوات القديمة. وما ان ينفردوا بأحد الجنود حتى ينقضوا عليه كالصقور، مغتصبين منه المال والسلاح. وكان الجنود يميلون إلى النجاة بجلودهم، مضحّين بكل تلك الابهة والغطرسة المتسربلين بهما، عند تجوالهم... غطرسة جيش محتل لا يفقه لغة البلاد ويطمح إلى حكمها.

خلف شجرة تنعقد خلال اكليلها سحابة دخان، حط صقر على فريسته، ووراء السياج استطالت ظلال الاشياء والكائنات، مانحة لنفسها غموضاً اصيلياً يأسر النظر. فتأمل الناظر المشهد بعينين حالمتين، راضيتين بما شاهدتا من وجوه وحركات وغرابات، توارى في بؤبؤيهما سيل سنين منهمر، عانق خلاله القطارات حتى اصبحت تجري في دمه. لقد رأى الكثير منها، وهي تروي

تاريخ هذا البلد بحيادية مطلقة: قطارات جنود وبضائع وركاب، قطارات لنقل المواشي كي تصدر إلى أسواق لندن ومستعمرات ما وراء البحار. عمل في قطارات الفحم المستخرج من جبال كفرى.، وكان الشاهد على الحوادث الغريبة التي جرت: مرة، ارتطم قطار محمل بالفحم بقطيع جاموس قرب المحمودية، خرج فجأة من غابة اثل كثة، وقتل اكثر من عشرين رأساً، حيث ظلت الجثث المنتفخة متناثرة حول السكة بين الجذور الغليظة اياماً عديدة. أما ذلك القطار الذي نام سائقه ووقاده ليلاً، فأصبح حديث المحطات في البلد، ويتذكره جيداً كما لو حدث بالأمس: ظل مندفعاً في ظلام ليلة عاصفة هزت جسر السكك وعارضات الابنية الخشب وركائز جسور الحديد، من البصرة حتى مشارف الحلة، مروراً بالناصرية التي لم يتريث ولم يقف بمحطتها، وشق عجينة الليل كذئب مسعور، اضواؤه مشعة، محركة ضاج، عويل عجلاته يتمطى حوله مثل ريش نعام، ولم يعلم النائمان ما سبباه من ارتباك في الخطوط. طارت الرسائل إلى بغداد محذرة: جاءكم قطار غريب، يندفع بوحشية، مشّط المحطات بلا اكتراث ولم يقف، اعملوا شيئاً، سيسبب كارثة وطنية لا محالة... فورات من الذكريات، يفخر بها احياناً، هو الناظر، حفيد ملوك المستنقعات وسليل مروضي الجاموس وابن سراة الليل البهيم، بفالاتهم الحادة، وأنوار فوانيسهم الكاشفة لعتمات اسرار الماء، والتفافات اجمات البردي والقصب، وابواز خنازير الماء البرية بأنيابها المخيفة، ترك دون وجل، بيوت القصب وزراعة الشلب وصيد الخضيري، وتمسك بالعجلة الدوارة ذات القطارات والسيارات والشوارع والبيوت الخرسانية، عجلة المدينة المكتظة، بائعة المياه، الخبز، امكنة الظل، وبني البشر.

ـ ستتركنا إلى الأبد، أليس كذلك؟

سأله الحانوتي وهو يلقي السكر باقداح الشاي، النظيفة، المرصوصة على افريز املس، من الطابوق.

ـ كلا، سأزوركم بين فترة وأخرى... إلا إذا حال البين دون ذلك.

ـ لكن حتى لو قدر لك أن تقطع زياراتك عنا، فيقينا لن تنسى المدينة وحياتك الطويلة فيها.

ظلال كثيفة تتماسك وتشتبك، لحظة اثر اخرى في رقصة الضوء والظلمة، رقصة الليل والنهار، وهي تمسح نور الشمس الهاربة خلف التلال، نورها الملقى على الاعشاب القصيرة الجافة والعيدان المكسورة وذرات التراب المعجونة بالقطران أو قشور الجوز. قضبان حديدية تأن من حرارة قاسية، فتلوى منسلة وراء الاشجار في الفسحات البعيدة. قضبان ثانوية مدت لتنقل القطارات بعيداً عن الخط الرئيسي لعطب حاصل أو لأستبدال محرك أو عربة، ستستقبل برودة المساء بمرح حديدي هائل، وقد بدت الآن كأنها عشرات الافاعي تقود القطارات لا محالة إلى مقابرها الموحشة، لتموت منحلة إلى خشب ومسامير ورقائق فولاذية وقطع نحاس.

ـ ألا تستطيع الكف عن الضجيج.

قال المراقب لابنه بانفعال، وكان الحانوتي يجمع اقداح الشاي ويمسح باسفنجة عتيقة، المنضدة الموضوعة بين الرجلين. ومن فتحة الباب شعت انوار ذهبية كانت تتراقص في ذرى اليوكالبتوس، المكلكل على كوخ قاطع التذاكر.

ـ أبي، أنهما لا تأكلان. بذرت لهما القمح والذرة، ولم تتناولا حبة واحدة.

ـ ليستا جائعتين ايها البغل، ألا تدرك ذلك؟

ـ ستحافظ عليهما جيداً... ولا تدع القطط تأكلهما.

وجه الناظر كلامه إلى الطفل، ثم داعب رأسه المنحني على الحمامتين. فجاوبه الاخير بعينين حنونتين، رشهما المساء الآتي بنثار من العتمة...حولهما ثقبين ضيقين كابيين:

ـ لن أدع أي قطة تقترب منهما، سأضربها بخشبة.

تخثر الضوء في الخارج، اضحى سائلاً ذا لون جاف يكاد لا يقوى على

الانسكاب من النوافذ الخشبية، وهي مفتوحة منذ العصر على صف اشجار الدفلى، قريبة من جدار الحانوت الخلفي. أما السقف العتيق، المرشوش بهباب الطبخ، فلم يعد يعكس أية انوار حادة، واصبح شكله المثير أقل ادهاشاً لعيني الناظر. كان سقفاً من خشب، يقوم على تيجان خشبية هي الاخرى تبرز من جائز يصل بين جداري الحانوت. وللتيجان سمة افعوانات ملتفة على بعضها وثيران مفتوحة الاشداق قوائمها الخلفية معلقة في الهواء، ويستلقي كل ذلك على خلفية نباتية كانت مصبوغة بالالوان ذات يوم، وعصفت بها السنون دون رحمة. وقد ركب السقف على جدران الحانوت منذ نشاة المحطة، وقيل لأبي سامي أنه جلب من بلاد بعيدة، يكثر فيها الخشب، والافاعي، والثيران الوحشية ودواب الارض العجيبة، اطلقوا عليها اسماً غريباً غير مألوف: افريقيا.

ثم انبرى المساء هازاً قبضته من خلف الافق، فهربت الصقور إلى اعشاشها في غابات النخيل المشمورة حول المدن، وانفردت المحطة بالليل الآتي وبرودة القضبان وهمسات الرجال.

ـ مالك ساهم يا أبا سامي؟ لم يبق على وصول القطار سوى دقائق.

ـ كلا، لا شيء. لكن ما يثيرني هو: لماذا يفارق الناس مناطق الفوها؟ ثم هذا الأسف الذي يستولي على قلوبهم ساعة الرحيل... كأنهم قادمون إلى نفق مميت، مجهول.

ـ بابا، هل اضيء المصباح؟

ـ هل تصله يدك؟

ـ نعم، تصل أعلى من المفتاح.

ـ انر لنا المكان اذن.

غمر الحانوت ضوء باهر، وتململت الثيران والافاعي بعد ان تغلغلت الاشعة الكشافة بين عساليج الازهار، وحوافر الثيران واشداق الثعابين، ومن الزوايا والرفوف ومنعرجات الافريز وشقوق الخشب، حاش الضوء ايضاً امواج العتمة

والقى بها خارجاً، وراء الجدران والاشجار. ومن الباب انسرب على الأرض راسماً مستطيلاً حاد التقاطيع سرعان ما تجمعت قربه الحشرات الليلية والدبابات وخنافس الزرع. ووسط هذا الانتقال المفاجيء من الظلمة إلى النور، تناهى صوت صفارة قطار، جاء من مكان بعيد، ناء.

ـ اسمع... ألا تسمع؟

ـ أجل، هو آت، الرحلة الأخيرة.

لصفارة القطار حزنها الخاص، احس به الناظر قبلئذ، حين كان يقف في المحطة، ليلاً، وحين ينبثق الفجر من الشرق، وساعات الوداع الشاقة. اجتاحته حرارة مفاجئة، شعر بها تتصاعد مع دنو القطار وتأهبه لمغادرة الطفل والحمامتين والمراقب والحانوتي الكهل الذي لا تفارق البسمة شفتيه في أشد الأوقات ضيقاً. وفي هذه الاثناء طارت بومة هائلة الجناحين، حلقت قريباً من باب الحانوت، حتى كادت تنغمر كلية بالنور، ثم انزلقت صاعدة ذرى اليوكالبتوس. فيما واجه اندفاع القطار، ازيز صرار الليل المتعالي، هازئاً من الغطرسة، مستهيناً بعصف التيارات الهوائية المرافقة له.

دخل القطار تخوم المحطة، فسحب السائق عتلة الوقوف، وظلت الزفرات البخارية تتصاعد من الجانبين كعشرات الغليونات، حيث تتلاشى بلمحة، بين اوراق اليوكالبتوس والدفلى وأجمة الشوك. لم يكن في المحطة إلا ثلاثة ركاب. كانوا يقفون قرب بناية قطع التذاكر.

عانق الناظر الحانوتي والمراقب ومسح بيده رأس الطفل وقال له بهدوء:

ـ اعتن بهما، مفهوم؟

ـ نعم عمي، وسأضرب القطط إذا اقتربت منهما

ومشى صوب القطار حاملاً حقيبته الصغيرة. وحين لمحه السائق هتف له بصوت عال:

ـ إلى أين أيها الشيخ؟

ـ إلى الأهوار... إلى الأهوار.
ـ هل وجدوا لك قطاراً هناك؟ أم أنك ستصيد الخضيري والسمك فقط؟

مسترسلة، ممطوطة، جافة، كانت صفارة الانطلاق توزع انذارها، ومثل شفرة خشنة، جزت الخيط الاخير المحسوس الذي كان يربط ابو سامي، الناظر، بمدينة الدفلى. فبعد لحظات وما ان تمزق آخر العربات هاربة عبر الجسر الكونكريتي، حتى تتحول إلى ذكرى فقط، تنحشر مثل غيرها من الذكريات في عقدة تائهة من دماغه.

كان يتكيء على حافة النافذة، وكان البخار يندفع على جانبي القطار عنيفاً، مستدقاً، ابيض، تتبعه اندفاعة المكبس الهائلة، التي جُرّت على اثرها العربات بقوة. لفّت العجلات لفة كاملة، وأوشكت على الوقوف، فعاجلها المكبس مرة أخرى بضربة مركزة، ضخت الحركة في العجلات من جديد، فهمزت متراكضة وجلة.

من ذلك الضجيج، والاندفاع، والغليان، ومن بين انين العجلات المنطلق من عناقها مع الفولاذ، وفي غمرة تشبّح رفاقه القدامى على عتبة المحطة، أمكن للناظر تمييز خفق اجنحة مصطفة، مرت بانطلاقة سريعة امام نافذته. جناحان لطير ليلي حاد العينين، استطاع أن يسمعه بأحاسيسه التي لا تخطىء. فهمس لنفسه بخفوت:
ـ لا بد أن يكون أحد الصقور، قد جاء لتوديعي.

وبعد دورة ثانية للطير في ليل المدينة، وقرب نافذته المفتوحة على الهواء والبيوت الراكضة خلفه، استدرك بأسف هذه المرة قائلاً:
ـ كلا، يبدو أنها بومة.

ثم حمل النسيم الليلي رائحة الدفلى إلى المجهول، وأخذ القطار ينحدر في ظلام نفق طويل، يقود المرء حثيثاً إلى... حدائق الموت.

التحـولات

انها غمر

تنبت في الذهن مثل شجرة دردار، ثم تهيمن على جسده وتتفرع فيه، تلك القرية البعيدة بمائها الغرين يفتض تراب ارض مالحة وبيوتها الملتمة على بشرها وبهائمها، بأطفالها السمر وشجرها المهفهف ذي الاغصان العاكسة لزرقة سماء بهية عميقة يكاد يطالها باليد.

علاماتها الفارقات تغيب اياماً عنه ثم بغتة تنهض من غبارها وتنبجس وسط أكثر الاماكن غرابة واشد الأوقات حرجاً، شجرة نبق ملساء الورق تتوضأ بالشمس، وتضوع عطرها في الهواء فيسيل بين البيوت. غابة نخيل شاسعة تظلل بيوتها وتستحيل إلى كتلة ريش تعصف بأجنحة طيور يخبئها المساء بين طياته. اما الصحراء فتنيخ كبقعة زيت رمادية على كاهلها وتحاصر بشرها وخضرتها وطيورها بجيوش من رمل تزحف صيفاً وشتاء من اماكن مفتوحة ضاربة بذرّات ناعمة نوافذ البيوت وعيون النساء وفوهات التنانير وافخاذ المواليد الجدد. صحراؤها عين مفتوحة على الدوام، يتماهى في جفونها اموات وضواري برّية وسراب كالدخان، عين لها حدة الافق وغرابة فرو الثعالب وشراسة الذئاب.

صحراء ونهر عريض معشوشب الضفاف ونخيل من ريش اخضر وشجرة

نبق عطرة، تمثل له القرية في الذهن ويرى فيها وجوه فلاحيها ونسائها الملفوحة بنسمات اصياف سموم، فيحاور كل ذلك ويعيشه، يقلبه بيدين راجفتين، ويخزه الركود الكبير المستولي عليها والحيادية التي لا يغيرها الزمن مثل مسمار محمى. هي التي لا تمتلك من الحياة إلا حلم الرمال وهجس الحصى ونظرات تمدها ليلاً إلى نجوم بعيدة ملغزة، تستقرىء من خلالها طوالع عصية على التحقق. أية بكارة غامضة يرتديها ذلك الوجود وأي نسيان يمخر عبابه؟

يراها هكذا: رمث عتيق وعليق وازهار عباد الشمس وآبار جوفية وسواقي مكتظة بالقواقع والسلاحف والاسماك اللاصفة واناس من شمع وحيوانات من خشب ونخيل ثابت وُجد منذ البدء الأول ليبقى حتى نقطة الزمن الاخيرة المختطة بدفتر البشر. وكانت فكرة التخلص من عبئها تراوده منذ سنوات طويلة، يغافلها ليهرب ويشاغلها علّه يجد منفذاً للخلاص، يركنها في اكثر الزوايا اهمالاً، إلا انها تفجأه ناهضة من غبارها كل مرة، لزجة كالغراء متشبثة مثل قرادة مهفهفة كما لو كانت شجرة دردار حقيقية.

تمطت اصابعه وتسللت يده التي تحركها رغبة لا تقهر إلى أعلى نخلة فيها، فأمسكها بقوة وتشبث ثم استلها من جذورها العتيقة النازلة إلى أرض لا ترى الشمس، لها جوف اسود سرعان ما فارقته منسلخة بإبهة. النبقة قلعها والصحراء كور رمالها والبيوت جمعها على بعضها كما يجمع حراماً عتيقاً، وهاهو الوجود القديم يتهاوى وهاهي قشرة الأرض تندرج بين يديه. يحدّق فيرى العرى والظلام الحالم بالضوء، يرى الهوى الهائمة بالامتلاء الرخي والجفاف الضاميء إلى الارتواء. سيتخلص منها وإلى الابد شجرته المعرشة في ذهنه. الهوى تحت قدميه تجلب له دواراً لذيذاً، وهي معلقة بين السماء والارض، شبابيكها وابوابها تدلت درفاتها والملابس أساقطت من حبال الغسيل والسعف مال نحو الارض ترجّف خوصه نسيمات خفاقة لا محسوسة يزفرها ذهن خدر يعيد تركيب نفسه إلى الاعماق الارضية تهاوت: جرار الملح، خوابي الزيت، حبوب الحنطة المعدة

للطحن، اقراط النساء وخلاخلهن، المناجل والمعاول واعنة الخيول المتوارثة عن الاجيال السابقة باعتبارها معلماً من معالم بداوتها المحببة إلى النفوس، البقر، الافران الطينية، أصابع الفلفل، الكتب المقدسة المحفوظة بحقائب قماشية مطرزة بالورود واللبلاب، ملاعق الفضة وأواني الطبخ وقوارير المسك والصحف الملساء التي لامست حوافها آلاف البصمات لضيوف مروا ذات يوم ومتعتهم القرية بكرمها، العملات العصملية البائدة: ليرات محمد رشاد ومجيديات مدحت باشا وروبيات عبد الحميد المضروبة في القسطنطينية ودراهم الجمهورية الأولى التي لم تعمر إلا أربع سنين وثمانية اشهر فقط.

كان يحدق إلى الهاوية بشوق موت أزف ولا يمكن تفاديه، فلاحظ عش الطير يفلت من بين اماليد النبقة تدفعه دوامات ريح سلسة إلى الفراغ السفلي المعتم، وكورات الزنابير تنطلق من تخاريمها حشراتها المرعوبة بالدمار الشامل، ولاحظ الهوة الهيمانة إلى الامتلاء، إلى عنصر الحياة الازلي باعث الاحلام ومانح الخلايا وهجها وروحها، الماء الذي سيجتثها من ظلمة العصور ورمادها. ادخل ايها الماء قال، تعال إلى مملكتها المنخورة وافتض بسلامك جسدها المتآكل، رجّ باشعاعاتك الضوئية تلافيفها واوصالها ثم انفذ إلى معدن الطين الأول كي ينهض آدم جديد يكتب لنفسه تاريخاً آخر اقل قسوة، وهكذا كان.

كانت مياه السواقي المتفرعة من النهر تسري طوال ليلة برمتها، من النهر إلى الهاوية، من الرطوبة إلى الجفاف، ذلك الجريان المحموم ذو الهدير الصخّاب المصم لاذنيه، محملاً بالطين والسمك والاشن. يراه ويشمه، يملأ رأسه مكوناً بحيرة لاصفة امواجها ناعمة القفراء ترقص فيها سلاحف وضفادع وانعكاسات مشوهة لما هو طريف في السماء من طيور عقعق ويمام وسنونو وريش متطاير وغبار وزرقة.

على الغمر فرش حرامه العتيق المؤلف من شجرة النبق وبشرات الوجوه والحيوانات الخشبية والبسة النساء الملونة الانيقة المشبعة بالرغبات المقموعة

وغابة النخيل مع ما تضم من اعشاش والصحراء برمالها وهجيرها وسرابها، ثم قال: اطفي ايتها البيوت وعومي ايتها الاشجار، اجعلي اغصانك بليلة وجذورك حية من جديد ثم جدوا ايها البشر لكم مأوى يقيكم الطوفان حيث لا عاصم ولا واق، ويقين انها ستنمو وتزهر مرة أخرى من الرماد لم يفارق ذهنه فهو الحلم الأزلي السادر في كل ذرة من ذرات لحمه. لكنَّ هذا لم يكن. بدلاً من الطفو كان الغوص، غطس الاثقل، ولم يدر أنها محكومة بقانونها الازلي الذي لا فرار منه، قانون الزوال والتلاشي والامحاق لأنها خارج الزمن. غطس حديدها وملاطها وصخورها في قرقعة مدوية شمرت اصداءها بين المدن البعيدة ورددته الصحارى وسفوح الهضاب واقية السماوات، أما الاخف كالوسائد والشراشف واوراق الكتب وبقايا الجرائد الملوثة ببراز ذباب الكذب فانها تلبثت برهة على السطح ثم ابتلت قليلاً قليلا حتى جرّتها اصابع الهوة الخشنة ذات السلاميات الطينية فانسابت إلى القاع بانحدار لطيف. النخيل غاب بزمن قياسي والحيوانات سبحت لحظات ثم كلّت الاطراف منها واصابها الوهن فارتضت مصيرها دون جلبة، وعالجت الفراشات طيراناً مرتبكاً لم يصلها بالضفاف فما كان منها إلا أن هوت في شبكة الطحالب الدبقة. أما آخر معلم لغرقها، والذي سيظل يتذكره حتى ساعة حياته الأخيرة فقطرة الماء المالحة التي سالت نحو فمه وذكره طعمها الحريف بثمار النبق وحبيبات الذرة المحمصة على نار هادئة ومياه النهر الشحيحة ايام الصيف.

انها اليوم غمر، يبصره القادم إليها من بعيد، يتلجلج في وضح النهار كليرة رشادية، غير أن صدى اختفائها لما يزل عالي الرنين في ذهنه.

الرجل الذي صار شجرة

يقف في السفح شجرة من شجره أو صخرة من صخوره، وتحت ضربات فأسه تتهاوى الاغصان والسيقان الغليظة التي ستصير جمراً لاهثاً في مواقد

شتاء قادم. كان يتسلق جذعاً لشجرة بلوط أو يجتث ساقاً لائذاً جنب صخرة الجبل لشجيرة جوز ذابلة الورق، معتمداً بعمله على خبرة واسعة اكتسبها خلال وجوده الطويل في عالم الجبال والكهوف والوديان. وكان السفح حوله سابحاً وسط رسائل الشتاء المرسلة منذ اسابيع ماضية وتتجلى له اينما ارسل البصر: اوراق صفر مبعثرة على السفح، لونها ذهبي، اسقطتها الريح من البلوط والاسبندار والجوز، وهي تغطي التراب بوشاح شفيف، ونسيم صقيعي يتحدر من القمم إلى الكهوف، ماسحاً براحتيه عيون المياه ومعادن الاعماق، وشحوب يسيطر على الشمس ويحد من توهجها. رسائل لا تخطئها العين الخبيرة بتغير الفصول. حوله تترامى صخور متراكبة متداخلة تكوّن يداً عملاقة بارزة العضل، يد الجبل المليئة بالغازها، المشرفة على دروب البشر وحركتهم الدائبة بين المضائق. وأمامه تنسفح اجواء شهدت معارك لم تذكرها الكتب ومذابح دخلت الكهوف من ابوابها الضيقة ولم تخرج منها ابداً وهجرات شاقة عبر الثلوج والريح المحملة بالصقيع. كان ينظر غيوم السماء المبعثرة فوق رأسه ويحاذر افقها الذي غدر به كثيراً من المرات، منذ أن هجر المدينة التي اعتصرته كما تُعتصر ليمونة طازجة بمنوعاتها وخشونتها. ذلك الافق هو نفسه الذي ارسل عقبان موته إلى بني البشر من امثاله.

كان سادراً بغمر من التوجسات وسيول من الترصد حين ابصر طائراتهم المتقدمة نحو الجبل، الطائرات التي لا تنتمي إلى نسيج الحياة فيه، والتي طالما روّعت بحضورها بغال السابلة وعيون الفلاحين والطيور. مروحيات كأنها نحل، الوانها كامدة بلون الرماد، تغيب وتظهر من خلل الكوى والفرجات الفاصلة بين القمم. ازيزها خافت وبارودها في الهواء ورعبها ينتشر امامها كالعطر آخذاً شكل موجات غير مرئية تغمر بمجساتها القلوب والاطراف. قذف القأس من يده وراح يدور في السفح راكناً إلى احساس الكائن الحي المهدد، مترصداً كهفاً للاختباء أو صخرة تستر ضعفه بصلادتها الفولاذية. الشجر لا يحميه هو المتحرك البارز على بساط الطبيعة الميتة، والتراب لا يبلعه هو المجبول من ماء وهواء. يد الجبل يا

يد الجبل، احشريني بين عروقك الغليظة حوليني إلى خلية فحم أو نسيج صخري، وهكذا كان. جمع ذراعيه على بعضهما وقلص أطرافه والصقها إلى بطنه ثم دس الرأس بين الكل والتف على نفسه كما تلتف افعى ثم لاذ إلى امان اليد الرحيمة المتصبة منذ ملايين السنين، يد الجبل، راية السنين، كتاب الحقائق غير المكتوبة، الشبكة الجامعة لاصداء المعارك المنقضية. صار كتلة لحمية يغلفها النسيج الصخري وبلورة تتوهج بوهم الانصهار في الارض. الفضاء المنور خارج كهفه الصغير يصله على شكل ذرذرات متقطعة من الضوء تقشع شيئاً من عتمته وتربطه بعالم الطائرات المزمجرة ورسائل الشتاء واكوام الحطب المبعثرة بين الصخور. لا يريدهم أن يروه، لا يريد لمناظرهم الكاشفة أن تقع عليه، لا يريد أن يكون ضحية رعبهم الطاغي على الأرض اولئك الذين لا يأسون. العينان اغمضهما خوفاً والجسد جرجره إلى بعضه والكهف اتخذ منه واقية امام سيل موتهم المنهمر: ينهمر على الاشجار، على الكهوف، على البغال، على البشر، ولم تسلم منه حتى العناكب، إذ انهم وكما جربهم يوزعون الموت حولهم كما يوزعون الهدايا. يلفه موتهم ويطاله رصاصهم فيغيب الافق الضيق بكل ذرذراته المتلألئة ثم تمّحي الدورة الحياتية، اصوات الطائرات تتلاشى واصداء الشلالات تغور في بحر من هدوء والسكون يعم جوف الجبل، فرجة الالم الصاعقة لها من القوى اكثر بكثير مما لنبضات القلوب وحركة الخلايا وشغل الحواس. لا ريح في السفح، لا رعد في السماء، لا روائح في الزهور، رطوبة جوفية وهمسات الصخور ودندنات الطبقات الارضية تجره إلى الرحم، حيث الحياة ترتدي شكلاً آخر وحيث المسميات لها أكثر من معنى.

في برزخ التحولات التي يدركها الجبل فقط، مدتْ الاطراف نفسها في تربة بكر رطبتها دماء ساخنة، فتحولت إلى جذور نبتت عليها شعيرات خلود لا ترى، ومن الصدر المنخوب بشواظهم، بزغت شجرة لم تكن مألوفة في السفح، اغصانها أحلام وأوراقها رغبات وانساغها الصاعدة إلى الفضاء ذكريات سكّرية لسنين لا تحصى.

الشجرة التي اسفرت في السفح عن وجودها، شجرة ليس لجمالها مثيل، تحمل الاسماء اجمع: الالم، الشهادة، الميلاد، التمرد، الوجود، المحطم في كتاب جبلي لم يطلع على حروفه المتوهجة الا جوابو الآفاق وسراة الليل وخوارج المدن. كانت اغصانها تمنح حياتها للفضاء، ينبثق منها آلاف العيون ترقب الممرات وترى إلى الكائنات الدابة في سبلها رازحة تحت وطأة آلام روحية قطرّتها السنون في الافئدة كالخمور المعتقة. شجرة تستشعر تزاوج الطيور وديبب الحيوانات وجريان المياه، اغصانها تنسفح بكل اتجاه وجذورها تمتد إلى الاسفل. إلى عالم غير مرتاد وغامض: مرجان وكلس وحديد ودر مخبأ، طبقات فحمية ورفات اجيال بائدة، حديقة غناء تحيط بالجذور، تنشد فيها طيور من الخيالات والالوان والتهويمات. في المنعطفات الجبلية المسننة وعند العيون وجنب جلاميد الصخور. ملايين شواهد على حضورهم المبرقع بالهدايا، سيكر عليهم الشتاء بعواصفه ودموعه معرياً اياهم من معاطفهم، لكنهم مثل كل مرة توقظهم العصى السحرية ما ان يذوب الثلج وتسخن الريح. يزهرون باوراق من احلام واغصان من رغبات وجذوع مصنوعة من الالم، يعانقون شمساً دافئة ويعدّون خرز الزمن المتساقط.

تذكر إذن، فالشجرة التي تمر بك، انسان اسقطه رصاصهم في سلة الموت.

امطار بلا انقطاع

حدث له ذلك في خريف الطفولة، في الزمن الذي كانت الشوارع فيه اضيق مما هي عليه الآن والصبية أكثر اندفاعاً إلى الحياة والاضواء اقل عدداً مما هي اليوم والخيالات أشد فوراناً في الاذهان. يوم داكن الغيوم يهمي مطراً متواصلاً على المدينة، ابتدأ نزوله منذ الفجر، تمطره غيوم شتائية راكدة فوق مداخن معامل الطابوق والعمارات القليلة واشجار الحدائق المنتصبة مثل رماح عتيقة. مطر من ذلك النوع الذي كان فيما مضى عامر القطرات هائل الكثافة، جعل البشر يهرعون من الشوارع بعجلة متجهين إلى بيوتهم ليلوذوا باكراً إلى

الأسرّة، واضواء المصابيح تضاء في الازقة قبل الغياب والاطفال يحجمون عن الخروج إلى اللعب في القسحات.

جيوشه كانت تهاجم البيت من كل الجهات، من السطح كانت خطاه تدمدم برتابة منزلقة إلى المزاريب المؤدية إلى الزقاق عبر انابيب من الاسبستوس، ومن النوافذ حيث تتكالب القطرات على الزجاج لتسبح نحو الاسفل حيث الافريز الاسمنتي يزيحها عن كاهله بقسوة. كان يطرق الابواب بأظافر خشنة لها وقع واضح في الاذن، ويصفع ثيل الحديقة، ويتطرطش على الاغصان المنجردة، ويقهقه ساخراً بوجه الريح في زمن كان المذياع فيه، خيط الوصل الوحيد مع قارات العالم التي لا تُعرف سوى أسمائها.

في البيت سكون يطلي الغرف برقائق ناعمة، فقد أوى الاخوة والأم إلى الفراش بينما ظل ابوه الوحيد المستيقظ جنب مذياعهم المركون في غرفة الضيوف على طاولة الخشب. حتى الجدة التي عودته النوم باحضانها دلفت إلى سريرها قبل ان تؤدي صلاة العشاء، إذ حملها تواصل المطر إلى بحيرة نسيان غميقة سحبتها باياد متشبثة من طقوسها التي تعودت على ادائها كل ليلة. وسط ضوضاء المطر ورقائق السكون المترسبة داخل البيت، سمع المذياع ينبيء بصوت محشرج عن أعاصير اجتاحت كالفورنيا وبراكين تجشأت ناراً في اليابان وفيضانات هائلة تعيشها بنغلادش سببتها امطار غزيرة مرسلة على مدار اسبوع متواصل. في بنغلادش قال المذيع انها خربت مئات القرى وعصفت بالسدود واغرقت المحاصيل واهلكت الناس والحيوانات وشُوهد البشر وهم يطفون على اخشاب السقوف ودرفات الابواب هاربين نحو الاماكن المرتفعة تفادياً للغرق. سمع والده يحوقل ويسمل بعد سماع تلك الاخبار الغريبة ثم تصاعدت موسيقى ناعسة لناي اختلطت بوشوشات وقرقعة وصفير فما كان من والده إلا أن يطفيء المذياع وينهض إلى سجادة الصلاة. تخيل افيالها المرسومة وهي تحدق إلى وجهه بعيون ساخرة وتخيل اباه وهو يجاهد لصرف ذهنه عنها كما ذكر اكثر من مرة.

كانت الآيات المتصاعدة في سكون البيت تصل إلى مسامعه حين انهى تجميع الكتب والدفاتر ودسها في حقيبته الجلدية، ثم خمن حين دس جسده في حضن الجدة، ان الصلاة قد انتهت وان اباه واقف في النافذة متطلعاً إلى المطر.

اين تقع بنغلادش وما هي لغتها، وكيف فاضت بالمياه، وهل تفيض مدينته أيضاً كما حدث في تلك البلاد الغريبة الاسم؟ اسئلة تهطل عليه مثل المطر، تجتاحه بافكارها غير الواضحة وتهويماتها الضبابية عن العواصف والبراكين والجزر والبحار والغيوم. مطر وسيلان ودوي ريح في شوارع صامتة مهجورة يفتضها ليل موحش مطبق على المدينة. تبرز امام عينيه اسماك طافية وسلال تمر جاف غطتها الوحول. طيور سود لا تجد ارضاً تحط عليها، غربان وزرازير تقع بين لحظة وأخرى على ديدان غير مرئية يحملها تيار مياه جارف. وجوه زملائه خائفة مذعورة، كانوا يتشبثون بالرحلات وجذوع الدلب التي اقتلعها الفيضان. الجدة يتصاعد شخيرها ويملأ الغرفة والهواجس تقلّبه داخل الفراش على نار رعب حامية، والمطر لا يني عن الهطول، وكانت الساعة تغذ الخطى على سهب ليل رطب.

ليل رطب ظل محفوراً عميقاً جداً في هضاب ذاكرته. لا لأن الفيضان اجتاح البيوت واغرق زملاءه التلاميذ كما ظن أول وهلة، لكن بسبب ذلك الحلم الغريب الذي عاشه وهو نائم باحضان جدته. ما زال يتذكره رغم رؤيته لبنغلادش وافيالها بعيونها الضاحكة وخراطيمها النافثة للمياه وجولانه في شوارع كالفورنيا ومعرفته العميقة لما تضمه قارات العالم من بشر ومعادن وجبال وانهار.

ففي تلك الليلة التي كان مطرها يهاجم البيت من كل الجهات، ويعد المدينة بفيضان مروع، بزغت له شمس ليس لجمالها مثيل، لون اشعتها ابيض مشعشع بذهبي توهجت له ذرى الاشجار وشبابيك العمارات ورآه يدخل البيت من اقل المنافذ صغراً، حاملاً معه ذرات غبار وشعر والياف ريش. حديقة

بيتهم الخلفية كانت اوسع من المعتاد، والجدار الاملس المطل عليها ذو ارتفاع هائل ومن دون نوافذ، طلاؤه ملاط تنعكس عليه دفقات شمسية تعشي البصر. انه يوم عطلة، اطفال الشارع يتعالى صراخهم ويتقامزون على الاسفلت البليل متفادين برك المياه الباقية في المنخفضات. في الفضاء طابات وطائرات ورقية ملونة تنّجم في سماء خالية من الشوائب. في الفضاء ريح سلسة تداعب اغصان الشجر وملابس الغسيل المعلقة بباحات البيوت وأفنيتها. وكان هو في لحظة انتظار الزرازير التي غزت المدينة لأول مرة. انتظار أوحت به الشمس العجيبة وضحة الاطفال ومرأى الجدار الاملس القائم على طرف الحديقة. لم يدر من أين قدمت الزرازير ولا كيف وفدت بهذا العدد الكبير، ولا السبب الذي جعل منها زرازير لا حماماً أو عصافير. رفوف سود، أجنحة مصطفقة، مناقير داكنة، اجساد مخدّرة تهجم على الجدار بكل ما اوتيت من عنفوان وسرعة لترتطم به وتتساقط على ثيل الحديقة، اجنحتها ترفرف ثواني ثم تهمد. تهمد بين يديه فيلقيها إلى نار متأججة يتصاعد لهيبها المدخن إلى الفضاء على شكل عمود رجراج سرعان ما تسرقه الريح. كان يدسها في النار ويحدق إلى انكماش ريشها من الحرارة ويشم رائحة احتراقها إذ تهيم داخل الحديقة وتتغلغل مع اعمدة ضوء الشمس منسربة إلى البيت. المذاق في فمه شهي، يغريه بالالتهام المتواصل غير المحكوم بقانون الجسد، وملوحة اللحم الطري تلذع خلاياه لتفجر شهية ليس لها حدود. يلتهم لكن لا شبع، وكأن بطنه بطن عملاق لا ينتمي إلى بني البشر، الشيء الذي أدخل إليه خوفاً عظيماً وخشية من تحولات غير مفهومة. نادى قطه الاليف المختبىء في المطبخ كي يقاسمه وجبة الزرازير تلك فلم يستجب، نادى جدته، امه، اخوته، اطفال الشارع اللاهين عنه بطائراتهم والعابهم، إلا أن أحداً لم يلب النداء. انه الوحيد المحكوم بأكل الزرازير اجمع.

في السماء تسطع شمس ليس لجمالها مثيل، وفي الحديقة نار متأججة صفراء اللهب، وداخل البيت قط شعره أسود لا يستجيب للصفير وصبي

يلتهم الزرازير. كل ذلك حدث في خريف الطفولة، في الزمن الذي كانت المدينة فيه عامرة بالخيالات ولا تصيب اللحم إلا مرة واحدة في الشهر.

زهرة من الحديد

كان يمر بها وهو في طريقه إلى المكتبة، تحتل ساحة محاطة بمربعات مزروعة بالنباتات والصبار. تبدو كما لو تجاوز وجودها تعاقب الاجيال، فهي هناك منذ الازل، تويجاتها ستة، ثلاثة طويلة وثلاثة قصيرة وجميعها ذوات حواف حادة تجرّح لحم النسيم المار عليها، ونهايات مصوبةإلى فراغ معتم. تويجات تنضم إلى نفسها مذعورة من الريح والمطر ورذاذ المياه ويجمعها حامل غليظ على شكل قضيب دائري مثبت في مربع اسمنتي يتوسط حوضاً دائرياً حوافه تلم موجات ماء وسقطاً لاشياء صغيرة القتها اياد غير معروفة، ايادي مدمني خمر واطفال مدارس وعجائز يصرفون ما تبقى لهم من ايام بالجلوس هناك. أما المدقة فكانت كرة موصولة إلى الحامل بسلكين رفيعين تتمركز الزهرة حولها ويندفع منها إلى التويجات والحامل والحوض، رشاش ماء يطرطش بهدوء ويساقط قطراته إلى الحوض المليء حتى الحواف. تلك الزهرة لا تغيرها الفصول، طرية دائماً، لا تموت في الشتاء ولا تنضج في الصيف، وكأن سحر يد الفنان أودى بها إلى بحيرة خلود عميقة تجذب إليها ابصار المارة واحاسيسهم وتجبرهم على الوقوف لتأملها. وهو لا يتذكر انه مر قربها دون اكتراث، كان رقيباً لها حين تشرق عليها الشمس أو يصفو الجنوب حين تضربها العواصف أو يبرقعها الضباب. كانت جزءاً من حياته. في الصباحات الغائمة تلامس بهيبتها الكمثرية ضباب الغيوم وكأنها اصبع متشعب ينبثق من الساحة، وحين يروق الجو وتبزغ عليها الشمس يبعث وجودها الحياة في الدكاكين المحيطة والابنية السكنية المشادة بطابوق متوهج الحمرة. الشمس تكسبها حلة اخرى ووجوداً ثانياً، إذ تتلون بأشعة سائلة تتخافق على المياه ثم تسقط معه إلى الحوض كاشفة عن كنوز ما رأتها عيناه قبلئذ. فالخيوط السبايروجية الزرقاء تتلوى طليقة الطرف يحملها ارتجاج الماء إلى الرقص

والتأرجح والدوران على محور طرفها الثاني الملتصق بسطح الاسمنت، وهي تغوص بين الفينة والفينة تحت ثقل قطرة ماء طرطشتها الزهرة. وأوراق السرو المتساقطة من اشجار بعيدة واستحال لونها الأخضر إلى الرمادي، تفور في الحوض محمولة على اجنحة دوامات مائية لا تراها العين المجردة. كرات الزجاج تتلفع بشال من الغرين وشظايا العيدان تنام نومتها الأبدية منتظرة زمن التحول إلى كينونة اخرى ربما تكون من الطين أو الديدان أو الاشن. وفي أيام الحر النادرة كثيراً ما رأى الاطفال يخوضون في الحوض موقظين موجوداته من ركودها، متسكعين حول تلك الزهرة بمزاج مرح، خاصة عندما يرصدون وجوههم المشوهة المنعكسة في مياه الحوض. وذات مرة وبينما الفى الساحة خالية من المارة فعل الشيء نفسه. أقعى على حافة الحوض ودلى رأسه بمواجهة الماء، فرأى الخطوط العميقة المرتسمة على البشرة وهي تنث زنخة السنين. رأى بقع الالم المنبثة تحت العينين وعند زوايا الفم. رأى تويجات الزهرة تنبخ على رأسه كما لو انها فم طري مقبل على التهامه. واهتزازها فوق الماء ادخل فيه شعوراً غريباً، شعور انه يشهد معجزة تخض حياته الرتيبة، فتخيل نفسه يدخل عمق التويجات طالباً طمأنينة من خلودها، ويسافر في أنابيبها الغامضة المتخفية تحت صلادة الكتلة الكونكريتية. انه محمول باحساس استطلاع سر اللقاح ومكمن البذرة فتحول إلى قطرة ماء تساقطت إلى الحوض وارتشفتها ارض لا يفهم لغتها.

أياماً طويلة ظلت الزهرة الحديدية متعته وسلوته ومحط ترقبه كلما شاهدها في طريقه إلى المكتبة، وعدّها احدى كنوز حياته. ظلت كذلك حتى جاء اليوم المؤلم الذي اكتشف فيه فراغ حياته والرتابة التي يغوص فيها. المكتبة اصبحت عادة يومية والمدينة لا تكترث له، والشوارع ليس فيها من جديد والوجوه المحيطة به متشابهة مثل أقنعة المهرجين. هل هي الصدفة أم أن ما حدث جرى قبل اليوم ولم يلحظه؟ أمر لا يستطيع الجزم به، فذات صباح غريب شاهد المياه ناشفة من الحوض مخلفة وراءها طيناً متشققاً ونفايات غير واضحة الهوية، والتويجات ارتدت هيئة مخالب حادة تومىء مهددة إلى

الاطفال والعجائز والطابوق الأحمر.

رأى المدقة رمحاً سابحاً في الفضاء وحامل الزهرة كتلة اسمنت كامدة. وكان ذلك اليوم آخر يوم يزور فيه تلك المكتبة.

غوايّة خضراء

غابات

انها قرية: نخيل متشابك، غابات عالية، قرويات يلوّن الوجوه بالدارسين ويتعطرن بحب المحلب والقرنفل، غابات واطئة، متناثرة بين البيوت، حرس يقظ يكون مرة أغاني وأخرى اساطير تقص على مواقد لاهثة بجمرها: غابات هي لهوها ووقودها واغانيها، طفولتها وكهولتها، أيام شيخوختها الملأى بالحكايات وأوهام الصبا.

لماذا كتب للنخلة ان تكون شجرتها الخالدة، التي لا تزول؟ يكبر الصبيان، يتزوج الشباب، تترمل النساء والنهر يفيض كل سنة ويطغى على الحقول تظل هي متشامخة متطاولة، حبلى بطلعها، كثة بخوصها، تولد وتموت دون أن يدري أحد متى وكيف ولماذا.

تنبثق هكذا، وسط رمالٍ خلف تلة، عند دامة مائلة للسقوط يلوثها عطن الاجيال الكارة، كأنها روح لا تموت، فمن شتلها ومن سقاها؟ من حماها من هجوم الاطفال والبقر والماعز الفظ وغنم الرعاة؟

تغوص المياه عبر تربة غضة.

تنفذ بين دقيق ترابي ذي انابيب شعرية ومغاور وكهوف.

التراب يتحول إلى طين، الملح يذوب، التربة دقائق وطبقات وانبعاجات تحيط بجذور ممتدةإلى الاعماق.

امتداد موغل، اصابع متخشبة، ملساء نازلة إلى الاعماق تمتص رحيق الام، ارضنا الممزوجة بالملح والفناء والظلمة: ارضنا الشاسعة الصغيرة، المحترقة المتجمدة الواهية الصلدة، ارض حلزون الاقحوان وذبابة التمر وجنية الخيالات المنفلتة ودوارات الريح وكهرباء المعرفة.

تغور الجذور نحو المتاهات المتخفية عن الشمس والطيور والوهج الأزرق للسماء.

تغور تلاحق السائل الحي، سائل الخضرة والطلع والثمار.

جذور تتفتح افواهها بشهية لا يمتلكها سوى النخل، قابلة للهضم، للمص، ملحاً وسبخاً وقشور ديدان تسري بعد لأي في أقنية لا ترى، ملايين من البوابات المجهرية تتسامق إلى الأعلى: أرواح خائفة من الظلمة: أطياف ملت رقادها في باطن الأرض: لواعج، أوهام، خيالات، دمار حياة يستولي على موت ظلمة فجة.

في الحد الفاصل بين الكهف الارضي والفضاء الكوني، بين الوجود المحسوس والعتمة المجهولة، تتصافح الجذور فيما بينها، ساقا تمد، حياة تصنع، عجيزة ضخمة تنتأ فوق التراب، يظن من يراها انها ملصوقة لصقاً، بأمنا الارض، وليس يدركها سوى المبصرين، الذين يرون العمق ويحسون الظلمة، الذين يرون المتانة الحاملة لجذع اسطوري، يمد ساقاً تنتأ منها سعفات متراكبة، تنتأ منها اخواص وعثوق واعشاش.

سائل راكض إلى القلب، سللوز وكلوروفيل ورطوبة وأرواح.

طبقات شبيهة بالبحر، والجذور انهار صغيرة تصب فيها. تزول، تنمحي، في الكينونة الرطبة، محيط الخشب الشاسع الذي لا أمواج فيه.

أية مسافة لا متناهية يقطعها النسغ كي يصل السعف؟

أية مشقة تعترض القنوات المحملة بالحياة؟

أية صعاب يغذ النسغ سيره فيها كي ينمحي في قلب ظامىء لا ينقطع عن الخفقان؟

إلى اليمين، يميل النسغ، إلى اليسار، يميل النسغ. قشرة سميكة اشبه بالفولاذ. يرتد خائباً ذلك النافر المزهو بغنى تفاصيله. جدار، جدار، دائرة عجيبة من خشب ميت، من جذور كرب ومراقي بشر، وبصمات رعاة.

لا رجوع أيها النسغ.

إلى الامام ايها النسغ. فبين الجذور والسعف ملايين من الخطى، ولا نقطة للراحة والوقوف.

كيف نبتت، كيف ترعرعت، كيف اخرجت عذقها الشبيه بثدى فتاة، عذقها المعروض بوقاحة وفتنة وانوثة، فمن علمها فنون الغواية، نخلة في العراق؟

شتلة

افقنا من طفولتنا ووجدنا غابات من النخيل وسط رمال جافة، خلف تلة، عند دامة مائلة للسقوط يلوثها عطن الاجيال الكارة، كأنها روح لا تموت، قريباً من البيت، على حافة القرية، عند السواقي. نذهب إلى المدرسة فيتحتم علينا اختراق غابة النخيل الباردة الظليلة التي يختبىء في تلافيفها الطناطل والشياطين والسعالي والبومات التي تراقبنا بغضب.

نمضي إلى النهر ولا ننسى القاء نظرة خاطفة على النخيل المتسامق، نستمد العون منه، نخاطبه بلهجتنا الطفولية، نترقب منه اشارة للبركة والخير.

تساءلنا نحن الصغار: من زرع النخيل، وكيف وفد إلى قرانا، ولماذا يخيفنا ليلاً بحكاياته العجيبة؟

ثم ظننا نبت مثلما العاقول والحلفاء والحميض والثيل.

الظن سراب ولحية الجد ثلجية ومشربه مدخنة تقذف تبغها إلى سماء احلامنا، وعنده نجد الجواب.

النخلة ليست جذل حلفاء، كلا ولا هي شجرة صفصاف.

النخلة شتلة غضة، جابها يومها من اقرباء بعيدين. يفصلنا عنهم نهر عريض وقارب مشقق الخشب واسماك تلبط وتنتفض مفتشة عن غذاء يضمه غرين واشن وبقايا جزر.

يقول الجد: ذقت تمر الام، التمر الذي لا تنسى حلاوته وطلبت من الاقرباء شتلة من الشتلات المنتشرة حولها، ولأن اقرباءنا عريقو الاصل مشهورون بالكرم لذا لم يردوا طلبي. عرجت اليهم بعد أن رجعت متأخراً من مدينة الرمادي، وقلت لنفسي سأنام الليلة هنا وعند الفجر اتوجه إلى القارب ثم امضي إلى قريتي.

في الصباح أخذنا العدة وتوجهنا إلى الغابة: حفرنا بالمسحاة وقصقصنا بالمنجل، وسعنا بالأيدي وأزحنا التراب باقدامنا، إلى أن فصلنا الشتلة عن جسد الأم. سمعت نواحاً ممضاً، اقسم لكم كانت النخلة تبكي على شتلتها.

لففناها بقطعة قماش بليلة وراعينا الجذور، لأن الجذور اذا ماتت ماتت الشتلة، مثل الانسان: من لا جذور له لا حياة تنتظره، أجل الجذور حياتنا فلا تنسوا ذلك ايها الصغار.

رأينا الجد يخرج إلى الخلاء، إلى الأرض التي ستستقبل المولود الجديد في قريتنا.

هنا؟ لا، الأرض ملح، هناك؟ كلا، ستكون قريبة من الطريق، عرضة للاعداء من بقر واطفال ولصوص.

يجد الجد بمعته، ثم يمضي إلى البيت ليجلب مسحاته وسطل الماء. يحفر، يسطّح، يثلم، يعمق، يسوي الجوانب، ثم يضع الشتلة بتوءدة في الحفرة. يهيل التراب، يمسك بالنخلة مستقيمة إذ لا يريدها أن تنشأ معوجة فاعوجاج النخيل مثل اعوجاج بني البشر سرعان ما يقضي عليه.

ظل الجد يرعى تلك الشتلة ثلاث سنوات.

لم تثمر النخلة وداخل الجد قلق وحيرة، فالقرية عامرة والهواء رائق والحكايات مائجة.

مرت غيمة فما أمطرت. اضاء بدر فما داعب الخيال. ترنم بليل بين املودين فلم يطرب. مضت سنة أخرى فلم تثمر النخلة.

لم تف النخلة بوعدها للجد. قال لنا: لن تذوقوا تمرها العسلي انها عاقر. لم نعرف أنكتئب أم نحزن، صار الجد كلما يمر بتلك النخلة يصفق يداً بيد ويقول: راح تعبي هباء. راح تعبي هباء. يا للعار.

ذات صباح رأينا الجد معتكر المزاج وهو يحمل مسحاته وفشاره ومعوله، دائب الترديد: لا خير بشجرة لا تثمر، ولا خير بانسان لا يغمر الناس بعطاياه.

ازال الجد النخلة عن الوجود بلا رحمة، اشبع الاهل جماراً وملأ المخازن حطباً ووزع حكمته على الاهل والجيران قائلاً: كل شيء في هذه الدنيا مجد إلا الخنثى.

فآمنا بذلك، نحن الصغار، كل الايمان.

الأحدب

قالت الأم: الأحدب ابن النخيل، لم يكن رجلاً، لم يكن طفلاً.
انه ابن النخيل، لا أحد يعرف عمره بالضبط.
قيل لنا انه سقط من قلب نخلة عالية في ربيع ساخن من ربيعات القرية

فانكسر ظهره منذ ذلك الحين، أما لماذا وكيف سقط، فلم يبح أحد بالحقيقة: قيل انه رأى حية طويلة ذات رأسين تلتف على سعفة فلم يتمالك نفسه فقذف جسده إلى الأرض، وقيل أنه هوجم من كورة زنابير كانت متخفية وراء الليف، زنابير حمر مرعبة دخلت بين دشداشته وبدنه ففضل أن يلقي بنفسه من ذلك العلو الشاهق على أن يتحمل لسع ابرها السامة الممضة. قيل أيضاً أن أمه ولدته هكذا، ضيق الكتفين، ضئيل الجسد تتأ خلفه تلك الكتلة العظمية التي جعلته متفرداً بيننا غريباً باعثاً للحكايات والنكات والأوهام.

لم يكن الأحدب واحداً من جيلنا، لذلك ظل لغزاً بيننا.

شخص تدور حوله الحكايات.

لغز يقاسمنا، نحن الصغار خبز ايامنا واسرار لقاءاتنا.

له قامة قصيرة، لحيته لم تنبت بعد، وصوته طفولي مضحك، لا يملأ العين ولا يثقل بالحضور. إلا أن الكبار يخاطبونه كما يخاطبون رجلاً بالغاً، يفسحون له الطريق حين يمر ويصغون لكلماته حين يتحدث. ونحن نصغي ولا نفقه ما يدور. إذ لم نعده رجلاً ابداً، فقامته قصيرة، وملابسه قصيرة بحجم ملابسنا، احذيته صغيرة شبيهة بأحذيتنا، لم يتزوج ولم يقدم على اعمال كبيرة جديرة بالاجلال.

يقول الكبار: كل ذي عاهة جبار.

أجل فالأحدب يصلح راديوات القرية العاطلة، ويشغل مضخات المياه، وينجر من الخشب كراسي جميلة للجلوس وحاويات من الاغصان لخزن الحبوب، ويسوق الجرارات بخفة عجيبة ويقرأ الكتب ذات الأغلفة الصفراء حول الانبياء والرسل والحكايات القديمة.

أجل فالأحدب داهية بحفظ الشعر القديم ورواية أخبار الحروب واصول العشائر ولديه قلم فريد ومحبرة يستطيع عبرهما أن يصيغ مكاتيب جميلة إلى

الغائبين من ابناء القرية في الجيش والاعمال والهجرات.

كانت رسائله عجيبة لم نسمع بمثلها من قبل:

يا زين الأوصاف يا من كالبدر فركاك
اصبر على الموت وما اصبر على فركاك
من غبت لليوم موحشني نزل فركاك
والقلب باني بتنور الغرام وجرى
اصبر على حكم ربي علي وجرى
ان كان دمعك همل فوق الخدود وجرى
انا صباح ومسا ابكي على فركاك

من اين للأحدب قصائد مثل تلك، كيف يكتبها، تلك الحشرة الدابة في طرق القرية ومزاغلها. كان يطيّر الرسائل إلى الجنود في جبل قنديل ومعسكر الوشاش وكركوك ومعسكر الرشيد، ناقلاً لهم اخبار القرية بحذافيرها، الزواج، الموت، الطهور، الولادات، الهجرات التي كانت تحصل بين حين وآخر إلى مدينة الرمادي.

كان الأحدب الوحيد في القرية، تتبرك به النساء، يخشاه الصبية من امثالنا، ويخاطبه الكبار بتبجيل.

سمعنا أنه كره أكل التمر منذ أن سقط من النخلة وصار أحدباً، وسمعنا أنه صار يحلم بابادة النخيل من القرية ووجه الأرض: النخيل سل وزنابير وافاع وليف عفن وغربان وتمور حامضة، لا حاجة لنا به، يقول.

كنا نسمع الكبار يقولون: كل ذي عاهة جبار.

لكننا نحن الصبية، كنا نراه ضعيفاً أضعف من ذبابة.

لعالم الكبار أسرار لا تفهم.

نجمة فوق البيوت

البيت

كان أفقاً نحاسياً، شاسع البعد مشموراً في الشرق، وراء غابة النخل والنهر وحقل الشوك، حدجه عبد الله بنظرة لا مبالية وهو يقف على جرف الساقية أمام البيت: افق من رايات نخيل، من اشعة شمس بالكاد تسفر عن نفسها، افق من هموم وانشغالات فلاحية وامراض. هواء رقيق وشحوب، دقائق بطيئة واشواك جافة. كانت تمد اماليدها المشعرة فوق حافة الساقية التي جذب عبد الله قِدَره منها، والقدر مليئاً بالماء كان، والماء طيني فيه رائحة اشنية وعكارة وزنخة سمك. جذب قدره وعاد إلى البيت: فناء واسع تطل عليه ثلاث غرف، منها اثنتان تتجاوران لولا الممر الضيق الفاصل بينهما، والثالثة ينتهي بها الفناء، جوار بابها دكة ترابية طويلة: دكة من طين متيبس، كثيراً ما كانت محلاً لوضع القدور والمناجل وباطية العجين وحذائي فاطمة وعبد الله القديمين وليفة غسل الظهر التي اتخذت بعد جفافها شكل عظم ابيض منخور. بيت من حجر كلس وملاط وغبار ترسب بين المسامات طوال اكثر من اربعين سنة، دخله عبد الله ممسكاً قدره الثقيل سالكاً الممر الضيق، تاركاً خلفه شريطاً بليلاً يربط الساقية بالفناء، الساقية بحوض النخلة الوحيدة المنتصبة داخل البيت والتي تنشر ظل سعفها عل ذروق الدجاج والدكة وآثار الاقدام في التراب

والسنوات المتكلسة في الفناء وهي تتعتق سنة بعد سنة.

الماء يغور في نسيج الحوض، يترسب إلى عمق التراب الجاف حيث الجذور والديدان والملح، والافق اشعة خائفة وعبد الله لا يفتأ، دائراً بين الساقية والحوض، قدره بيديه وخيالاته طافحة، والماء يسافر صوب الجذور متريثاً، مستكيناً، فسوف يندفع لا محالة، خضرة يانعة وأحلاماً توشي السعف بخضابها: يذكر: جلبها ذات صباح فسيلة غضة، ثم حفر الحفرة ثم غرسها وسط الفناء، أجل، في الوسط، ففي كل جهة ستنشر ظلاً، وفي كل ظل سيحتمي اطفال ودجاج وضيوف طارئون.

تلاشت الاعوام، كل عام يزدهي النخل بالطلع تتفتق عن زهره ثمار خضر تحوم عليها الزنابير والنحل والفراش، ونخلة عبد الله كرحم جاف، كحصاة صلدة، كخشبة ما شقها عذق ولا ازدهت بالثمار.

قالت له فاطمة ذات ليلة:

ـ اقتلع النخلة يا عبد الله فقد كبرت من دون فائدة. انها جافة مثل رحمي.

احس كبرياءه يغور في الارض مثل الماء، وتساءل مع نفسه ان كان لفاطمة مرمى آخر لكلامها، أهو حقاً رجل عقيم، اين البنات والبنون المستظلون السعف، اين الوارثون والعقبى، أين صراخ المواليد الجدد؟ لا يمكن لفاطمة أن تلقي اللوم عليه، فثمة إله في السماء هو الذي يمنح ويمنع، يبسط ويقبض، وما نحن إلا كائنات تدب على هذه الارض لا حول لنا ولا قوة، فكر عبد الله. وظل على عادته: يسقي النخلة كلما جرت الساقية، يجذ الليف كلما اشعث، يجملها كلما ارسلت سعفها نافراً متهدلاً في فناء البيت. كل موسم، كل فجر ينهض فيه للصلاة، ويكون الغبش سائل فضة، يلقي نظرة عجلى إلى القلب. اجل الى القلب، فهو يعرف من اين تأتي الولادة: الحدس يخيب والظن يكبو، فالليف ملتحم بالسعف والغائب لم يطلع بعد والخصب بعيد المنال. كل

موسم، كل يوم يهتف لنفسه فجراً: غدا الطلع، وحين يتجاوز الموسم نخلته يهتف: هنالك مواسم قادمة، لا تحزن يا عبد الله.

شارب اسود نحيف عند نهاية الشفتين، رباط رفيع أسود على قميص ابيض نظيف، بدلة صوفية ذات فتحتين، حذاء احمر رشيق، ابتسامة خجولة، عينان صغيرتان ضيقتان، وصفرة خفيفة في الاسنان، ووجه فلاحي صلب التعابير: هكذا دخل معلم المدرسة نجم ممر بيت عبد الله، وكان الماء يسيح من جوانب حوض النخلة راسماً خطوطاً ومربعات في الفناء. هتف المعلم نجم قائلاً:

ـ هل وافقت على اعطائنا احدى الغرف يا عبد الله؟ اريد رداً واضحاً.

ـ أأنا الذي يوافق؟ كلا، فاطمة هي التي بتت بالموضوع. قالت ان مجيء النساء إلى البيت سيزيل وحشتها.

ـ بيتكم هو المكان الملائم، سيما وانه خال من الاطفال وضجيجهم.

لم يقل عبد الله شيئاً. أدار وجهه شطر النخلة وظللته غمامة من الحزن، احس انها طعنة نجلاء ثانية، أتت هذه المرة من معلم القرية. لمَ يحمل كل هذه الطعنات في طريقه إلى القبر؟ وفهم المعلم نجم ما يدور في ضمير عبد الله فعزم على تلافي الخطأ فاستدرك قائلاً:

ـ البارحة اخبرتهم في المدينة بانك وافقت على اعطائنا احدى الغرف، وسيصبح بيتك مركزاً لمحو الامية.

العاقر

دنيا ضنينة، تمنح بكف وتأخذ بأخرى، أعطتك فاطمة الجميلة وسلبت منك رجولتك، وكنت تأمل بزوجة جميلة وأطفال كثيرين تكون النخلة ملعباً وملهى لهم وحين تزوجت فاطمة حسبت أن جزءاً من الذي تمنيته قد صار بين اصابعك: فاطمة القوام السيسباني والوجه القمري والشفاه الرمانية والشعر

الحريري، وحين مضى عام على زواجكما قلت لها وأنت تداعب خديها ورمان صدرها: فاطمة ألم يتحرك شيء بأحشائك، واجابتك والخجل ينز من عينيها السوداوين: لم نزل اطفالاً يا عبد الله مالك مستعجل، ومرت السنون وفاطمة كأنها عذراء لم يقربها رجل، غير أن اليأس لم يخالط روحها، فالطفل الذي سيضوي البيت ويزيل الوحدة لم يفارق خيالها، انت تذكر عليا، ابن اخيك الذي قلت عنه انك ستتسلى به مع فاطمة حتى يجيء الطفل، ابن فاطمة وعبد الله، لكنك حين تدير رأسك ترى الكلمات وهماً وخيالات، فعشرون سنة من حياتكما ما هي إلا وهم وسراب، فما ان أدار عليّ عينيه في وجهينا حتى لمس خديعة لم نستطع اخفاءها، رغم اننا أغدقنا عليه بالاحذية الجديدة وبيوض الدجاج والملبس والتفاح وحقائب الكتب الجلدية المزركشة، فكان ذلك الليل الكالح المظلم المليء بالرعد والبرق وسفيف الغبار حين ابق عليّ راجعاً إلى أهله، أتذكر اليوم جيداً، ولا أنسى منظر النخيل وقد استحال إلى اشباح والاشجار والحيطان والبيوت إلى هولات وعفاريت وسعالي، ولكم جاهدت لكتم تعاستك وعجزك وجرحك الفاغر، لتسري عن فاطمة ليس إلا، وبقيتما ساهرين حتى الفجر، كل نأمة تحدث وتوقع الظهور علي، وكل وشوشة صوته، وكل صوت روحه التي ستعود دون شك إلى طفولتها، وكم فوجئت حين توسلت بك فاطمة عند الفجر قائلة:

ـ تزوج يا عبد الله، ما ذنبك انت، انا العاقر، ستنجب أطفالاً أربيهم وارعاهم كما لو كانوا اطفالي.

لكن كيف اترك القوام السيسباني والوجه القمري والشعر الحرير، كيف؟

المعلمة

عيناه في ثنايا السعف وتعرجات الليف وزرقة الخوص، وتارة ينظر عبد الله إلى فاطمة رائحة غادية، في وجهها بشر وفي أطرافها خفة لم يعهدها، وكان

يستند على الدكة مغموراً باحساس دافيء وطمأنينة غريبة. شمس في السماء وسماء صافية كعيني ديك. سكينة عميقة تخيم على فضاء القرية: لا نداءات، لا ضوضاء لمضخات الماء، لا أجراس رعاة يعودون باغنامهم من المراعي البعيدة، هو وفاطمة وانتظارهما للمعلمة التي ستصل قريباً. كانت فاطمة تدخل غرفة، تلبث لحظات ثم تخرج، ثم تدخل أخرى ثم تخرج، حاملة مكنستها الخوص، بين يديها دائماً خرق وعيدان وبقايا خوص واتربة ومخلفات دجاج وحشرات ميتة.

حط بلبل على سعفة في قلب النخلة وراح يغرد، موسيقى طارئة على فناء عبد الله، الوان ريشه زاهية، ازرق واصفر واحمر خفيف ولم يلبث إلا لحظة حتى رأته فاطمة يحلق في الفضاء مخلفاً ريشة بيضاء على خوصة في القلب.

فاطمة لم تشخ، أنها لم تزل قادرة على تنظيف بيتها.

فكر عبد الله.

في قعر الحوض انتشرت شقوق صغيرة ناعمة، فتتت التربة فاسفرت عن العروق الغليظة للنخلة، وهي تنغرس في الأرض: أحس عبد الله بأنه واحد من تلك العروق، سرعان ما يذوي ويموت، دون أن يخلف أثراً.

إذن هو دون طلع، دون أسماء ستخلد اسمه حين يأويه قبر مظلم. فالحياة اسم كما علمه الزمان.

قبل أن تصل قطرة العرق المنحدرة من اخدود وجهه إلى زاوية فمه، جاءه صوت فاطمة صائحاً بجذل:

ـ المعلمة، هاهي المعلمة قد وصلت..

فاطمة

كانت الغيوم تهمي مطرها إلى أرض ناعسة، خيوطاً رفيعة مستدقة سرعان ما تتحول إلى مسائل ونهيرات وبحيرات تتموضع في الحفر والمنخفضات

والاغوار. تبل جذراً، تروي حقلاً، تبعث زهوراً من مهادها وترقش الطرق بالوحول والمزالق غامرة ازهار الجنيبرا البيض واوراق الخباز المستديرة ونباتات العليق الطرية. وفي صخب كهذا، لم تبرح فاطمة تدخل الطرق المتعرجة وتوغل في البساتين التي تقطر المطر بتريث، تنط السواقي وتعبر القناطر، لتطرق الباب اثر الباب، مشمرة ثوبها الكتاني الأسود ذا الشجيرات الزرق.

حاذت باب أحد البيوت، كان مفتوحاً، صاحت بصوتها الحاد:

ـ سعدية يا ملعونة، لماذا تتهربين من الدراسة؟ المعلمة تنتظركن في المركز، لا تقولي لي انك منشغلة بخياطة ثوب ابنك، انا اعرف حيلكن.

زيارة فاطمة للبيوت، بسماء ماطرة مثل هذه، أدهشت جميع أهل القرية: فالمزاريب تهمي والطرق موحلة والجو فيه نغزة من برودة، ولا أحد يغامر بالخروج إلا الغرباء والمجانين والاطفال. الحلفاء مالت أوراقها تحت ثقل المياه والبقر آب إلى حظائره والطيور احتمت بعقدة اوراق تمدها بالدفء.

كان الجميع يجلسون حول مواقدهم إلا فاطمة.

لم تكن عادتها التجوال بين البيوت مثلما يحدث الآن. في السابق ما ان يقام عرس أو ختان إلا وفاطمة اولى القادمات، تزور العرائس، ويلتمع في رأسها بناتها الجميلات القادمات على فرح مثل ذاك، تفد لتهنئة الشبان بيوم زواجهم، ويلوح لعينيها ابنها الجميل المقمر الوجه الذي ستدق له الطبول والزمر امام البيت اسبوعاً كاملاً، أما حالات الولادة فتصر فاطمة على حضورها، وكانت حياتها شاسعة الاحلام، معبأة بالانتظارات اللذيذة، ومع مرور السنين استحالت الاحلام إلى خرافة والانتظارات إلى يأس مطبق لوث لياليها بالكوابيس، وكفت عن الخروج من البيت إلا لأمر طارىء.

كانت دهشة حسيبة غامرة حين لمحت العمة فاطمة تنبثق من حقل الحنطة المجاور للبيت، مشمرة ثوبها، معلقة عباءتها على يدها، والمطر يخضب وجهها

حتى ظنت انها لا يمكن أن تكون إلا طيفاً بعثته الغيوم:

ـ انها تنتظركن في المركز منذ أكثر من ساعة.

ـ بمثل هذا الجو الممطر! كيف وصلت القرية؟

ـ تقول انها لا يمكن أن تتخلف ولو ليوم واحد.

ومن فرجة صغيرة في الغيوم راحت اشعة الشمس تتسلل بفرح، لتسقط على سقوف البيت وظهور البقر، وأخذ الاطفال يمدون رؤوسهم من الشبابيك والأبواب متأهبين للخروج إلى الفسحات والمناطق الظليلة الجافة، ثم ما هي إلا سويعات حتى تصاعد الدخان من التنانير عالياً في الفضاء معلناً عن عودة الحياة ثانية إلى القرية.

الحلم

قالت سعدية لفاطمة بعد انتهاء الدرس ـ اعتادت فاطمة الجلوس على دكة الباب، ترمق الفتيات الصغيرات وجرأتهن الفائقة، وتشعر بالعطف للنساء الكبيرات وهي يتأتئن ويلثغن الحروف والكلمات بخجل ـ وانصراف المعلمة:

ـ رأيت الليلة الماضية حلماً غريباً.

ـ خيراً، ماذا رأيت؟

ـ كان الوقت ليلاً، وبيتكم مليء بالاضواء، باقات من المصابيح تنتشر على الحيطان والسقف وسعف النخلة والباب الخارجي، وكان البيت مثل شعلة من نار، غدت له القرية مثل النهار، ونساء القرية مجتمعات، في افواههن اللبان ويفوح من اجسادهن القرنفل والهيل، والزغاريد متواصلة والمعلمة تقف في الوسط من حشدنا، وكنا متحلقات حول النخلة، فخاطبتنا المعلمة قائلة:

ـ أتعلمن لماذا نجتمع هنا الليلة؟

ـ كلا، اجبناها.

ـ العمة فاطمة حامل، والمولود سيكون ذكراً.
ـ لكن العمة فاطمة غائبة، قلنا لها بعجب.
ـ لا تتعجلن، سوف تظهر، انها تهيء نفسها في الغرفة.

ثم تناولت المعلمة سعفة صغيرة من قلب النخلة ولفتها حول رأسها، شبكتها بمشابك ذهبية، فبانت كأنها ساحرة طيبة تلبس طوقاً من الزبرجد، وفوجئنا بك تخرجين من الغرفة، لابسة ثوباً أبيض وبطنك منتفخة، وكنت تتمايلين مثل بطة بيضاء وبين يديك اناء كبير ملىء بالحناء، اخذت تخضبين منه كل شيء: أيدينا واحدة واحدة، سعفات النخلة، طوق المعلمة، مقابض الابواب، والصخور، حتى الدكة الترابية لم تنج من اصابعك.

مالت الشمس إلى المغيب، وتلاشت ضوضاء سعدية في سكون الاصيل، وهاهي الغرف والجدران العارية ونخلة البيت تنفض عن سعفها آخر شعاع من الشمس، الفراغ مرة أخرى يطوق فاطمة ويطوف بها من غرفة إلى غرفة ومن زاوية إلى أخرى، وحين دخل عبد الله الممر حاملاً مسحاته الملوثة بالطين، كانت عينا فاطمة تفتش عن آثار الحناء على الدكة وسعف النخلة ومقابض الابواب: لا جدوى.

رؤيا الطلع

بهدوء، فتح عبد الله بابهم الخشب وانسل إلى الفناء، ومن فوق الدكة الترابية القائمة وراء النخلة تناول ابريقه النحاس واتجه خارجاً: فجر لم يطلع بعد، لكنه موشك على ذلك، فثمة دلائل تشير إلى قدومه: تخلصت الاشجار من عجينة القير وتحولت إلى اشباح قائمة، والديوك تعالى صياحها وشققت مثل السكاكين جراب العتمة فتبعثرت لطخ الضياء على الموجودات بخجل، أما نباح الكلاب فكان يلتهم الطرق والملابس المعلقة على الحبال وخيالات البشر الساعين في الأرض، وأخيراً تلك النجمة الكبيرة الوضاءة المتدلية فوق البيوت.

حين شعر عبد الله عن ذراعيه شعر بارتجافات خفيفة تسري فيهما كلما لامس الماء. غسل يديه حتى الكوعين، ومسح بالماء المقدس فوديه، وكان يتلو دعواته بخفوت وليس له من سامر في هذا الغبش، سوى تلك النجمة اللاهثة المتوهجة: تلك المدلاة في الافق الشرقي، المستوحدة، النافرة عن حشدها، التي قذفها الليل في طريقه لتكون هادياً له ومعيناً.

الماء المتبقي في الابريق سكبه على الارض المغطاة بالنجيل ثم قفل راجعاً إلى الفناء.

في روحه خشوع وتضرع، وفي الهواء قوة هائلة تنشر رداءها على الجهات، قوة يوم جديد حامل بالتوقعات والاحلام. لم يكن بنية عبد الله ان يلقي نظرته المعتادة على النخلة، لذا تجاهلها وانعطف هاماً دخول الغرفة ليبسط سجادة الصلاة ويؤدي فروضه، غير أنه فطن للابريق الفارغ معلق بيده فرجع إلى الدكة وركمه هناك جنب ليفة الظهر الشبيهة بالعظم.

التفت إلى النخلة فالفى العتمة مخيمة فيها، عتمة خيوط الظلام المتلاشية وهي تلتصق بالسعف وتتشبث بالليف والكرب، عتمة خيفة توشك على الانقشاع ليحل مكانها ذلك الانجلاء والتجرد، ذلك الوضوح الشفيف، حيث القلب يتجلى سافراً خصيباً.

القلب الذي يواجهه اللحظة باغراء لا يحد.

شبح المدينة

سرى الخبر بأقنية المدينة سريان مياه نهرية غير مرئية، تسرب عبر شوارعها نافذاً نحو الازقة الضيقة غير المتناسقة ليوغل في بيوتها الواطئات. تناقلته افواه سرية واذرع ملحية محروقة بهجير الاصياف الوهاجة ونسوة ناعسات افقن على ضوضاء الصباح بمزاج رائق. كن يلكنه في الابواب كلبّان، يتبادلنه مع نساء أخر خرجن لدلق مياه الغسيل أو لملء حقائب خوصية بالطماطم ورؤوس الفجل وذرات اللحم. وشى به الطلبة المتسكعون بأروقة العطلة الصيفية وعمال النظافة وسواق الجرارات الزراعية والاعراب ومرضى المستشفى الوحيد. باعة الحليب، المكاريون الوافدون بسلال فواكههم وخضارهم من القرى، عرفوا بالأمر أيضاً دون أن يكتشفوا من اين نبع وكيف اجتاح المدينة بأمواجه الشاسعة. وعندما انطبق مؤشر الساعة على الثامنة صباحاً، كانت المدينة كلها على علم بأن الرئيس في طريقه لزيارة المدينة.

ومع ان الخبر اذهل الجميع وانقض على الرؤوس مثل صاعقة إلا أن الوجوه ظلت مغلقة على مساماتها وتجاعيدها، واتخذت الافكار الواضحة مساربها نحو الداخل، إلى ابعد متاهات الصدور غوراً، وكانت العيون ضاجة بترقب اخرس ليس له سمات، ليس له أشكال تلمس، حار فيه رجال الشرطة السرية وبلبل تقاريرهم التي ينبغي أن ترفع إلى المدير المتمترس وراء جدران دائرته. إذ أنهم

وجدوا صعوبة في فهم ما يدب بذهن مصلّح الدراجات مثلاً عن الزيارة المفاجئة، وشاهدوه يدور امام دكانه بينطاله الملطخ بالزيوت. زبائن المطاعم الثلاثة، التي تقدم الكباب والمعاليق وقطع اللحم المشوية، من فلاحي القرى وغرباء المدينة وعمال السوق، الفوهم يتناولون وجباتهم بطقسهم المعروف من تمطق ومصمصة وتلمض لا امارة فيهم يمكن التكهن بسوئها. باعة الخضار اصواتهم ممومسقة ضابحة، النساء متدثرات بعباءاتهن السود متجهات إلى قلب المدينة، لا تعابير غريبة ولا ايجاءات تجلب دفق الظنون. لذلك استنتجوا، بخبرتهم العميقة باصطياد الاشاعات وجس النبض وقراءة العيون وتشمم اريج الخطر من ايما زهرة هب، استنتجوا أن الخبر لاقى ارتياحاً شعبياً عاماً، وليس في الجو حياكة نسجها غريب. وزاد من قناعتهم ومد جذورها بتربة الرضا ان الحوارات التي سمعوها حول الخبر اجمعت على الدهشة اكثر مما اجمعت على الاستياء والريبة. إذا، ابرقت التقارير ووثقت في صفحاتها السرية ان المدينة مهيأة للزيارة ومنتظرة لزينتها التي ينبغي أن يراها عليها الرئيس.

كان جسد المدينة قائماً على صفحتي شارع عام يربطها بالمدن الشمالية، امتيازها الذي انقذها من أن تكون مدينة لا قرية كالقرى المحيطة بها. قدرها الذي عاشه سكانها منذ بداية تعبيد الطرق وتسليكها ابان العهود الملكية. أما امتيازها الآخر فمجاورتها للنهر، حيث يمر جنبها هادئاً رزيناً يروي عشرات البساتين المزروعة بالخوخ والرمان والعنب. وقيل أن النهر هو الذي دفع الرئيس لزيارتها. صفحته الزرقاء واسماكه الذهبية وشواطئه المعبأة بالالوان واجرافه الطينية الحائمة على زهورها فراشات صيف قزحية الاجنحة. إلا أن طائفة من الناس تحتج على ذلك قائلة أنه لا يوفر أية صفة سياحية. فالصيف لا يحتمل وموجات الغبار تضرب باصابعها الخشنة احياء المدينة كل اصيل، ولكن، لتمتين محبة شعبي، كما ذكر البعض نقلاً عن مدير مكتبه الذي رتب الزيارة.

الاعراب حين ترجلوا من باصات هذا الصباح وبعد أن دخلوا السوق

الشعبي وتجولوا بين تلال العنب واكوام البامياء، وفي غمرة رائحة البطيخ الاصفر التقطوا الخبر وارتسمت على لحاهم الشعثاء الوان من التأملات. الاعين منهم خالطتها كثافة خوف غير معهودة وضربت على قلوبهم سحب من الهواجس، وظلت الدهشة، مجاراة لأهل المدينة، التعبير الطاغي على ما عداه، دهشة أنهم لا يرون داعياً لزيارة شخص مهم مثل سيادته. كيف والمدينة بيوت صغيرة وشوارع وسخة يملأ أقنيتها الروث والطماطم الفاسدة وقشور البطيخ، ويسري فيها غبار أحمر مكروه على شكل موجات هوائية تجلبه الريح من صحارى البدو. ورغم ذلك فإن ما سيحدث مادة دسمة للسهر، يقصونه هذا المساء على اسرهم وشيوخهم. وبأصوات حذرة فرضتها شائعات مضادة عن قسوة الرئيس بحق اشخاص آخرين، يقولون لبعضهم البعض، هذا اليوم سيخلد في حياة المدينة إلى أبد الآبدين. تتحدث به الركبان وتتناقله الكتب ويتسامر به الرجال في مضافاتهم ومخادعهم.

وهكذا ظل الخبر يحفر مساربه بجسد المدينة حتى تواثب الزمن متجاوزاً العاشرة. ظل يتغلغل بنسيج لحمها إلى أن اوقفته اوامر تزيين المدينة واجلسته على طبقة صلبة من الصدق. أوامر حملها رجال لا يعرف عملهم بالضبط، مع أنهم يثبتون حضورهم في حياة المدينة عبر لهجتهم الصارمة ووجوههم الحجرية وشواربهم الرجولية. أوامر حملت اصحاب الدكاكين وعمال المحلات وقطنة الدور إلى الامتثال لها وتنفيذها، فعليها يعتمد شرف المدينة وولائها، وبواسطتها تثبت شدة الحب.

أما الزينات الواجب وضعها، فلم ينطق أولئك الرجال عنها بحرف. ستعرفونها في حينها قالوا، وبذلك أغرقوا الناس الموجودين تحت شمس الصباح بمستنقع انتظار دائم مملّ خلق وشوشات وهمسات بين الازقة والحدائق امتدت حتى ساحة المستشفى.

وفي الوقت نفسه، صدرت أوامر أخرى إلى كل امرىء تابع للدولة، من

موظفين وكتبة وشرطة سرية وعلنية ووكلاء شرطة ومسلكي مجاري وبنائين، للقيام بما يجب القيام به فوراً. عمال البلدية حملوا مقشاتهم بهمة وجرجروا عرباتهم اليدوية وراحوا يكنسون. ابتدأوا بالشوارع الكبيرة حيث جلفوا الأوراق وبقايا الخشب وعيدان الذرة المتساقطة من المكارية، ثم نفذوا إلى الازقة الفرعية لكنس قشور الرمان واغلفة الكتب والقناني الفارغة المتخفية في مياه آسنة ترسبت على اعقاب سجائر وروث حمير. قشطوا الطين عن حافات الارصفة ولمعوا القير، رشوا مساحيق الدي ـ دي ـ تي ومبيدات الحشرات، وقبل ان تغيب قرقعة ادواتهم من الازقة، اعقبهم مجموعة من البنائين لترميم الارصفة المتآكلة والسياجات المطلة على الشوارع والواجهات. ولتنفيذ التعاليم بحذافيرها، منعت فرقة من الشرطة العلنية جميع المكاريين من الاقتراب حول المكان الذي يعتقد أن الزائر سيمر به. جمعوهم على شكل جيش رعوي في ساحات خلف المدينة، وسط الغربان المتسكعة وبراميل القمامة وجثث الحيوانات النافقة، فصاروا يفرغون احمالهم على الارض السبخة وينشّون عنها الذباب والغربان، وكانوا يشكون ويتذمرون بأنين خافت.

وساعة أن اتمت الارض زينتها من كنس وترميم وتعطير، وفدت ثلة من الشباب تحمل على الاكتفاف عشرات اللافتات مكتوبة بحبر أحمر أو اسود على خلفية بيضاء، كانوا يسطونها على واجهات المحلات واعمدة الكهرباء وشرفات المنازل. حمل بعضها جملاً وأقوال مقتطفة من خطب سابقة القاها الرئيس بأماكن اخرى، وكان حصاد عملهم انهم وضعوا الرئيس واقواله في كل مكان: في الازقة، على واجهات المدارس المغلقة، فوق محلات بيع الكباب، أمام الجامع. وعلى صندوق محولة كهربائية يرتكز امام مصلح الدراجات نشروا لافتة تقول: شعبي يدي التي اضرب بها. وأكبر اللافتات علقت على بوابة المستشفى العريضة، إذ ترددت اشاعة مفادها أنه سيزوره لتفقد المرضى والحديث مع الاطباء.

أكثر الخبز في المخابز، غصت المحلات بالبضاعة، أصلحت الطرق، جددت

انابيب المياه، صبغت الجدران، وحلق طير الدهشة في العيون وهي تشهد جلد المدينة الجديد، واثناء تحليقه في الحارات والاحياء، وقدت سيارة حمل ضخمة مليئة بسعف اخضر كانت تقف امام المحلات وتلقي سعفة أو سعفتين حسبما تقتضيه سعة المحل وحجم معروضاته. هكذا حصل مصلح الدراجات واصحاب المطاعم والمكتبة وبقالو السوق وصاغة الذهب وتجار البهارات على حصصهم من السعف، وغادرت الشاحنة إلى احشاء المدينة متابعة نفس مهمتها جارة خلفها سحابة غبراء من الاطفال.

وتزيين احشاء المدينة فكرة من افكار مدير البلدية، همس بها لمدير الشرطة السرية عبر الهاتف الذي لم يتوقف بينهما: قد يدخل سيادته ازقة مدينتنا الخلفية، لهذا فلا بد من تزيينها. والتماعة ذهن المدير بفكرة مثل هذه رغبة اثبات ولاء أكثر مما هي خطوة ود حقيقية.

بمثل هذه المناسبات كل امرىء يعرف واجبه، فسرعان ما لف اصحاب المحلات السعف النضر حول الدرفات والشبابيك واطر الابواب، شكلوا قباباً واهلة ومنائر تترابط فيما بينها بشرائط قماشية وخيوط ملونة وقصاصات الورق الخاص بالاحتفالات. كما أن اشرطة طويلة اديلت من الشرفات ولامست الأرض مؤلفة سرادقات ترجفها النسائم الهابة من سطوح البيوت وابراج الحمام وفضاءات الطرق. كرنفال لوني هو الأول من نوعه في المدينة. ووحدهم فلاحو القرى كانوا في عجب منه. فالفخامة أكثر من اللازم، والزائر كما شاهدوه في تلفزيوناتهم متواضع لا تهمه الطقوس والاحتفالات. تغنيه اهزوجة أو موال أو تصفيق جماعي عن كل هذا البذخ. ثم هذه الاغصان السعفية بخوصها الهدبي، يفكرون أيضاً، هل هي حقاً علامات احتفاء جدير بفخامته؟السعف وقود للتنانير، حظائر للبقر، عصي للتوكؤ، مطارق لندف الصوف، لا أدوات زينة لرئيس يزور المدينة للمرة الأولى.

• • •

عندما شبحت الشمس في السماء الدرية وبعد تعب الاستعدادات على الوجوه، كانت المدينة قد جهزت نفسها لاستقباله مرافقاً من ثلثمائة جندي من حرسه الخاص وسرب طائرات مروحية ومدير مكتبه وثلاثة وزراء ومحافظ المنطقة التي تتبعها المدينة ادارياً. أما اللمسات الأخيرة، كما وصفها مدير الشرطة السرية، فقد سويت بصرامة واحكام. فمن جهتها جمعت الشرطة السرية عشرين طفلاً بين الخامسة والعاشرة، والبستهم ملابس موحدة دفع ثمنها ارستقراطيو المدينة وهم سيرددون النشيد الوطني لسيادته تتقدمهم فرقة موسيقية وفد اعضاؤها من مدن قريبة، مؤلفة من عازفي الطبول وضاربي الصناجات والميوقين المبوقين وقارعي الدرابك. ووضعت الفرقة مع الأطفال قدام الأهالي المجتمعين في بداية الشارع المؤدي الى قلب المدينة.

كان بين الحشد مكاريون وفلاحون ودلالون وعمال نظافة بأطقم زرق مع كامل افراد الشرطة السرية الذي انطلى على البشر تمويههم لولا مسدساتهم الموضوعة تحت القمصان المبللة بالعرق. المحلات أغلقت، الحمامات اوقفت نشاطها، المطاعم فرغت، الجامع الوحيد خلا من المصلين وظل حارسه وحيداً بين منمنماته وثرياته وحروفه الكوفية. المدينة نظفت امعاءها وعطلت طرقها سيارات خاصة اشرف عليها رجال وفدوا من العاصمة. بينما، وخلف ذلك الضجيج، خلف رفرفات العيون من قساوة الحر وهجسات القلوب، كانت ثمة ترتيبات سرية لم يطلع عليها سوى مدير مكتب الرئيس ومدير الشرطة السرية. ترتيبات تصب في مجرى الصالح العام وتمتن الثقة بالدولة وتتواكب مع اللمسات الأخيرة للاستقبال. ابتدأت أول ما ابتدأت بالمستشفى. حيث استبدل الأطباء والممرضون باشخاص لم يرهم أحد من قبل، البسوا مرايل بيض وعلقوا سماعات في رقابهم ووقفوا في الممرات وقاعات الانتظار متأهبين لاستقبال الرئيس، الذي أجمع الكل انه سيبدأ زيارته للمستشفى وينهيها بدارين من دور المواطنين. ومهة الدارين اشرف عليها حرس الرئيس خطوة خطوة، وهما داران متواضعان بواجهتين من الطابوق الاصفر باباهما مطليان

بالازرق ويقعان في نفس الزقاق. الزقاق نظف بعناية ورشت المطهرات النازة لروائح مستساغة في الاماكن المهملة وافواه المجاري وبرك الغسيل. براميل الأوساخ ابدلت بغيرها وغطيت بأغطية حديدية ملونة، وزّينت بداية الزقاق ونهايته صورتان للرئيس. ضوعفت الاغصان وكثفت الوان الشرائط ورُقشت بمصابيح صغيرة ستضاء إذا ما حل الليل بوجوده، وأحيط الزقاق بكواكب وافواج مسلحين تقرفص بعضهم على السطوح وختل الآخرون في الزوايا. وفي الداخل، داخل البيتين، تم استبدال كل شيء. الثلاجات الطباخات، المرايا، الكراسي، الاسرة، طلاء الجدران، روائح البيت والقاطنون. في الثلاجتين الواسعتين نضدت اللحوم والدجاج والاجبان والفواكه بوفرة لا مثيل لها، فعادته التفتيش بكل خبايا البيت، والثلاجة رمز المستوى المعيشي للمواطن. عائلتا البيتين كانتا قد رحلتا بأمر من مدير المكتب إلى أماكن مجهولة ووفدت محلهما عائلتان تتألفان من الزوج والزوجة. المرأة البست لباساً بلدياً والزوج كذلك وافهما بساعة الزيارة، أما سبل التصرف وما ينبغي قوله تحت اشعة الكامرات التلفزيونية فأمور معروفة ومختبرة قبل الساعة ولا حاجة لتكرارها. وعندما حلت الظهيرة بابر اشعتها النافذة، وتصاعد اذان الجامع بنبرات إلهية مسكرة، كانت الطيور كالغربان والصقور واليمام، وحدها القادرة على عبور افق المدينة. فالحصار مضروب باحكام وكأنما المدينة تغوص في تيارات اوبئة فاجرة محجورة فيها بناسها وحيواناتها وسياراتها.

عرق الاجساد يسيح متغلغلاً بين الشعر والانحناءات الجسدية، والعيون يشدها هجسها إلى الافق البعيد علّها تلمح شارة لطلعته. الفرقة الموسيقية تقف متأهبة فيما دب الملل في الاطفال وكسروا وقفتهم النظامية، وراح الاعراب وهم مدفوعون بأمواج ضجر لا يقاوم، يبعثرون اجسادهم في افياء الجدران والشجر ومظلات الدكاكين.

في حمأة الانتظار الطويل وغيوم الملل بزغت علائم الرئيس.

شاهدت الجموع خمس طائرات مروحية متجهة صوب المدينة، تمييزها عن الصقور والسنونو صعب لولا طنينها المتصاعد قليلاً قليلاً كلما اقتربت نحوهم. شاهدوها وهي تلف وتدور في سماء زرقاء دويها يطغي على الهمس ونباح الكلاب ونهيق الحمير. في جولان متواصل يرتفع مرة حتى أعمق نقطة يراها الباصر أو ينخفض اخرى كي يلامس الرؤوس، يهز عصف هوائه ذبالات الشجر وملابس الغسيل المنشورة فوق الاسطح، ظلت تحوم بلا انقطاع، حارسة بمراصدها مساحات شاسعة من تخوم المدينة. كانت ترصد الطرق والبساتين، الاجراف النهرية ومنحدرات السواقي، غبرات الصحارى وحركات البشر المجتمعين، ناقلة بشفرات خاصة وعبر اجهزة لاسلكية تقارير برقية إلى العاصمة، بينما ظلت آلاف العيون تتابع تحليقها ولم تكف حتى حين وفدت طلائع الموكب.

كانت طليعة الموكب ثلاث سيارات ضخمة مليئة برجال مسلحين امطروا الحشد لحظة وصولهم بنظرات حادة عدائية، وبعد أن لفظتهم الشاحنات شكلوا حاجزاً على جانبي الشارع، وكانوا يبعثرون الاوامر يميناً وشمالاً. ثم جاءت بضع سيارات سود ذات زجاج معتم لا يمكن الرؤية جلب مرآها حماس الفرقة فبدأت عزفها بالطبول والصناجات والابواق، جارة خلفها اصوات الصبية الناعمة بنشيد مرخم لم يلبث أن ذاب في عاصفة التصفيق والهتاف وزغاريد النساء. ثم اعقب السيارات السود أعداد لا تحصى من السيارات: جيب، رانجروفر، تويوتا، بونتياك، زيلات عسكرية، دراجات نارية مزودة بأجهزة مخاطبة وواقيات رصاص ومصابيح عملاقة تسهّل المطاردات الليلية. حسب الجمهور الرئيس بواحدة من السيارات الفخة ففاجأهم بنزوله من سيارة تويوتا زرقاء كان يقودها بنفسه مرت تميس في نهاية الموكب. وحين ترجل منها احاطته دائرة من حرسه الشخصي ثم طوق الدائرة حلقة من الحرس الرئاسي ولف حول الكل شرطيون مدنيون شرعوا يقتحمون الناس ليفتحوا ممر الموكب الرئيس. وفيما ذكر الاعراب بعد ذلك

اليوم المشهود، انهم لم يروا سوى يده السمراء المزينة بساعة فضية. ظلوا يروون ذلك المشهد الصغير امام حظائرهم ونسائهم وفي الباصات الخشبية حتى منعتهم السلطات بعد الاوامر الصادرة بحذف ذلك اليوم من التاريخ باحداثه ومواليده وامواته وشهوده.

بعد جولة في قلب المدينة، لم يخالط أحد الشك بأن الرئيس ماض إلى المستشفى. في لحظة كان الحشد فيها عجينة سائحة تغلفها طبقة من الزغاريد والموالات، لها آلاف الاذرع، آلاف الرؤوس، تكتسح بجريانها ازقة المدينة وحاراتها وملاعبها، دفق مجنون يتخذ من المستشفى وجهة له ونقطة وصول.

على بعد امتار من السور وقف افراد الحرس الشخصي سدا أمام جنود الحماية، ووقف هؤلاء سداً أمام الشرطة، ثم وقف الاخيرون متراصين بمواجهة الجماهير. فتحت البوابة العريضة وبانت حديقة الثيل الفاصلة بين المدخل وباب المستشفى وقد انتشر فيها فريق من الجند احتلوا الزوايا ووقفوا نسقاً على حافتي الممشى التي ولجها الحشد الرئاسي. هو الآن لا يمكن تمييزه مطلقاً وسط سلة الالبسة الكاكية والملامح المتشابهة. بؤرة وهمية تجر وراءها دوائر بشرية منفعلة غامضة. وكان الشيء الوحيد البارز في فورة السيل البشري اطباء المستشفى الواقفين امام الباب الزجاجي فوق دكة وصلها الزائر بدرجات اربع، وهم يصفقون بانفعال كبير. وبحركة مسرحية غير منتظرة من الجمهور، تقدم احد الاطباء بباقة ورد كبيرة ناولها الرئيس فتلقفها فرد من افراد الحرس، ثم ولج الموكب إلى الداخل.

خيم الصمت على الحشد والمكان وتحولت العيون إلى مجسات للترصد والترقب. تحولت إلى لوامس تخترق الحجب والجدران كي تلتقط ما يدور في الداخل. وفي الفضاء برزت صقور ناشرة الاجنحة غير هيابة من الطائرات. من النهر تبخر وغر ثقيل لزج راح يدرج فوق الطرق وعذوق النخيل ومظلات

الدكاكين وأنشأ اليمام ينشد بآهات حزينة انغام يوم خاسر. اهات ترددت بلا انقطاع حتى ظهور الرئيس.

ظهر على عتبة الباب، وحلت الهنيهة التي لا تنسى في عمر المدينة.

لن تنسى وجهه الخشن ونظراته الملتهبة والتماعة ساعته الفضة ونقلة خطواته الوئيدة المتريثة على الدكة كما لو كانت مرتهنة إلى يد سحرية. ففي تلك اللحظة السرمدية حدثت الكارثة. حدثت بشكل لم يتوقعه أحد. فالطلقات التي انهمرت وروعت الرئيس لم تستغرق أي وقت يذكر. هل انطلقت من الحشد، من نوافذ المستشفى، من الجو، من اجراف النهر، من الحماية، لا أحد يدري. فقد افاق الناس على الضوضاء المروعة ترادفت مع الزخة الأولى من الرصاص، الزخة التي مسحت مثل فرشاة ناعمة مسحوق الثقة بصدره. عندئذ، وبطرفة عين شكل جدار من الاجساد حوله، طرفة عين اشعلت الضوء لكل من يحمل بندقية للاطلاق. المهم ان يطلق المرء رصاصه، وجهة التصويب لم تعد بالامر المهم. على الحشد، نحو الاشجار، على أعمدة الهاتف، إلى الارض، فالطلقات اينما تصوب تبلغ هدفها، تذب الخطر عن جسد الرئيس.

لم يكن ذعراً ما استولى على البشر، كلا، شلل لم يفيقوا من بخاره المخدر إلا حين وجدوا أقدامهم تقودهم لأكثر الاماكن غرابة. وجدوا انفسهم بأزقة معتكرة بظلام المساء، تحت قناطر متآكلة، في زوايا جدران معتمة، معلقين على أسطح لم يعرفوا كيف استدلوا إليها، تحت سيارات حمل تقطر زيتاً أسود على وجوههم المصبوغة بدماء الذعر. وقبل أن تستفيق المدينة من هول الحدث وعند مسائها الذي عانقته البيوت بمقرنصاتها ومزاغلها واسوارها، فوجئت بارتال جيوش غير معقولة لمدينة بهذا الصغر. فوجئوا بها تتوغل بين الازقة وتدخل الدوائر الحكومية وتطوق الطرق. تنفذ إلى مخابىء البيوت، تقيم نقاط تفتيش سريعة باحثة عن اعداء لا مرئيين. وبعجالة غير معهودة قبض على كل مشتبه به وغصت السيارات بمعارضين وفلاحين ورجال دين وطلاب وعمال نظافة

ونساء كن يخرجن إلى الاماكن العامة سافرات الوجوه. وقد ظنت المدينة انها ستساق بنفوسها اجمع إلى العاصمة.

ومع انبثاق النجيمات الاولى في سماء الليل، وبعد وقت قصير من غياب الطائرات المروحية التي التقطت الرئيس، ابرق إلى العاصمة بان العملية رقم واحد قد تمت بنجاح وكل المشتبه بهم في طريقهم إلى السجون. وباتمام العملية رقم واحد قد بدأت العملية رقم اثنين: جُمع من تبقى من السكان وزج بهم في بطون سيارات عسكرية ضخمة صعدوها دون مقاومة. وحين تأكد الجنود من خلو المدينة اشاروا للسيارات بالانطلاق فتحركت برتل جرجر ذيوله صوب الخلاء البعيد، إلى أماكن لم يسمع بها أحد. ثم حطت العملية رقم ثلاثة على المدينة مثل رخمة عملاقة، اعضاؤها اربع كلمات سود فقط، حولوا المدينة إلى مزرعة. كانت الرخمة العملاقة أمر الرئيس الذي لا مرد عنه.

• • •

بين طيات الظلام وتعاريجه البضة غابت النساء والاطفال والرجال. ودعهم الغبار والخفافيش وعيون الجند التي لا تعاير فيها. ودعتهم الشبابيك واسماك النهر واسفلت الشوارع. يمموا صوب فجر سيطلع بلا طعم، بينما كانت في الطريق نفسه، وفي اتجاه معاكس، قافلة من البلدوزرات والشفلات والقلابات والجرافات وثقالات الهدم متجهة إلى قلب المدينة.

بعد وصول الآلات، وما ان فهم السائقون التعليمات بدقة، ابتدأوا باتخاذ مواقع ملائمة للانقضاض على المدينة. السكاكين اشرعت، المطارق علّقت، المثاقب ابرزت مناقيرها والقلابات فتحت اذرعها الحديدية لاستقبال الرفات. وفي تابوت هذا الليل الوخم بدأت الجدران تتهاوى امام السكاكين يبرود، تثير بتمزقها وانهدامها زوبعة من الغبار شرع يدرج بأقدام رخية فوق القبر

وازهار البيوت، ويشكل على مرايا النساء طبقة عفنة الرائحة. دقائق ناعمة تصير عند الفجر تربة للملفوف أو نسغاً لشتلة قطن أو وريداً لفسيلة نخل. انه التراب الذي سيكون مزرعة حين تصعد الشمس من بيتها الرطب.

الاسماك في النهر فجعتها الضجة فراحت تبقبق وسط المياه، وتدور على نفسها راسمة مويجات صغيرة سرعان ما يبتلعها التيار. الدعالج فرت نحو متاهات غير مسكونة تضمها عليقة جافة أو جذر طرفاء، وتبعت الخفافيش التي اعشتها شدة الاضاءة ذبذباتها مفتشة عن اركان اكثر عزلة. فرار جماعي لعالم حيواني دهمته غزوة بني البشر بأشد انفعالاتهم قسوة.

بقسوة كانت الآلات تبقر احشاء المدينة، تبعثر حديدها وخشبها وطابوقها وبصمات قاطنيها العالقات بسقوف الغرف ومقاعد الحدائق وطاولات الانتظار. كتل الخرسانة تتمزق بانقصاف مريع مرسلة شرراً ينطفي حالما يمسه الليل. ابواب البيوت تتخلع بأنين وتنشطر إلى جذاذات وعيدان ورقائق. وتحت ثقل الجنازير تتفتت الصخور متحولة إلى معادن وأتربة ونثار من تكلسات عتيقة المنشأ تشف عن اصول مرجانية وغرانيتية وكاربونية. وبحركة بهلوانية يجتمع الخليط ليلقى في اجواف قلابات عملاقة تأخذه إلى مشارف الصحراء بعجل.

نعم، أمر سهل تحويلها إلى مزرعة. فهي الآن جثة تخترمها الوحوش من جميع الجهات. من النهر والسوق الشعبي، من جهة القرى والشارع العام، من فوق ومن تحت، فكل الجهات منابع خطر دائم. لا تبقوا حجراً على حجر، حولوها إلى خرائب يسكنها البوم، فالمدينة التي تتطاول علي لن ترى فجراً آخر من حياتها. ازيلها من الخرائط كما ازيل قلامة اظفري، امحق اسمها من سجلات الوطن، اشعل هواءها بجبروتي واحرق هدوءها بنفثات غضبي. وهكذا كان.

ففيما كانت الوحوش تنهش الضحية وتجترها، كان ثمة أوامر اخرى لا

تقل ضراوة توجه إلى دوائر خفية تطالبها بشطب سجلات المواليد وتغيير عناوين السكان وحذف اسم تلك البقعة المشؤومة من كل الخرائط. فليس لنا حاجة لمدينة مثل هذه. لسنا بحاجة لمدينة تتطاول علي.

ومع مضي الليل إلى تخومه الارجوان خلف البساتين، ومع دوران النجوم في هباء كون أجرد، كانت المدينة تتناقص جزءاً فجزءاً، تنقضم حارة بعد حارة. غابت دكانة مصلح الدراجات والمطاعم الثلاثة وتشوّهت مبنى الشرطة السرية وما فتئت ثلاثة دور من دور المواطنين تقاوم بارادة مهزومة هجمات بلدوزر لا ينفك يغوص في الاحشاء. أما البيتان اللذان اوشكا أن يكونا محط انظار ملايين المشاهدين، فقد تبخرا مع كل الابهة المستجلبة والروائح المستخلصة من النرجس والقرنفل. المدينة تتسطح داراً فداراً، وتشيع في تسطحها روائح نفاذة ثقيلة، وكلما تقدم الهدم والتسطيح تسري الاخبار طائرة بأجنحة من الذبذبات إلى مكتب الرئيس: ازيلت خمسة ابنية، مسحت ثلاثة شوارع، حطمت روضة الاطفال، احرقت كتب المكتبة، مهدت حديقة البلدية بازهارها وثيلها وياسمينها، وتردّ عليها أوامر صارمة لا تقبل التأويل: لن يطلع عليها فجر آخر، فتؤكد الافواه الواثقة من جبروت آلاتها: لم يتبق من عمرها إلا سويعات.

سويعات فاصلة عن الفجر القادم من الشرق، سويعات ويجثم يوم جديد خشن على أرض لن تسمع بعدها نداءات باعة الخبز والمكارية وقهقهات الاعراب. سويعات كان الغبار فيها يتسلل تحت جنح الظلام ليحط على اوراق ليمون بعيد وسعف نخيل وتويجات لفت تنتظر غزو نحل بري.

هلّ الصباح على الأرض وعمّ السكون بعد أن اطفأت الآلات محركاتها، ومن الافق نهضت شمس مذهبة تحف بها اصابع الهواء غير المنظورة. شمس تضاحك اشعتها ديدان التراب والدعالج المختبئة في جوف عليقة، لم تلبث أن عانقتها صقور ونوارس زاعقة تجمعت فوق تربة غضة بكر. كانت تحط بين

فينة وأخرى على ديدان رخوة وصراصير وحشرات كسولة اخرجتها المكائن من الظلمات إلى النور. تحط غير هيابة من العمال المتوسدين حديد آلاتهم، فالنوم عميق والجهد بالغ والاحلام طائشة.

كان العمال النائمون يسمعون من فج عميق وآفاق لا محسوسة اصواتاً غير مفهومة مختلطة الايقاعات: صياح ديوك ونداءات باعة ولغط نساء ودمدمة مكارين وابواق سيارات زاعقة. اصواتاً تطلقها ارض رخوة مرقشة بديدان اعماق عمياء، ايقنوا من بين هفهفة احلامهم ونعاسهم إن ذلك كله لا يعدو أن يكون شبح المدينة التي اختفت. شبحها الذي لا يود مفارقة المكان.

دقات ساعة الجامع

هدوء غريب يخيم على القرية، هواء ثقيل وسعف مسترخ، يتهدل يوشك ملامسة الارض، شعر امرأة عجوز أو أغصان صفصافة ذابلة، الطيور: صقور التين، سنونوات المساء، نوارس المستنقعات، عرائس الشوك ذات الاعناق الملونة اغلقت حناجرها فلا شدو يُسمع، لا نقرات، فالحياة ماضية إلى سباتها ببطء، إلى المخبأ الوردي خلف الافق، الذي تتعلق فيه عيوننا، نحن التائقين إلى عتمة الدخان وهو يصّاعد، إلى الهدوء المريب المخيم علينا، في الحديقة والقرية والمكان.

سماء، اختي، واقفة جنب شجرة تفاح فخمة، وتحت الاماليد والورق المضفور كأنه تاج واقف انا، وفي الاعالي سماوات صافية، كم هاجس يجتذب صفاؤها، وكم زفرات قروية تنتظر، نرقب دخان التنانير بانسيابه محملاً بالخبز والشواء وحريق الاصابع الخشنة، نعبث بالسيسيان كما لو كان شعر اطفال رضع، ونتبادل الهموم، هي تحكي عن الدراسة التي ستبدأ: أوراق، احبار، اناشيد، كتابات تنقل عن حكايات البقرة والضفدعة والمركب التائه: تائهاً بين الاجازات القصيرة والمتاريس والجثث وهي تتعفن في برادات، واسوار المعسكرات تنغلق على القادمين الجدد، اتعابي كجندي روعته التوابيت وقطرات الدم تنبجس من ساق مصابة بشظية أو طلقة هدّاف، وسماء قريتنا

مثقلة بالهواجس والترقب، تشدنا اليها بين حين وآخر، كما لو كنا كرتين صغيرتين من زجاج أو هلالين لمئذنة يتيمة تتخاصم مع النخيل كل يوم. تشدنا إليها بزعقات اسرابها المهاجرة من افق الغروب إلى مساء الشروق، هناك في البعد الذي لا تدركه أختي. متّع البصر، قلت لنفسي، بما يتمظهر في الجوار: القرويات باثوابهن واقراطهن وملافعهن، السيارات المارة الحاملة ركابها، مع كل ما بجعبهم من حلوى واقمشة وشاي وصابون، الرجال يتلملمون بعد الوضوء للتوجه إلى الجامع، السكون الخلاب وقد صار لي مطلباً بعد فورانات القصف والدوي، وسماء الملفوفة بحرير البراءة والهذر اللذيذ وعاج الانشغالات المدرسية، فلا أعرف ما سيجري بعد رجوعي إلى الجبهة. لا أريد أن أعرف، لأن ذلك يبذر الحزن في تربة كل ما أراه. ألا تؤرقني فكرة الموت، ألا اقف امامها ثلجاً، محترقاً بأسفي، مهدوداً. لا أطيق النوم في قبر، تحيطني بنات آوى وجعلان البر وافاعي الرمال، لا أملك ان افارق حديقتنا وعاداتي الاليفة وتعابير ابي الصارمة التي تزداد صرامة وهو يحدق في الشاشة الصغيرة ومعاركها. لا أرغب ان اجز سنوات عمري العشرين، فهناك، في بحر الايام القادمة، ثمار من ذهب وخمور مشعشعات ولذات. ليس في القضية أية حكمة تذكر.

جلست سماء وسط ساقية ضيقة، تمسد اعشابها الرطبة والاصابع نحيلة والاظافر مطلية بالاحمر والشعر ملوث بالقش، هل رئي شعر ملوث بالقش ذات يوم، ألا تشبه بجلستها الرزينة شتلة ورد، قبضة أحلام، وسماء لا تشغلها مشاغلي، عالمها عشب وخبز واشرطة من شعر، إلا أنها تفاجئني مثل كل مرة: لقد وضعوا ساعة دقاقة في الجامع، ذات رنين عجيب اسمع مثله أول مرة. تحكي وكأن عمرها اجيال، هذه الصغيرة، تحكي لي عن الساعة فلا أملك إلا أن انظم افكاري واهيىء باصريّ، فالجامع يقوم هناك، على ضفة السدة، والسدة طريق مسفلت يزينه العاقول ويحميه الشوك، غرفه واسعة عالية، بنيناه بتبرعاتنا بعد أن قامت الحرب باشهر اكتمل بناؤه، زخرفناه بالالوان وفرشناه

بالموكيت الرخيص، ثم اشترنا له منبراً خشبياً، كلما غاب خطيبه في جمعة ما، نهض خالي إلى المنبر دون ورقة ليلقي خطبة من بنات افكاره، لا أحد يستطيع ربط اوصالها إلى بعضها، إلا أن الوجوه تكتسي بالراحة بعد نزوله إذ لم يبق المنبر فارغاً على أي حال.

هلالان يزينان المئذنة الخشب التي تختصم مع النخيل المجاور على الارتفاع والفخامة، يتلاصفان كالابريز كلما مالت شمس الغروب، يقول عنهما ابي انهما دلالتا الرحمة والامان كلما تبعثرت التصافاتهما على وجوه المصلين والبقر والنساء الموردات الخدود. هلالان يحاكيان بحمرتهما شعر سماء، لكنني لا ألمح قشاً، على المفرق، لكن لا يهم ما دام ثمة عصف في الجوار، ما دامت الريح تحمل القش إلى أذرع الفضاء، لا يهم.

كم الساعة الآن، عاجلتني بالسؤال، حتى قبل ان افتح فمي مستفسراً عن سر تلك الساعة العجيبة التي لا مثيل لرنينها، الساعة التي تتعملق لتفترش خيال اختي، تبقيني في لزوجة الحاضر: الجامع، شمسنا الغاربة، عمق الفضاء، أنحيلة الجذوع تحركها العتمة وتهزهزها اجنحة الطيور. انها السابعة إلا خمس دقائق يا صديقتي، وفي الوقت متسع، طالما ظلت قبضة الهواء في الصدر. ستدق بعد قليل، ستدق سبع دقات، قالت. دقات أشبه بالموسيقى وما هي بموسيقى، كأنها بلبل حي كالذي يحط على فرع التين عند نافذتنا الجنوبية. وما كان لي إلا الصمت، صمتنا بانتظار الرنين المذهب، رنين الدهشة يصدر عن الجامع، والفيت فمها يفتر عن ابتسامة انتصار، أحرزته على جهلي، على جيوش نسياني وبعدي عن مستجدات القرية. الا يحدث فيها كل ما لا يصدق ولا يخطر على البال، ألا تلد الجارة ابنها وتسميه، الا تثمر شجرة التوت توتها الاحمر، ألا تشق الشرنقة حريرها وتخرج فراشة إلى الضوء، ألم يشتر ابي معطفاً جديداً للشتاء، يجري كل ذلك وانا في موضعي اترصد العدو. يا لي من جاهل.

الرنين لم ينطلق، لم يدو، ومن خلف بيتنا برز أبي واخوالي يسيرون جماعة في الدرب الضيق لأداء صلاة المغرب. وكنا ننتظر، وكان الهواء مريباً، وكانت الاضواء شاحبة. كنا في دوامة ذلك الهدوء العكر، حيث يمشي المرء على شعرة متوترة أو يتأرجح فوق هاوية.

في دوامة الهدوء وصل التابوت إلى القرية، مرزوماً على سيارة صغيرة وقفت على المنحدر المحاذي للجامع.

مزمار موت، يعوي مثل كلب جائع، نواح فج يشد الانتباه، عالياً يشده ويتركه وحيداً، حيث نزل جندي ووقف دون عجلة على المنحدر. كان ينتظر ابي واخوالي، هم مقصده، فبدأوا يركضون. أجل يركضون نحو الموت المعلق على سقف سيارة صغيرة ولا يمد طرفه، فالمواربة من بدعه، لا سيما وهو يتخفى وراء الخشب. نسيت: الحديقة، وجه اختي، شجرة التفاح، طراوة الحياة في العشب تداعبه يد ناعمة وقش في مفرق الرأس، وكل ذلك الحاضر الذي كان قبل لحظات موضع احتفائي وبركتي. وجهي الموت وعيناي صوب التابوت، والتابوت يقف قربه جندي بارد الوجه اشاع فينا الهواجس عن اسم القتيل، وإلى أي بيت ينتمي: من هو يا ترى، أنا، خالد الخلف، علي بن امونة، ابن خالتي عباس، جارنا فيصل بن سعيد. من هو، حمامة بيتنا، اقلام الرصاص في حقيبة سماء المعدة لفصل جديد، جدجد النخلة العاقر، تعابير امونة وهي تمسد ضرع بقرتها تحت دالية العنب. دقات الساعة لم احفل بها، قرعها موت، امواجها هذيانات بشرية، موسيقاها اذرع مسائية تلتف باخطبوطية مبالغ بها على البيوت والتنانير والاماسي ولحف العرس كأنها وشم لا يزول، انما تركز اثره الايام وتطيل من خطوطه الاحداث. لم اكن الراكض الوحيد، لمحت البشر المذعورين قادمين من جميع الجهات وكان ابي ملطخاً بالحزن والفجيعة، يصفق اسفاً، ولا بد انهم عرفوا. فخفت السؤال. سيجرني إلى قبو مظلم لا استطيع الخروج منه، لكن ما باليد حيلة، تصاعد الهمس واللغط من الجميع:

انه انا، انا القتيل والتابوت في بحر السكون. أنا فيصل بن سعيد، وهاهو التابوت أمامي، تأملته بروية، بخشوع، فثمة ترقد الاحلام والعاب الطفولة والخرز الملون وآلات الصيد والالفباءات الأولى والمقاليع ووقع عصي المعلم على راحة اليد ووخز البرد الهاب من الصحراء ومطاعم الكباب وشوارع المدن والسواتر الترابية الموشومة برعب النهاية ووجوه الاعداء وورق الجرائد وعبارات المديح ووشوشة المذياع والنيات السيئة وشقوق الباب المفتوحة للتلصص وركلات الاب وعناقيد العنب. تحت المسامير البيض أنا، وتحت الكفن الابيض انا، الوجه الاسمر والقوام الطويل وكانت الام منتصبة امام بيتها تراقب ما يجري. لقد سال الحليب توا على ساعديها البضين، وملابسها تعط بشواط اللبن المحترق. جندي وقبضة فلاحين ومئذنة من خشب، وسعفات متهدلة ويمامة تهدل، ثم انزل التابوت المزنر بالعلم الوطني، وضعه على الاكتاف اربعة رجال اشداء حضروا للصلاة ولم يصلوا. الأول متزوج والثاني عانس لا يجد المهر والثالث صديق ابي والرابع كنت اراه مشمراً دشداشته رافعاً الصخور الغلاظ بعزيمة من حديد وعضلات مفتولة ايام بناء الجامع. وضعوه على رمانات الاكتاف وساروا نحو بيت سعيد. وأبي، الذي هو أشجع الموجودين، تم انتدابه لكي يمضي إلى حقل البرسيم قرب النهر ليخبر سعيداً بما جرى، لسانه لن يتلعثم، قلبه لن يصطفق، وليس عداه من يغامر بانجاز المهمة: تخبر والدا عن مقتل ابنه. وفي نفس اللحظة تعالى صوت شاب كان يسير في المؤخرة معولاً: مات ابنك يا سعيد. ادركت الام كل شيء، رأيت في عينيها ومضة ضوء لا تنتمي إلى هذه الأرض، تشبه تلك الالتماعات الصادرة عن انفجار قنبلة. رأيت سكاكين تقطع اوصالها، ورأيت سموم اليأس تفتت البشرة منها، كل ذلك جرى ببرهة خاطفة، وكنت انا القتيل، وكانت عيناها تضيقان ثم تتسعان، ترمشان وتندفع نظراتهما إلى الحشد مياها فيضانية ولا جسور. صارت الاشياء المدركة من الشحوب بحيث امحت الفوارق فيما بينها: ما عاد ثمة حدود بين الوجوه البشرية المحيطة وخشب التابوت، اشجار الصفصاف

ووجهي، السماء والدخان، دقات الساعة والصمت المطبق الملوث بالضفادع والدود وصرارات الليل واشنات السواقي المتعفنة. لبثت تحشرج، تردد صوتاً ذا نغمة واحدة رتيبة متواصلة ينبعث كأنه من كتلة لا بشرية، ردوا لي فيصل، ردوه لي، لماذا مات، لماذا... ومنذ ذلك اليوم عرفنا ماذا تعني كلمة حرب، عرفناها ورحنا نتذكرها كلما رأينا الأم مجللة بالسواد تقضي مساءاتها تحت شجر الصفصاف، منتظرة عودة فيصل من الجبهة. ولم يدهش أي شخص من قصة عينيها اللتين راحتا تصغران شهراً بعد شهر، ولقد خيم شبح الموت على البيوت والاشجار والسواقي وشعر الصبايا واعراف الديوك وحافات التنانير وخيوط الافق، شرقيها وغربيها، جنوبها وشمالها. رأيناه في الغيوم، ذكرتنا به الطيور المهاجرة، ولازم اختي سماء في منامها آخذاً شكل كوابيس، ورؤى مرعبة عن جن مخرومين بالمسامير وأبالسة مزنرة بالعلم الوطني وافاعي محمولة على اكتاف رجال اشداء، وكفت منذ ذلك المساء، عن ترقب دقات ساعة الجامع.

توابيت تحت جنح الظلام

مدد يا شفيع الارواح الحائرة، ياشافي الصدور من غل السل. مدد يا مطلق الازواج في ليلة عرسهم وما حق الرمد من عيون الاطفال. مدد يا شفيع البيوت القلقة على الابناء الغائبين خلف المتاريس. مدد ايها الشيخ المعتصم بمراثيه المتجبر بقبته اللازورد المتبرج بهلاله الذي يغازل شمس المغيب، يا حامي المصّح الرابض تحت قدميه ككلب ابيض خائف. آلاف الحناجر تطلب المدد، خلل نوافذ السيارات المارة في الشارع المجاور ومن ساحة المصح المشبعة بدوامات غبار ربيعي، والكل يروم مدداً سيأتي ذات يوم من قبر الشيخ المقدس الراقد على سفح الجبل.

كان مرقد الشيخ مبارك مطلاً على بناية المصح المكونة من طابق واحد جدرانها بيض يحيطها سور واطيء، وتقوم وسط بقعة سبخة ندرت اشجارها المثمرة ولا يبين فيها إلا اجمات بردي واشجار خروع وغرب وأثل.

في الغروب هذا، غروب الشمس على أرض الملح، بدأ الهلال المثبت على القبة الزرقاء لامعاً متوهجاً بنور أحمر، يرى لمعانه الوسنان نزيلان من نزلاء المصح يسيران داخل السور. كانا يمشيان على مهل عبر المسافة الممتدة بين باب المصح والسور الخفيض، ويلفان جسديهما ببطانيتين سميكتين اتقاء لنسمات ربيع بارد تبين علاماته في الجوار. ربيع يبرز مفاتنه في الاعشاب الخضراء تدفع

عنها دقائق التربة بخفر، في ليونة الهواء، في طراوة مساء متأخر الهبوط.

قال الأول لرفيقه وهو يحدق بالهلال الوسنان وعلامات الربيع والسيارات المارقة على الاسفلت:

- بالامس رأيت اثنين فقط.
- هل أنت متأكد؟ خيل لي أن العدد أكثر.
- كلا، الا إذا جلبوهم خلال الليل.

كان لكليهما جسدان ناحلان وبشرة صفراء تسربت عافيتها مع قطرات الدم واحتراق الخلايا بالسعال الجاف واليأس المتراكم على مدار سنوات العزلة. للأول عين واحدة زرقاء صافية، شفت عن تهدم داخلي عميق، اما الاخرى فقد زالت من الوجه مبقية مكانها كهفاً مخسوفاً معتماً. ولا يفرق الثاني بشحوبه وبروز عظامه عن الأول إلا بأنفه الناتيء المتحدّر على فمه كشلال.

وفي ساعة الغروب هذه كانت بوابة المصح مغلقة، يتخطيانها بأبصارهما لتقع على ارض شاسعة تنتهي بمصرف مياه تشابكت على ضفتيه نباتات الشوك والعاقول، يأتي بعده شارع الاسفلت الذي يتعرج مخترقاً المزرعة ليضيع بعدها في احياء المدينة. ورغم الهدوء والعزلة المستولية عليهما فهما يتلمسان باستشعارات سرية ظلال اشخاص خلف النوافذ تتجول وسط غرف مشبعة بالنفتالين والمطهرات، ويستقبلان الغروب بمصائر غير معروفة.

- هل تعتقد أن النحل سيغزونا هذا الصيف مثل العام الماضي؟
- العام الماضي؟ ألا تذكر انني لم اكن هنا.
- آه صحيح. نسيت انك جئتنا نهاية الصيف. أجل، كان النحل قد غادرنا راجعاً إلى المزرعة. في تلك السنة كان مرورهم نادراً.

غرب المصح تمتد المزرعة حتى الافق ويرتفع من تيجان اشجارها ضباب خفيف مختلط بغبار السيارات. غرباً تنهض اشجار تفاح مثقلة العناقيد، وأغصان ليمون مشعشعة بازهارها البيض، وإلى هناك كان ذو الانف الطويل

يشير إلى المكان الذي قدم منه النحل في الصيف الماضي.

ـ اعدادية الزراعة هي مالك المزرعة، وهم يربّون النحل للاختبار اضافة إلى بيع عسله. إنه مردود لا بأس به.

ـ ينبغي أن نخبر الادارة لتضع حاجزاً من الاسلاك على الشبابيك. لا اتصور العيش بمكان يعج بالنحل.

ـ الادارة؟! هل تمزح؟ لم تعد تهمها مثل هذه الامور الصغيرة. كما انها تعاني من نقص في العاملين. قبل اسبوع سحبوا الطبيب المساعد في قسمنا إلى الجبهة. يقولون انهم هناك اكثر حاجة له من المصح.

لم تكن العيون حاضرة حين غاب الوهج من هلال القبة، منشدة هي إلى خلايا النحل ومداخن المدينة والافق العكر المبقع بالسحب. وهنيهة بعد تلاشي الضوء هبت نسمة خفيفة من المزرعة معطرة برائحة العشب والتويجات الساقطة، فسارعا إلى احكام البطانيتين على جسديهما.

ـ اتظن انهم يجلبونهم ليلاً؟

ـ ولم لا. قيل انهم يعمدون إلى ذلك إذا كانت الخسائر فادحة.

انهى الرجل الكهفي العين جملته واستسلم لنوبة سعال حادة، ولم يكن امامه إلا الركون إلى الارض. إنه داخل في دهاليز السعال معتصر بمخالبه الجارحة الممزقة لصدره. كان الآخر ينحني عليه ويحاول احكام النسيج حوله. بينما عام انتباهه في الجبل. هي المرة الاولى التي يلاحظ فيها قساوة عريه، فلا اشجار ولا خضرة ولا بيوت. قبور تحيط بالمرقد وليل داج عديم النجوم؟ ليل تضيع فيه القداسات ويهدر نهر الموت بين الصخور والبيوت والطرق. كيف لم تنتبه الدولة لأمر كهذا، فهم يرون الموت امامهم كلما فتحوا النوافذ. هجس ان صاحبه المكوم على الممر لن يشاهد غزو النحل. كان يوماً ممتعاً، فقد غزاهم صباحاً، فاجأهم داخل الغرف بأسراب لا تحصى كما لو أن المصح زهرة تفاح ضخمة جذبته إلى رحيقها. فما كان منهم إلا أن امسكوا المناشف وطاردوه

من غرفة إلى غرفة ومن رواق إلى آخر. احكموا طوقهم على النوافذ والاغطية والجدران وكلما حرروا غرفة اغلقوا منافذها، واستمر الحال حتى الظهيرة. شاهدوه متجهاً إلى المزرعة بأسرابه العابثة ويتذكر الآن كيف رقدوا باكراً تلك الليلة للجهد البليغ الذي صرفوه. على أية حال، سيكون بمنتهى الاثارة ان يغزوهم ثانية ليشاهده رفيقه على الاقل. لقد استرد قواه وسكنت انفاسه ونهض عن ارض الممر ثم همس بصوت راعش:

ـ برد الجو فلندخل المصح.

• • •

اودى بهما الباب الزجاجي إلى فسحة مربعة دافئة تنفتح على الصالة. في الصالة وضعت ارائك من الخشب غطيت مقاعدها بدثار اصفر من النايلون ويحتل مؤخرتها طاولة للاستعلامات عريضة. اتفقا على الجلوس دقائق وقال احدهما أنه لا يطيق العودة إلى الغرفة فبها يحس روحه سجينة، وهي تريه شريط حياته الماضية فيهجس انه عاش اطول مما ينبغي. يسترجع الساعات المنصرمة من حياته منذ الطفولة حتى فترة المرض. قال انه يفضل الجلوس إلى التلفزيون برهة، وكان موضوعاً على منضدة جوار الباب، وهو مضاء يبعث صوتاً خافتاً وصورة شاحبة.

ـ علينا تشديد المراقبة، ففي الايام القادمة سيجلبون المزيد منها.

ـ ما الذي حملك على الظن هذا؟

ـ ثمة هجوم واسع في الجبهة الجنوبية.

ـ إذا جلبوهم ليلاً سيضيع علينا الحساب.

اقتربت خطوات في الممر وتوقعا بزوغ نزيل ثالث من العتمة المستولية عليه. كلا، إنه رجل الاستعلامات أومأ إليهما محيياً تحية المساء. راقباه وهو يختفي وراء الطاولة، حيث حمل دفتراً سميكاً وعاد إلى الممر. لفت انتباههما ضخامة جسده وبقعتا العرق تحت ابطيه.

ـ انظر المعركة يبثونها حية على الشاشة. ألم اقل لك ان العدد سيزداد.

مواسير طويلة تقذف الحمم من فوهات معلقة في غبار كثيف. جنود ملتحون ملابسهم ملطخة بالوحل وعروق السعد. دبابات راكضة نحو افق من نار يذوب في جبهة الاعداء. لهب يطغى على الشاشة، يضيء العين الزرقاء المأخوذة بسيلان الموت. رجال صرعى تشابكت منهم الرؤوس بالاذرع بالاطراف يتبعثرون على منحدرات ترابية وحفر وخنادق. أي حياة لا يقدرون ثمنها يفكر الرجل الكهفي العين. كان يمكن ان يكون جثة من بين تلك الجثث مشوهة التقاسيم لولا انه عاش في ذلك البيت الرطب المطلي بعصيات السل، المغلق على نفسه كمرقد الشيخ مبارك.

قال الرجل ذو الانف الطويل:

ـ نعست واشعر بحاجة للنوم.

ـ وأنا كذلك. يجب النهوض باكراً. غداً علينا المراقبة بدقة واتمنى ان لا يجلبونهم ليلاً.

من ذروة الجبل المتوارية في الظلام، يبدو المصح للرائي نقاطاً ضوئية متفرقة طافية على سجادة سوداء، يبدو نائياً غامضاً يتصاعد من غرفة نشيج خافت له نغمة الابتهالات والادعية. نشيج حناجر اطبقت عليها الجدران وايسها السل: مدد يا شفيع الارواح الحائرة. مدد يا شافي الصدور من غلها. مدد ايها الشيخ المعتصم بمراثيه المتجبر بقبته اللازورد المتبرج بهلاله الابريز.

وفي الشارع القريب، كانت ثمة سيارات مرية تحمل توابيت من خشب ابيض تمرق نحو المدينة بلا انقطاع.

الطائرات

يتشبثون بسعف النخلة مثل جراء ضامرة، أجسادهم محشورة بين الخوص والسل عارية مدبوغة بالملح والسمرة، يتحركون ببطء خوف النهايات المدببة للسعف وشراميخ العذوق المشرشبة كشعر امرأة. النخلة على الضفة والضفة تحيط بالنهر مانعة اياه من الهروب نحو الغيطان والقرى. كانوا يطوفون على ثمارها الناضجة بأياد نحيلة ملوثة برمال الشاطىء وشعيرات الحلفاء وجذاذات سيقان النبات. يلفهم كلهم، النخلة والنهر والصبيان هواء راكد ليس له اثر على الموجودات، وبين الحين والحين كانوا ينشّون زنبوراً عن وجوههم فيضربه واحد ببطن كفه ويبعده آخر بايماءه من اصابعه يطير الزنبور فوق ذؤابات السعف، يلف حول النخلة مرات عديدة قبل ان يغور في الهواء الراكد متوجهاً إلى النهر، محلقاً فوق المياه الآتية من اماكن بعيدة المسافرة إلى مجاهل لم يروها. هروبه نحو الضفة الثانية يثير فيهم الفرح فيقول واحد منهم وكان يتابع الزنبور الذي غاب في الافق: كورته في الضفة الاخرى على الاغلب.

المياه في النهر تجري متريثة حاملة معها الطمي والاسماك والضفادع وعيدان الاجراف وجثث حيوانات طافية يملأ مرورها احاسيسهم بفضول هائل: ذلك كلب ميت. كلا، بقرة: بل هي جذع شجرة غرب. وحين يكثر بينهم الجدل ينصرفون عن قطف التمر لحظات قصيرة ثم ينسون بعدها كل

شيء ما ان يختفي الجسم مندفعاً مع التيار بعيداً عن البصر.

في فاصلة من فواصل ذلك اللغط يفاجأ صبي منهم رفاقه قائلاً، سأبول واعود حالاً فاتركوا لي قليلاً من الرطب، ثم ينزلق إلى الارض عبر سعفة طويلة تنحني تحت ثقل جسده. ينط إلى الرمال الناعمة الحارة ويركض إلى الارض المعشوشبة وينزل سرواله الداخلي المثقل بالطين. تظهر لرفاقه مؤخرته اللاصقة المكورة فيضجون بالضحك، ويقول احدهم وهو يخفي رأسه بين عذقين كبيرين، يا لها من مؤخرة سوداء، مما يثير غضب الصبي ويدفعه إلى إدارة عضوه له ليرشه بنافورة من السائل الأصفر، قطراتها تبل اوراق السعد وديدان الرمل وحبيبات الخشب. الذرات الصغيرة تحت رجليه ترتشف المياه وتتبقع باللون الاسود وتنفخ الفضاء برغوة بيضاء طيارة تتصاعد إلى الهواء على هيئة رذاذ رطب. وبتساقط آخر القطرات يرتعش الجسد بلذة الافراغ وتتناوشه سيوف الشمس وينحدر إلى الضفة الملساء التي تبقت فيها بريكات نسيها النهر. اقعى على الضفة وسوّى مسطحاً رملياً امامه وأخذ يخط باصابعه تفاصيل بيت عرّش في خياله ابانت الخطوط منه غرفتين ضيقتين للنوم وغرفة اوسع للضيوف يجاورها مطبخ صغير ومخزن. احاط بيته بسور دائري وبدأ يغرف الرمال السائلة بحفنات يقطّرها على الخطوط، متجاهلاً كركرات رفاقه واصابعهم المشيرة إلى الضفة الاخرى، حيث قطيع من الاغنام او جسم طائف في النهر. لم ينشغل بمنظر الاغنام وهي تمد ابوازها الى المياه، وغض البصر عن هدايا النهر التي لا تنقطع. كان منكباً على بيته، يرفعه بالرمل ويقوّمه بالاصابع، يزيح الاجزاء المعوّجة ويثبّت الاسس. وكانت الديدان الحمراء تسيح مع الرمال لتفاجئه بخروجها السريع من الاسس والحيطان وفتحات النوافذ غير المكتملة.

وصل البناء إلى النوافذ فقام يبحث عن عيدان صغيرة يعقد بها الفتحات. صاح احد الصبية متسائلاً، هل الماء بارد؟ كلا، اجابه ومشى إلى الجرف

القريب ووجد نبتة حلفاء تآكلت جذورها فاقتطع جذراً يابساً وكسره إلى اجزاء صغيرة ثم عاد إلى البيت. وضع العيدان على الفتحات وراكم الكتل الرملية مجدداً وأوشك البناء على الاكتمال مكتسباً شكلاً مألوفاً غيبه عن النهر والشمس الوهاجة ورفاقه الذين نزلوا سائرين نحوه. هنا نضع السرير، وهناك خزانة الملابس، وفي تلك الزاوية مرآة عريضة طويلة للعروس كي تشاهد فيها زينتها، طلاء وجهها واستدارة خديها وتسريحة شعرها وحواجبها المزججة. على النوافذ ننشر ستائر من حرير مزخرفة بالورد والاوراق، ونصبغ الابواب بالاحمر. واختتموا اقتراحاتهم بزرع الليمون والتين والسرو في الفناء وذلك كي يكثر الظل وترتاح عليها الطيور.

البيت جاهز الآن للسكن، قالوا، فلنرطب جلودنا. قذفوا انفسهم في المياه، ليونتها تدغدغ جلودهم وتزيل عنها سطوة الشمس وغبار الليف وبقايا اجنحة البرغش، تجرجر بكثافتها البستهم الداخلية فتنسلخ الى الاسفل كاشفة اعضاءهم لعيون السمك ومجسات السراطين ودبق الغرين.

تحت السطح الاملس المرتعش، تتحرك اسماك صغيرة لم تكتمل قشورها، تتحرك بين الطيّات الكثيفة وتحدق إلى الاعمدة اللحمية الراجة لعالم الماء بعيون مدورة لامعة. تتجه نحوها وتحوم حولها، تقترب وتصطدم بها، تلامس الشعيرات الزغبية وتتحسس طراوة اللحم فترتد مذعورة نحو الاماكن الضحلة. وفي مخبأ غير منظور يعبث سلطعون باعضائه ويحاول الاحتماء خلل حجيرته العظمية. عالم سفلي معزول لا يدرك شيئاً عن العصافير والاطفال والاجسام الطائرة، عالم مكتنز بقواقعه واصدافه لا يهدد توازنه سوى **أطفال رملين غريبي** الاطوار، محكومين بفضول زائد عن الحد لاكتشاف عالمهم الضيق. انه يجذبهم اليه فيغوصون فيه لحظات قصيرة يتناوشهم بعدها الرعب بمجساته فينبغون الى الاعلى مستعجلين الطفو والخروج من عتمة الوجود النهري.

لا تبعدوا أكثر، يصيح احدهم محذراً ويعود إلى الشاطىء. يلحقه

الاخرون مثل شبابيط متلاصقة، ويجمعهم الشاطىء على رماله وقواقعه، ثم يركدون كالجراء الميتة.

الانفاس تتلاحق، زفير وشهيق، ضيق وانبساط، والعيون تتملى السماء التي لا غور لها بزرقتها الناصعة الخالية من شوائب الارض. هناك تسكن الملائكة وترتفع الجنان، هناك يعيش الاجداد الذين توفوا منذ ازمان سحيقة. وإلى هناك تتصاعد الادعية والتأوهات، الحسنات والسيئات، وفي يوم ما سيطيرون نحو ذلك الكون النائي بأجنحة من دخان وعيون زمردية ووجوه مؤتلقة كالدر.

وفي غمرة ذلك الانخطاف الطفولي مرقت الطائرات. رعد ارسلته السماء، وابل من دمار نفثه عليهم الكون اصابهم بالذعر. راحت رؤوسهم ترتطم ببعضها، وتقوضت احلامهم وتأملاتهم وتزلزل كونهم الضيق السابحين فيه. هربت الاسماك إلى قاع النهر وارتعشت سعفات النخلة وتهاوى رطبها على الارض. دخلت الهوام والدواب مهودها الطينية وقد روعتها قرقعة ذلك السرب الحديدي الذي غار في الافق.

كادت الطائرات بحضورها الفظ ان تمحقهم محقاً، تحولهم إلى تراب ناعم او اشنات يأكلها السمك. لِمَ هم عنيفون خشنون لهذه الدرجة؟ كانوا يفكرون مهطعي الرؤوس يلاحقون بنظراتهم الطائرات وهي تترجرج كلقالق عملاقة. دخانها الغليظ يفترش النهر ويهوي على اغصان الطرفاء فظنوها وحوشاً طلعت من العالم السفلي الذي يخيفهم باسراره وعجائبه. تجمعوا اكثر على بعضهم والتفت الساق بالساق وتشابكت الايدي وتحولوا إلى كتلة لحمية تتابع بألم دوران تلك الآلات الطائرة. هاهي تكبر كلما تقدمت اليهم. جوارح زجاجية الالتماع ستلتقطهم فرداً فرداً، تأكلهم بانيابها الحادة. اين يحتمون وليس امامهم سوى النهر، وليس حولهم إلا الحقول المكشوفة لعين الوحش؟

قبل ان تكمل الطائرات رحلتها فوق الرؤوس، نهض صبي البيت على عجل وانزل سرواله ووجه عضوه الصغير غاضباً نحو الطائرات. رشها بلسان

مائي تصاعد في الفضاء برهة ثم هوى على الرمال، فتشربته الجزيئات اللاصقة وقشور السمك وبقايا السلطعونات الميتة. حدق به رفاقه مندهشين ولم يسخروا من مؤخرته السوداء. رأوا في عضوه الصغير امارة شجاعة لا تنكر. نظروا إلى بعضهم وهبوا هبة واحدة إلى ملابسهم المكومة تحت النخلة، وباختفاء الطائرات وعودة الركود ثانية إلى الهواء، تشتت الصبية في الحقول وساد على الأرض السكون.

على الشاطىء، كان ثمة اسماك صغيرة لاطية قرب الاجراف تتصيد الاشنات والديدان، زنبور اصفر يحوم وحيداً على عذوق ذهبية، وعند البرك بيت متهاوي الجدران تبعثرت اسرته بلا انتظام وتفتت مرآته قطعاً صغيرة تعكس سماوات صافية لا حصر لها.

أنا الواقف تحت أوراق العنب

هي مدينة بلا شك، مدينة صغيرة تتناثر ابنيتها، بعضها واطيء من طابق واحد، والآخر على شكل جملونات ضخمة، مفتوحة على ساحات ومديات مشمسة، وكانت هناك شبابيك كثيرة مستطيلة تصاميمها متشابهة: في الوسط صليب من خشب ابيض، مفتوح قسم منها ومغلق آخر، على غموض الغرف والصالات الممتدة طولياً، حركة بشر غير مفهومة، وفي الساحات اشعة ألِقة تعشي العيون. لي موعد مع فتاة لا اعرف من هي، اسمها غائب عني تماماً، والأدهى من ذلك، لا اذكر كيف دخلت هذه المدينة، من اي باب أو ثقب في سياجها، ولا أدري إن كنت تسللت عبر كوة او قفزت حائطاً لأجد نفسي في هذا المكان المكتظ بالبشر. اناس مألوفون لكنهم غامضون، وجوههم نسخ متكررة رأيتها قبلئذ في حلم او شارع، خارج هذا المكان. وجدت نفسي في احد تلك الجملونات الضخمة، في الأعلى سقف يتكون من صفحتين يبدآن من جدارين عاليين، ويلتقيان عند منتصف مسافة الجملون، لا تسندهما اعمدة خرسانية ولا خشبية، وكأنهما عُلّقا بخطافات لا أراها، لكنها هناك حتماً، مدلاة من السماء: حبال أو أمراس، أسلاك أو حلقات حديدية متينة القوة، تنهض بأثقال ذلك السقف العجيب. حولي، بشر متراص دائب الحركة، ثمة نساء محجبات بشالات سود تزينها كلاليب ذهب مزينة هي الاخرى بفص من حجر كريم، بفص من العاج، بقطعة من الجلد، بلؤلؤة بيضاء ينتأ منها

الخطاف المستلقي بود على صفحات الخدود. نساء وصبايا وعجائز، يرتدين العباءات، يقمن بتقطيع اللحم لوضعه في قدور كبيرة، بيضاء من الداخل مثل القطن، سوداء من الخارج كأنها قطعان ليل. لحمُ مأتم هو، لحم عرس أم لحم وليمة؟ لا علم لي بذلك، كل ما يستخلصه المرء من انشغال النسوة بغسل الرز وتقطيع اللحم وتقشير البصل ووضع القدور على كانون غائر في ارض الجملون كأنه جرح، بأن الحشد يعد طعاماً، وأنني واقف جنب حاوية عالية من البلاستيك، مركومة على الجدار الطابوقي، ملأى بالكتب: مجلات بمختلف اللغات، كتب تراثية، بجلود أو بغير جلود، قرأت عناوينها وادهشني تنوعها وغناها: قاموس لغوي لبشار الاندلسي حول انواع النباتات واسمائها، معجم فاخر التجليد لابراهيم بن تيسير، يشرح كلمات الصحراء ولغة البدو، ديوان شعر غزلي للشاعر الحضري همام الشجيري، وكثير كثير غيرها وعلى شاكلتها من الموسوعات والقصص وكتب السحر والاناشيد والغزوات والتغريبات، سمعت باخبار بعضها فيما أرى اسماء بعضها الآخر أول مرة في حياتي. هي مكتبة صديقي عبيد، وثمة كتب لا أستطيع تركها على الاطلاق، لا بد من أخذها أو استعارتها رغم غيابه، فأنا بأمس الحاجة إلى فض اسرارها وارتشاف معانيها، أو على الاقل، اعارتها لفتاتي التي سألتقيها تحت دالية العنب.

لهب يتصاعد من الكانون، اصفر واحمر، داخناً مرة ناصعاً اخرى، ورائحة لذيذة للحوم تقلى وللبصل يحترق من جوى النيران، ورائحة لرز تايلندي تفعم الانوف، تشيع رغبة الاكل في بطون النساء خاصة. سعف يُقصف وخوص يُدس تحت القدور، وعناوين كتب تغتصب النظرات إلى اجوافها المصفّرة وصديقي عبيد غائب. لا يهم، قررت أن اضع الكتب خارج الحاوية، الكتب التي سأسرقها حسب نفسي، وسأستعيرها حسب النظرات الراصدة لما اقوم به، من الصبية المتسكعين، المنتظرين نضوج الطعام، والنساء الجالسات يلكن اخبار الموت والفضائح وحكايات العشق. ظِلّ الجملون مصمت، غامق، له حد نافر يدفع الشمس الكسولة خارج مسقط السقف، هناك حيث الحصى الاسود

والاحمر والابيض المديوف بالغبار والتراب بفعل الاقدام الرائحة الآتية، من الجملون إلى الصالة الطويلة القريبة، المواجهة، أو من الجملون إلى الساحة الملأى بالمشاة، وإلى أطراف المدينة الصغيرة المسيجة بسياج طابوقي، وفي طرفها بستان فتاتي. سألت فتىً واقفاً حدّي، يلبس دشداشة ممزقة يتدلى على صدره مزمار من القصب مربوط بخيط إلى زُمّارته، سألته عن عبيد فقال: في السوق، وسيرجع مع الباص عند الظهيرة او بعدها، وسألته عما يجري من انشغال فأجاب: انه مأتم جدك، وما تراه من نساء وعجقة واكتظاظ هو لاعداد الغداء للمعزّين والضيوف والغرباء والدفّانة بعد رجوعهم من المقبرة.

هذا الفتى يكذب دون شك، ولم اصدق كلمة من حديثه، وكل ما تفوهتُ به، بعد أن حملت الكتب تحت ابطي وازمعت الخروج من ظل الجملون: هذه الكتب استعرتها من مكتبة عبيد، دون الاشارة الى اسمي، وكنت ادرك انني اكذب، اذ لن اخبره بالاستعارة إلا إذا اكتشف الامر بنفسه.

قدمّ في الشمس، وحرارة لاهبة تلسع الجلد، لكن لا مجال للتراجع، عليّ الخروج من الظل المرتّد إلى بياض الحصى واشعة السماء. عليّ أن أرى نوراً واشم هواء طازجاً لا يخالطه دخان المأتم. أن أرى السنونو خافقاً بجناحيه فوق ذرى التين والرمان، ان اكتشف هذه المدينة الممنوحة لمأتم دائم، لميتة غامضة، لحزن عميق لا يرى في الوجوه والعيون، فثمة صَبيّة لا بد أن اصلها، أواصلها تحت اوراق العنب الملأى بالديدان الخضر، قرب سياج يسوّر المدينة ولم يكتشف حدوده أحد.

نعم خرجت، فوجدت الساحة باطيارها وحصاها واشعتها، ساخنة لاهبة الهواء.

قلت لنفسي لا بد أن ادخل الصالة امامي قبل كل شيء، كي أرى جدي والنسوة والرجال، أو على الاقل ازيل غموضها وسرّها، مخترقاً صلبان الشبابيك وعتمة الستائر، وتلك الصالة الطويلة المبنية من طابق واحد، مغلقة،

تستر الهمسات والانفاس والوان الثياب، وتُشكّل بتصميمها الشبيه بالعلبة، مَعلَماً من معالم هذا المحيط الذي وجدت جسدي وروحي واحاسيسي مقذوفة إلى مأتمه. مشيت باستقامة إلى الباب، فلم اصل، لقد استوقفني مشهد رجلين قدما من طرف الصالة الآخر وهما يدفعان عربة من خشب، صندوقاً على عجلتين مطاطيتين له مقبضان املسان يلصقان، طوّقا بمعدن يميل لونه إلى البياض. رجلان أحدهما طويل والآخر قصير، وللقصير لحية نزرة مسوّاة باعتناء وشاربان خفيفان، يُشكّلان مع اللحية رسمةً بالحبر الصيني، لا يشك من يراها بأن الرجل يعتني باناقته ومظهره اكثر من اللازم، وهو يفضلُ ذلك على قراءة الكتب ومضاجعة النساء ودخول السينما. والطويل أمرد، يضع طاقية على رأسه، ويتمنطق على دشداشته بحزام جلدي يحيط كرشه الصغير البارز من وراء الحزام. ليس في مظهريهما أية غرابة. رجلان عاديان من الرجال الذين يصادفهم المرء يومياً، لكن المريب فيهما، ان الطويل كان يتكلم بصوت عال والقصير يبكي. الشخص الاول الذي اراه يبكي في هذا المأتم، العرس، الوليمة، والآخر الوحيد الذي كان عالي الصوت: انه ينوح، يُلحّن، ينعيّ، يؤلف ابياتاً شعرية مقفّاة موقعة، يمطها حيناً أو يقطّع اوصالها حينا آخر. يعيد كلمة، يعيد لازمة، يصوّت بحزن وألم ثَكلاً، أو عشقاً، أو رثاء، والقصير يواكبه باكياً، ويده موضوعة على العربة، يظن من يراه أنه يساهم بالدفع لكن الواقع غير هذا. كان الطويل، تحت اشعة الضوء ودفق الاجنحة وبحر الزرقة العميق اعمق من شهقة، يرثي المدينة والخراب الضارب الاطناب، يرثي ابوابها المخلعة الحاملة طبعات الاجيال البائدة، شوارعها المحفورة، الموبوءة بالقمامة والجثث، شبابها تحت قبضات الرمل، نخيلها المحترق، المقصوف الرؤوس كما لو كان هارباً من مذبحة، يرثي وينعي الحكايات القديمة التي رواها الشيوخ، واخبار الأولين الذين تناساهم الناس: الحمير، البغال، بنات أوى، ذيول الحمام في أبراجه، اوتار النايات والربابات والعيدان، والقصير ينشج امام كل مقطع او بيت او لازمة، بنحيب، تردده الجدران والحصى والأجواز. عما جرى لهما استفسرت

فلم يردا علي، بل تابعا مشيهما في طريق ترابي يخترق اشجاراً متناثرة من الدفلى والخروع والحلفاء. وقبل أن اهم بوضع رجلي على عتبة الصالة وافتح الباب، تناهى إليَّ وقع شجار بينهما وبين شخصين كانا يجلسان تحت تاج اغصان يتفيآن، ويضحكان فلم ترق ضحكاتهما للرجل الطويل وصاحبه، فثمة خراب بينما هما يضحكان، حزن مارق عميق فيما البِشْرُ في وجهيهما، دموع جاريات على شاربي ولحية الباكي لكنهما يستروحان وجودهما في ظِلَّةِ اوراق الخروع الدكناء. شجار بالكلمات والحجج المتبادلة، لم التقط فحواه، لأنني دفعت باب الخشب وهربت إلى عتمة الصالة، بعيداً عن الضوضاء والشمس والتماعات الحصى.

بعيداً عن طلعة الجملون، الشامخ في الفضاء سابحاً في غيمة الدخان ولعاب الأطعمة، فإذا بي وجهاً لوجه مع الغرباء. قال لي أول رجل كان يجلس قرب الباب: هاهو جدك امضِ وحييه، إنه مريض بعض الشيء غير أنه يتماثل الآن للشفاء، واشار إلى الطرف القصي من الصالة حيث يجلس جدي، لا تبين منه سوى زرزورة لفافته المعلقة في طرف مشربه. لن أحكي عن المأتم أو أسأل عن موت جدي الذي اخبرني به الفتى، لا وقت للسؤال.

ولن أحاول فض اسرار الامور الجارية حولي ولي، فأنا في مكان آخر، وربما في مدينة أخرى، مع أنني كنت واعياً كل الوعي لحظة مغادرتي الجملون ولقائي الرجلين ودخولي الباب. لا وقت للسؤال، فسوف تنجلي الغوامض لحظة لقاء الحبيبة، وربما قبل ذلك حتى.

الجالسون صفّان، يتقابلان، حذاء كل جدار صف من البشر يتربع على مدّات من الخوص تغطيها مفارش الصوف، وبين الصفين مسلك ترك لمرور الوافدين الجدد أو الخارجين.

الشبابيك مغلقة والستائر ثقيلة والابواب موصدة، ولا من مصابيح تنير، اما كيف يستدل الماشي إلى موضع خطاه ووجوه الجالسين، فلا علم لي بذلك،

لكن ثمة ضوء، وضوء كاف لتمييز جدي عن الآخرين. لا رائحة تُحس، ولا يشي المجلس عن هويته. امام بعض الرجال نارجيلات قائمة، زجاجات ملأى بالماء وبالماء مضاءة رسومها المستوحاة عن عرائش الافكار المنبعثة من رؤوس مُخدّرة الوجوه وكما تلوح لي منشرحة، تبتسم بدعَة ملقية نظراتها عليّ وأنا اتقدم بخطى متوجسة صوب جدي.

رجال يرتدون ملابس بدوية، يعتمرون عُقلاً وطرحات بيضاً، رجال افندية بأربطة وسُتَر وبنطلونات، يحتضنون وسائد مزركشة جلّها من القطيفة. رجال عراة، وآخرون لم استطع تمييزهم. يتهامسون فيما بينهم، يشيرون لي بأيديهم أو بمباسم النارجيلات أن تقدم إلى جدك، فاتقدم اليه وهو جالس منتصب الظهر يدخن بمتعة: لحيته البيضاء وعيناه الضيقتان وصلعته الموشومة بالنمش والشامات. قلت له: كيف صحتك اليوم يا جدي، قال بخير وكل شيء يسير على ما يرام، والخطة ماضية نحو مبتغاها، فلم افهم مرماه، كما لم يكلمني أكثر إذ انصرف إلى جليسه ليكمل له حكايته عن تاريخ المدينة، التاريخ الذي لا يتذكره احد من الجالسين.

الجالسون لا يتذكرون لأن جدي عمره أكثر من مئة سنة، ولدته نهاية القرن الماضي: وقت كانت المدينة عدداً من الخانات لمبيت التجار والغرباء، ودكاكين متناثرة شيدت من اللبن ضمّت الخياطين والحبّالين وباعة السكر والسمكرية الذين يجلون الاواني ويستّون السكاكين والمناجل ويصنعون حدوات الخيول وأرسانها. وفيما كان جدي ماضياً بسرد تاريخ المدينة لرجال اكبرهم سناً لا يتجاوز الثمانين، انصرف خيط سمعي عن فمه، لأن امرأة غريبة جنبه استولت على نظراتي وانتباهي: شقراء، حدقتاها زرقاوان، منطرحة على ظهرها، متكئة برأسها على الجدار، ترقّص طفلاً بين يديها، دون أن تعير اهمية للرجال حولها، أو لشوارع جدّي الترابية وفوانيس الليل النفطية واسراب البدو الداخلين تحت جنح الظلام إلى المدينة. قالت لي: هل أوسع لك محلاً لتجلس

مع جدك، اجبتها: كلا، لا أريد أن اجلس مع ميت، وهذا الذي ترينه طيف جدي لا غير، فجدي الحقيقي يرقد في المقبرة المشمورة على طرف الصحراء، عظامه فتيت مختلط بالتراب والبُحص، وما نراه امامنا، لا يعدو كومة اشباح لرجال قضوا منذ عشرات السنين. لن تجدي نارجيلات كهذه في المدينة، ولن تجدي حكايات يفوق عمرها العشرين سنة، وقلت لها: ان الراثي الذي صادفته قبل دخولي الصالة اخبرني بكل شيء، وابان لي ما تلاشى في زحمة الاحداث من حكايات وقصص واخبار كالتي يرويها جدي، او طيفه ان أردتِ الحقيقة. قلت لها اخشى ان تكوني انت نفسك طيفاً بين هذه الاطياف، تداعبين طفلاً مات تحت رجليك اثناء الولادة. كلا، قالت، انا من لحم ودم ولست من هذي المدينة، وان رغبت بالتأكد فهاك ذراعي، جسها، اقرصها، تلمسها، فتقع على صدقي. لا حاجة: اجبتها، فأنا على موعد وكتبي تثقل علي، وينبغي لي المضي سريعاً إلى عريشة العنب، حيث لا تبعد كثيراً من هنا. لا أرغب ان اكون شبحاً آخر بين اشباح المجلس، اريد رؤية النور، اتعشم الوصول إلى الدالية لاتنفس الهواء الطلق قادماً من بستان المسرات بكل ما يحمل من اريج ليمون وازهار رمان وفوح اوراق وورود، فجدي شبح يروى لاشباح، وانت غريبة على المدينة، وأنا خارج: خارِج من رميم الحكايا وأسورة المراثي، من العتمات والجثث، خارج إلى فضاء أَلِقٍ يشبهُني بأجنحة آفاقه الشاسعة، ولعجبي لم يلحظ خروجي أحد، بل لم يلتفت أي واحد إليّ، مثلما ولجت العتمة خرجت منها، وأول ما حملتني العتبة انتفخت بالدهشة: امامي ممر طويل، شجري، كوّنه لبلاب عرّشَ على بعضه وشكّلَ سقفهُ قوساً لطيفاً، أخضر، من فتحات اوراقه تتساقط بقع الضوء على أرض خرسانية مصقولة، لامعة السطح رُقّشتْ بالصفرة، راحت تستقبل خطاي بألفة، فمشيت تحت السقف: مصنوعاً كان من ورق واشعة وذرات غبار ومراسيل كونية تبثها السماوات البعيدة عن ارضنا. مشيت مندفعاً إلى المساحة الفارغة، وهي تنبسط بعد انتهاء النفق مباشرة.

رغم تشوفه الزائد الى السماء، ضياعه في واجهات البيوت المجاورة، نظراته النارية الى جسدي والنساء، الا انني لم المحه ناظرا الى فوق، اي الى الطابق الذي نسكن فيه، مع ان ابنتي سعاد تغري الشباب الذين في سنه، وهذا شيء اغاظني وافرحني، اغاظني بسبب احساسي ان ابنتي لاتثير الفضول لديه كالاخريات مع مالها من جمال واضح، وافرحني لأنه يحب النساء المتزوجات، امثالي، كعادة الكثيرين ممن فقدوا حنان الام ورعاية الاسرة، كما يجنبني في الوقت عينه، تقولات الشارع وفضائح النساء والسنة المفلسين.

عندما اكتشفت تعاطيه الخمرة، فسرت سلوكه، جنون عينيه، اهماله لنظافة جسده، هذيانه وصفنته وطوفاناته المسائية في سماء دمشق، نتيجة اكيدة سببها ذلك السم، السائل قبيح الرائحة، فقلت لنفسي ان الواجب يدعوني لتحذيره منه. جعلتني امه، اسرته، وطنه، الا ان الذي اعتاد على سيئة لاينفك عنها. اردت ان اوضح له ان رائحة جسده المنفرة، فوضى شعره، سروحه غير المفهوم، عمله غير المستقر، ضياعه الشامي، ان هو الا الخمرة. وقد اخبرتني اكثر من جارة ان اولئك العراقيين يتعاطون الخمرة كثيرا، فحذرته ورد علي بوقاحة، ماخطر لي انه يملكها، سيمضي الى سكن آخر ان هي اصرت على طلبها بالكف عن الشرب، وقال ايضا ان الحق ليس معها بالتدخل بأمور شخصية لاتعنيها، وكدت انبهه ان البيت بيتي وآخر من يقرر تصرفات القاطنين واولهم هو انا.

اغضبني حقا واوشكت الخيوط بيننا ان تنبتّ، الاواصر ان تنقطع،

في ساعة كهذه، كتب سحر اخبرتها، ارسلها لي صاحبي من بومباي، أميل لتقبيلها، قبلة خاطفة، بطيئة بطء نيزك، لا تستغرق إلا جزء يسيراً من القرن، بعيداً عن الخرائب وموت الحكايات وأشباح الرجال الذين قضوا من زمان، عن الابنية المتناثرة ونواح الطويل، عن عوالم الكتب المسروقة من حاوية عبيد، صديق الطفولة والمراهقة والشباب. قبلة بحضور الديدان الخضر وسنونوات الفضاء وعساليج العنب، قبلة رأتها السروع عبر عيونها المكونة من مسامات وانساغ وبشرات نسجها الضوء والملح ومياه الارض، أرض المدينة.

تعالي، الشمس مالت والسراب جف والاضواء اوقدت، قالتْ اختها الكبرى، وقد فاجأني وجودها في كوخ الدالية، من اين جاءت هذه العاذلة، وكيف لم اسمع دبيبها، ومنذ متى كانت واقفة تترصد ما يجري، لا علم لي، لقد سَحبتها من ذراعها فانقادت لها مثل مُخدّرة، تركتني وحيداً مع السياج والدالية والدرب الفارغ الموشوم بالاقدام ومخلفات العصافير، باظلاف البقر وحوافر الحمير وبرائن القطط، بالاتجاهات المسائية التي لا يعرفها بشر. فلم يعد امامي ما افعله، والوحدة سم، والفراغ جوف مفتوح على هاوية، وما بين السماء والارضين عالم طيفي، زلق، موارب، كذاب، وجدتني اترحل في مدياته واصقاعه. خلفي فراغ وامامي جدار السياج، عالياً غامض التكوين، وليس من مخرج سوى تسلقه، فتسلقته عبر عمود الصفصاف المنبوت كي يشد اغصان العنب، كي يكون عريشة لعاشق وعاشقة. هي المرة الأولى التي اطل فيها على عالم خارج المدينة، مغامرة هائلة: بيوت، كون شاسع من بيوت متشابهة الطراز، مادتها الطين واعمدتها الخشب، صفوف صفوف، وشوارع شوارع، ولا من بشر. ولا من حي يتحرك أو ينبيء عن هوية. تمتد من السطوح مداخن عالية، ولكن لا دخان. لا شجر ولا خضرة. رمادية هي البيوت، رمادي هو الافق، مقفرة هي الشوارع، والتركيز صعب، فالمشهد متداخل متشابه، والعين لا تتوقف إلا على ما يسترعي النظر، وليس ثمة ما يسترعي النظر حتى لحظة رؤيتي لذلك القط العجيب: فإلى يميني بيت ككل البيوت،

مزاغله، زواياه، شرفاته، كواه، مداخنه: بين جدارين قريبين من بعضهما يمتد عود رفيع من خشب، يتدلى منه قط فراؤه اسود لامع وعيناه زرقاوان، يمسك بذلك العود بيد واحدة، يتشقلب اعلى واسفل، ويده الصغيرة تمنعه من السقوط، وينظر إلي بحدقتين ضاحكتين، لا بد انه يسخر من خوفي ونبضات قلبي المتسارعة. لكنه يواصل عرض براعته، يوالي ادهاشي، يواصل خضخضة خشيتي واللعب بخلاياي كأنه حاو أو مهرج أو مخمور. نعم، ذلك القط كان الوحيد المتحرك في مضرب الطبيعة الصامتة الخاوية. وفي الامداء غيوم من سراب واطيار، من خيالات وجموع مبعثرة، من غبار صحارى واوراق جرائد وانعكاسات معدنية. كلا، لا يمكنني مراقبة القط، بحركاته الاكروباتيكية إلى الابد، إذ ينبغي النزول عن السياج والرجوع إلى المدينة. ينبغي، وإلا علي أن امنح نفسي إلى الدوار الرهيب والاشفاق الممض، فاستدرت لابصر المدينة ورائي واحوالها، لاعين موضع الجملون وصالة الجد والبشر الراعشين في الفسحات مثل خواطر فكر قلق: لم تكن ثمة أي مدينة، يقع البصر على صحراء مرملة ذات كهوف وشعاب ومهاو وحصى يلصف وريح تعصف وحشائش يابسة تتطاير وسراب.

سراب كأنه ماء وجهات مغلقة، في المدى الابعد منها انطباق للسماء على الارض رسم خطّاً بنياً محدباً كسيف. صحراء جاهزة للبلع، للتيه الذي بلا زمن، للضياع دون ماء أو طعام، وليس امامي سوى الرجوع إلى ذلك القط البهلوان، فألفيته على سجيته لم يزل، صعوداً ونزولاً، قفزاً والتواء في الهواء ليتشبث في اللحظة الحاسمة بالعود الرفيع الواصل بين جدارين قرب مدخنة مسودّة من تصاعد دخان قديم، موغل القدم.

فكرت، سأقبل هذا المصير، الغريب، المجبول من متاهة فخمة ورموز قاحلة واحلام محيطة متداخلة مع بعضها، وعلى أن اقفز نحو تلك المفازة، كي اجرب متاهتي الجديدة فيها.

عليّ أن اقفز السياج إلى مدينة البيوت المتشابهة الملفعة بالالتماعات المعدنية.

تحت ثقل هذه الخواطر الهائجة، لمحت امارات الرضا على وجه القط، تدعوني إليه.

فقفزت.

وها انا الآن اسبح وسط الشوارع الفارغة، مترنحاً، كأنني سكران.

للمدينة الجديدة تفاصيل حياة تشبه الاحلام.

للمدينة التي غادرتها تفاصيل تشبه الاوهام.

الدروب الخفية

انها اللحظات الاكثر كآبة، وسأفارق نهر حياتي المطرد، الجاري بعنف مرة أو بانسياب بطيء مرة أخرى، راحلاً عن المدينة إلى الابد، وهاهو الجامع يرقبني بمئذنته الزرقاء، يسر لي عن ضجر الليالي الباردة ونداءات الرجال تنطلق معلنة، عبر مكبرته الوحيدة، عن القاضين دون اسف، القاطنين جنات معرشة بالشجر الراقص على اغصانها ولدان وحور عين واحلام. اقف منتظراً سيارة تقلني إلى بغداد، ففيها التقي دليل رحلتي الذي سيقودني إلى الجبال، جبال ستعصمني من الموت، لن يجرؤ أحد على مطاردتي فيها، هي المتشعبة الدروب، الخبيئة البيوت، المستعصية الاغوار، التي تلامس الغيوم بقممها وتكسر وحدة الآفاق.

لم اصطحب معي الا ادوات حلاقة وكنزة صوفية تحميني من جمد الارتفاعات، وكدت أن ادس كتاباً لأبي العلاء المعري في حقيبتي الصغيرة في الليلة الماضية وانا استجمع اشيائي وشجاعتي للرحيل، إلا أنني احجمت آخر دقيقة، فاعدته إلى المكتبة، وقلت لنفسي ما حاجتي للقراءة. ستكون الايام القادمة ايام عمل، تشتغل خلالها اليدان والاطراف والصدر في دحرجة صخرة او قطع شجرة للوقود، حفر موضع للحماية من الغارات أو بناء جدران تصدُّ ثلوج الشتاء. فللقراءة يوم ولطلاء جدار يوم آخر، لتقليب الفكر ساعة ولتشغيل

مضخة مياه ساعة اخرى، وأمامي ايام واسابيع وساعات لا تحصى، اختبر معها ارادتي وصلابة اعضائي، كما شرح لي الدليل في لقائي الاخير معه.

الحياة نهر، قال لي: يمر حيناً بأجراف فظة وعروق سائبة وصخور، وينساب حيناً بين ضفتين ناعماً هادلاً، لا تعكر ماءه سوى نسائم الهواء، الحياة تلتوي مثل نهر بانحناءة حادة لا تخمن ما سيأتي بعدها، ومرة تسير على هواها واضحة المسالك، طلقة الجريان، ورحيلك إلى الجبال انحناءة مفاجئة لن ترى ما وراءها إلا حين ينجلي لك الافق. فآمنت بكلام دليلي، مع ان قلبي راعش وهواجسي موّارة، في هذه اللحظات الكئيبة التي اقضيها منتظراً وصول سيارة ما، ناظراً إلى شوارع مدينتنا القليلة وهي تتميز قيظاً من حرارة شمس لاهبة.

فراغ هش قلق، غبار يهيم خلف المدينة له ارتعاشات سراب، أهواء وهيامات وود، تغادر بابا وتدخل بابا، رابطة بيوت البشر بلوامسها، الرفيعة لكنها الاشد قوة من مرس الحديد، هي رحلة البعاد، ورحلة النأى عن مارشات العسكر، اغاني الدم، برودة البنادق، الزنازين وقد تكاثرت كالفطر في احلامي لتحوك منها كوابيس لم يألفها أي امرىء في مدينتنا.

كانت وداعاتي فاترة، ظل ابي يتوضأ وامي تراقب حساء الباذنجان واختي تكركر بمرح: لا تغب كثيراً في الجبهة، واحمل لي في اجازتك القادمة ثوب حرير. وعاقرني في الليلة الفائتة وجهان: وجه دليلي ووجه سعيد، صديقي الذي غاب قبل سنة في الجبال هو الآخر، وقال لي انه يود لو ارافقه لكن الامر ليس بيده، فثمة اجراءات لا يستطيع تجاوزها او خرقها: السرية المطلقة.

حولي دجلة، ما كان مصطبغاً بالدم كما حدث له قبل قرون، ولا بالحبر، بل هو هادىء شاحب كحقل من رماد. تطل عليه بيوت متناثرة بدت كالعلب، محشوة بآلام حيواتها، متطلعة إلى المجهول، مثلي، والمجهول جبل شامخ أو شجرة درية تضيء لنا في ظلام وتشف لنا عن افق. انني، وقبل مجيء الباص، اطل على مشهد غائر في العمق، غائر في السنين، وسيظل

معي، إذا ما تمت الرحلة، حتى الزفرة الاخيرة من روحي. جاء يدرج واهناً ملتصقاً بالاسفلت، كما لو يسير وسط سائل لزج، سلاماً للمئذنة، للبيت مفتوح الباب، للصبي في الشارع يفتش عن سيفونات يلهو بها، للهواجس الكامنة تحت الجلود، لهذا الباص يتقدم نحوي مثقلاً بالسنين. كان فارغاً. لا أحد يغامر بالسفر إلى بغداد بساعة كهذه: الاتون يطبخ الموجودات بصهيل اشعته، وفراغ واضح لا تدرك مدينتنا بعد انها تعيشه. لا حياة تولد انما موت يتفشى، يتمشى على هواه. أأنت عسكري: سألني السائق بعيد ركوبي الباص. كلا، كلمة قاطعة خيبت ظن صاحبي، لقد كان يفكر حتماً بسفح أفكاره عن الهجوم والانسحاب والشجاعة، فما كان منه إلا أن قدح في سيجارته وراح يشهق الدخان بعمق متابعاً ما أمامه، حيث الطريق اشجار على الجانبين تغوص في وحل الحرارة. الباص ينعطف إلى الجهة اليمنى المحاذية للنهر، يشبكني ورده إليه، تشبكني روائح الطين ورعشات الديدان الطائرة من صفحة الماء إلى صفحة الماء، وقد رأيت سعيداً البارحة في المنام.

كان كابوساً، سحرني فيه منظر نهرنا هذا، إذ كان مكتظاً بالاسماك والجثث والعروق،حقول حنطة يغمرها فيضان عارم، أمواج تلاطم حافات البيوت، وفي الوسط من النهر اطفال يسبحون بينهم سعيد. الامواج شعر اطفال، والعيدان الطافية حول الرؤوس ريش نعام، وسعيد يصيح سيغرقني النهر، والنهر موجة، اجراف متآكلة، ضحايا غرق وسباحون مهرة يحفقون بالعبور من ضفته الاولى إلى ضفته الثانية. اسماك حمر تشع من القاع، لها اشكال مدورة او مستطيلة او ثعبانية، كانت تتناهش جثث البقر والغنم من كل الاتجاهات، وسلاحف لاصفة الدروع تمضي في تسلق جذع نخلة بليل، وسعيد يصيح: سيغرقنا النهر، وكنا صبية المدينة نتجمع فوق السدة نتأمل هذا الذي يجري امامنا، وما هي إلا برهة حتى فوجئنا بانفتاح هوة غريبة، كانت تلف المياه لفاً محكماً، لترسله إلى القاع، رأينا في ثقبها الاسود اطرافاً ممزقة ورؤوس اغنام عيونها بارقة وعروق صفصاف تفسخت في مكانات بعيدة

وحملها التيار إلى ضفاف مدينتنا، وكان سعيد يقاوم الانجذاب إلى الثقب بعضلات راخية ويأس واضح. سورة أشد من عصب اليدين. اشد من المقاومة، راحت تطوي جسد سعيد الصغير قليلاً قليلاً إلى جوفها. غاب سعيد في باطن النهر، وغبنا بخوفنا وعجزنا دون ان نقدم له عوناً، ولما لمحنا امه على الجرف تسائلنا عن مصير سعيد، قلنا لها دون خجل: بلعته الارض يا خالة، وكانت اوراق اليوكالبتوس تتلاصف في العتمة فوق سريري، وأول اشعاعات الفجر تتسلل من الافق البعيد. سعيد، دليلي، السائق يتجه بي إلى بغداد حيث سألقاه، ابي العكر الوجه دائماً، هذه الظهيرة الممزوجة بالذكريات، بالاحلام، تمضني، تتفجر بالاسئلة: ماذا لو غاب عني الدليل وبعد انتهاء اجازتي، ماذا لو شك شخص ما بامري، ماذا لو تكشف لي ان كل ما يجري لا يعدو ان يكون حلماً سأفيق بعده لأجدني في معسكر تدريب احشّ بمنجل طويل مع غيري من الجنود الحلفاء والشوك والثيل المتكاثر في الساحات، أو أجدني على خطوات من العدو في خندق يفصلنا مليئاً بنزيز المستنقعات والاهوار، ماذا لو وجدتني في زنزانة تكتظ بالعشرات من الهاربين مثلي، ماذا وماذا وماذا ثالثة؟؟؟

قلت للسائق قبل لي شوارع مدينتنا، فلم يفهم، وظل صامتاً مثل جذع يابس، محاطاً بدخان السيارات ونداءات الباعة وابخرة الاسفلت، واحسست عينيه تثبان ظهري، في تطلع دهش، في تعابير مغلقة. السائق لا يفهم، لكنني افهم ما اعني، افهم انني لن ارى تلك الشوارع لسنوات قادمة لا استطيع الآن تخمين عددها. لا يهم. سيدرك الامر ذات يوم.

زحمة، واكتظاظ مرور، ورجلان مرهقتان، متعبتان، اوصلتني متأخراً على الموعد عشر دقائق، كانت ستقضي على كل ما رسمته من مشاريع، فيما لو خطر لدليلي انني العب معه لعبة ما. ولحسن الحظ وجدته واقفاً جنب العمود الضخم، المجاورة لمقهى البرلمان، المكان الذي اتفقنا عليه قبل اجازتي.

هل انتظرتني طويلاً، سألته. قال انه اوشك ان يغادر. انني جاهز قلت له. شلعت الخوف من ذهني كما اشلع هرش يقطين، استجمعت ارواحي السبعة للهروب من هذه الحياة الجافة، الخطرة، وقررت اللحاق بسعيد، هناك في ربوة من جبل او كهف من الكهوف، الشمال الشمال، ولا قوة توقفني. قلت له دعنا نتحدث داخل المقهى، فقال انه مستعجل، سيتحول اليوم من غرفته في الحيدرخانة إلى قبو في حي الاكراد، لأن ثمة عيوناً راحت تراقبه في الزقاق. حامت حوله شكوك، لا بد أن صاحب البيت السمين كان وراء تسعيرها. قال صار يزورني في الآونة الاخيرة كثير من الشباب: جنود ومدنيون، عرب واكراد وآشوريون، ملتحون ومرد، وآخر مرة سألت عني فتاة جامعية، تود الخروج من العلبة هي الاخرى، وفي الليلة الفائتة لمحت رجلين يقفان عند عطفة الزقاق، تحت الشناشيل، كل الرموز توحي بالريبة. سألقاك غداً ظهراً في كراج كركوك. هل هذا كل شيء، سألته. لحد الآن نعم، قال، وسنخطو الخطوة الثانية غداً، فلا تقلق.

اندفع باب المقهى الزجاجي تحت يدي ووجدت نفسي في عالم المقهى الاليف. في الطرف القصي، موقد القهوة والشاي: دلال ذهبية، قوريات شاي صينية مرقشة بالزهور والشخوص الصغار المرتدين لقبعات مخروطية، دخان ازرق يتصاعد إلى فوق، تمرره يد خفية إلى مدخنة من النحاس، النادل القصير بوجهه النحيف وعينيه الضيقتين، الذي كانت تحوم الظنون حوله على انه عميل لشرطة الامن، يتنصت إلى احاديث الجالسين فيما يضع اقداح الشاي ببطء على الطاولة، وباب المراحيض الخشب، متسخ بالكتابة والاصباغ.

في المقهى تعرفت ذات يوم على دليلي الكردي، وفيها ايضاً نثرنا أنا وسعيد احلامنا بالسفر والثورات والعوالم المثالية للعيش، ارتدناها ونحن سكارى، ارتدناها في الاجازات القصيرة، وقضينا وقتاً ممتعاً للتخطيط للهرب إلى الجبال والبلدان البعيدة. في الخيال نزوّر مرة جوازاً أو نقطع البوادي الغربية للعبور ليلاً

إلى البلد المجاور، لقد كان المقهى شاهداً على عجزنا الشاسع على أية حال.

طلبت شاياً، ثم انتحيت زاوية، نائية عن دلال القهوة والمدخنة النحاس، تطل على الشارع، مثلما كان سعيد يفعل. كان معتاداً على الحملقة بالمارة، بتعابير وجوههم، بملابسهم، بجنسياتهم، كأنه الاه متعال يمتع بصره بمراقبة البشر الارضيين يدبون على التراب، ويركضون وراء الملذات، هل القاه هناك، هل اراه ثانية، لنستعيد اخبار السنين، هل بقي في الجبال أم نفذ إلى بلد مجاور، ضارباً الطرق بأرض الله الواسعة. كيف لي أن أقرأ الغيب، كيف لي أن ابعثر هذه الطرق لاسقط على الطريق الصحيح، من لي بخرزة

سأفتش عن مكان انام فيه، اقضي ليلتي الاخيرة: ليلة بغداد الغارقة بفوضاها ورذاذ دجلة الراعش تحت اضواء المساء. أي الفنادق تؤويني انا العازم على الخصام، وأي الشوارع تغلني بأمراسها أنا الاسمر النافر الهازىء بدوي الصناجات الممجدة ولعلعة الاغاني وشرايين القوة. الشاي علقم في فمي، النظرات مسامير تنغل في لحمي، والفنادق تترى على الذهن: فندق محمود، علاوي الحلة، فندق الشرق، ساحة السعدون، فندق الزعماء، سوق السراي، فندق جبهة النهر، دجلة، واجازتي العسكرية ورقة نحيفة في جيبي، واحمل حكم الاعدام في رقبة تخلفت خمسة ايام عن اللحاق بقطار الموت، المتجه شرقاً وجنوباً وشمالاً.

لا مكان إلا في السطح، هتف لي كاتب الزعماء بعد ان افضى بي الدرج الملتوي إلى كابينة الخشب. قلت له موافق، وفرشت امامه اجازتي المزورة بحذق: قلت له احتفظ بالحقيبة، سأذهب لتناول وجبة ما وسأرجع بعد ساعة.

تسللت إلى سوق السراي، وكان الليل ينحدر على شبابيك البيوت وطابوق الجدران ووجوه البشر وامواه دجلة مثل صخرة ثقيلة: خانقاً كان، فيه رائحة للموت، للحب، للخوف، للهواجس وهي تقتحم الروح في متاهتها المحصورة بين خيارات مرة كلها. كان ليلاً يخلو من العبير وتعرش على مسلته

ضوضاء مصممة لتكسر اعضاء المدينة وانفلاشها، وثمة نافذة بعيدة توشح ارضنا بنهنات معذبين وزفرات مغلولين يؤطرها رعب مصمت يتثال على جسور ومماش وابنية وازقة حائرة، وثمة سيل من البشر. ينبع من مكان ما ليصب في بحر، وعيون تحدق في بعضها البعض، عن شمالي آلات ضخمة تحفر الارض وتقيم ابنية، وقدامي ماكنة عملاقة تسفلت رصيفاً مليئاً بالحفر. بغداد تتظاهر ببناء نفسها، تتظاهر بترميم اعضائها فيما هي تدخل ساحة الخراب من أوسع الجنبات، ترمم شارعاً وتبيد قرية، تستقدم بشراً من جميع البلدان وترسل ابناءها إلى مفازة الموت. ضوضاء هذا الليل لا تنتهي، شوارع تهتز تحت قدمي، روائح شواء في انفي، لزوجة تمسحني بالدهن، وعلى حصان من اسمنت يقف ، الرصافي مشيراً إلى النهر، مجللاً بمخلفات الطيور ومسخماً بدخان المطاعم. رغبة الجوع قتلها التوحد، الاحساس بمجانية الزمن ينمي في داخلي عبث انتظار الغد... غد شجرة اللوز، غد قنة الجبل المحاصر بالغيوم والبرد، غد الارغفة المحمصة على نار البلوط والاسبندار والعفص الجبلي، ذلك الغد الذي يشرأب في صدري كأنه عنق جميلة تائهة في بحران حب.

• • •

شجرة في سفح، على جبل شامخ، تاجها هائل، بني اللون، يفترش مساحة واسعة من الفضاء. في الجبل خلاء محترق لقصف سابق، آثار قرى مهشمة، قرى فلاحين اكراد قطفوا العنب وحاشوا التين، القوا بذورهم في تربة سوداء وجمعوا الصخور، وفي الاسفل، وسط السهل، تبين قلعة لعيني، تبين اينما انعطفت بنا السيارة. شجرة وقلعة لأحد اغوات الاكراد، شاهدان ابديان لا يمحيان، مهما دارت الطرق وتعددت سلاسل الجبال، ومن ايما جهة ينظر المرء منها: شجرة للحكمة القديمة، للخلود يضرب عروقه في وعورة الجبال، شجرة للمعادن الارضية ومغاور الكهوف وأشلاء الماضي والثورات المندحرة واوهام بني البشر وهم يفتحون ثغرة في صخرة او ينحتون تمثالاً لسيمائهم ولا

يخالطهم شك بقدوم الموت. شجرة تجاور قلعة، نحدق بهما انا ودليلي، من نافذة الزجاج لسيارة تنطلق بنا نحو مدينة السليمانية.

كم سألبث في المدينة، سألته بصوت خافت: ربما ترحل هذه الليلة، هل انت خائف: كلا، وضعت قدمي على المرتقى وعليّ أن اصل القمة: في القمة شجرة حياة ذات تاج عملاق، وطيور كناري، وباشقات، وحدآت، وعناقيد من ثمار: شجرة سأطل منها عل مديات وفسح وسهوب ومدن بارقة بالضوء ومتجلية اروم الضياع فيها.

حوصر الطريق خلفنا بالسلاسل الجبلية واشجار العفص، ولفع السراب منحدرات وسبلاً واعشاشاً ومزارع صغيرة شهدت آثار من مروا خلال آلاف السنين.

السليمانية.

تجلت ملفعة بغلالة من ضباب، من دخان معمل الاسمنت والسكر، من بارود بنادق اشعلها الليل وتركت مخلفاتها حتى هذه اللحظة.

تجلت وراء المنحدر مثل عش هائل، تناثرت فيه البيوض.

في بوابة السليمانية اوقفتنا مفرزة تفتيش، حيث صعد رجل مدجج ببندقية كلاشنكوف، أجال البصر متفرساً كما لو كان يبحث عن لقية متوارية خلف وجوه الركاب.

الراكبون: أنا ودليلي، نساء كرديات بثياب فضفاضة، مزركشة، منمنمة، تنفتح عند الجيد لتكشف صدوراً ناعمة وحناجر كأنها عقد در واقراط ملونة بعيدة المهوى، أطفال يرتدون الشراويل، يظهرون للعين كلعّابات، كدمى، ورؤوسهم مفلطحة قصيرة الشعر، عيونهم سود بها بقايا من رعب وثمالات من خوف، جنود وضعوا بيرياتهم على الرأس ما ان دخل الانضباط العسكري، شيوخ يعتمرون الجمدانيات، ووجوههم ناحلة، مخددة بالتعب، مشعرة تنوء بسنين مقبورة الآمال، وهزائم متوالية تجلت في الجبين.

طلب من الجميع ابراز الهويات.

وهكذا ابرزت هويتي، ايضاً، مادة حياتي واكسيرها، والتعويذة المصاغة جيداً من حاو عرفته كان اسمه جوهر، اشتغل كاتباً في احدى الألوية العسكرية. وصل إلي فناولته ورقة الاجازة بحركة لا ابالية. قلبها بين اصابعه وسألني بنزق: إلى اين ذاهب؟ إلى السليمانية، أجبته. لماذا؟ سأل. زيارة خاطفة لصديق، وخرج صوتي دون عاطفة تذكر، جافاً، راعشاً، حمل في ذبذباته ايام القلق وهزائم الروح والذعر، الايام التي عشتها في المعسكر وعند متاريس الجبهة وفي حضرة الضباط الكبار.

مرت بسلام

وجه دليلي تندى بالراحة وولجنا المدينة ولوج فاتحين حققا انتصاراً على جيش عرمرم، لا يقهر.

لقد تغيرت المدينة كثيراً عن المرة الاخيرة التي غادرتها، حيث درست في معهد الطب الفني وما كنت اظن، حينذاك، انني سأزورها ثانية. جوها ضاغط، وهواؤها ثقيل، ويمكن ادراك ذلك في الوجوه والشجر والجبال والواجهات: كأن قمم الجبال استطالت، وكأن اشجارها السود في شقوق الجبال تضاءل عددها، وكأن الطيور التي كانت تحوم في فضائها قررت جميعاً الهجرة إلى فضاءات اعمق سكينة واشد أمناً.

باقات نرجس ضمرت وجفت، وعيون صبايا مطفأة البريق، وحدائق مهجورة غطت ممراتها الاوراق الجافة وقشور البيض المتساقطة من الاعشاش، والبيوت ملتمة على بعضها. وجدتها تختلف تماماً عن تلك التي ظللت احملها طوال سنتين. لا بأس فالذكريات تخون نفسها احياناً، ألسنا محمولين على أجنحة حرب وسط عاصفة هوجاء؟

تلوت بنا الازقة على هواها، تلوت بين بيوت طينية ومساجد ودكاكين،

وكانت النساء الواقفات في الابواب يحدقن بنا بفضول، ولا أظن أن واحداً يجهل المكان يستطيع الخروج من متاهة الازقة تلك: ازقة للمطاردات الليلية، للاختباء، لتوجيه قذيفة نحو معسكر أو ربية، أزقة لعائلات تتكدس مع بعضها ولمهاجرين من القرى المخربة ولطلبة مدارس وعاهرات سريات وعملاء امن وتجار عملة وأواني فضة ومعوقين، ازقة يعشش فيها قمل وبراغيث وذباب اخضر يتلاصف بأشعة الغروب المنسكبة من كوة أو شرفةأو نافذة. للبيوت المتشابهة سمة لا توارى، أوقفني دليلي امام واحد منها، واطىء السقف، ضيق الشبابيك، كأنه مخبأ سري او حفرة شاسعة، ذي باب خشبي لونه اخضر، طرقه طرقتين وعم السكون. لا بد أن تكونا علامة متفقاً عليها. سمعنا بعد ذلك خطى تزحف وئيداً وكائناً يتنصت ثم نحنحة خافتة كان قلبي خلالها يطرق بعنف بين اضلاعي: أنا آت إلى بشر اراه اول مرة في حياتي، مجهول يفصلني عنه باب اخضر وجدار عتقته السنون.

فتح الباب رجل في الثلاثين، ذو وجه طلق وشاربان اشقران وشعر مدهون بالزيت نظيف: لست في حضرة كاوه الحداد المفتول العضلات اذن، بل مع معلم او طبيب او مرشد زراعي، وكان استقباله حاراً أليفاً، ثم دخلنا رحاب حديقة مزروعة بالثيل تنتصب وسطها شجرة تين، بأوراق خشنة عميقة الخضرة، يحيط ساقها حوض زرعت على حافاته شتلات باميا لم تزل غضة.

واضافة إلى الحديقة وشجرة التين، كان السياج يضم بيتاً صغيراً وغرفة يفصلها عن البيت ممشى مسقوف بدالية عنب تدلت منها عناقيد وردية مجللة بالغبار. باب البيت موصد، باب الغرفة مفتوح، واليها قادني الرجل، بعد أن ودعنا دليلي بحرارة ومضى. قال لي الرجل: هذه غرفتك، اختبىء بها كي لا تقع عليك اعين الجيران.

كانت الغرفة مسقوفة باعواد السندبان مع القش المضفور غلف بطبقة من الورق المحترق باكثر من موضع. غرفتان، واحدة تائهة بازقة الحيدرخانة ملفوفة

بسيلوفان العيون وشباك الشكوك يقطنها دليلي، وغرفة تسورها جبال عالية: بيره مكرون، قرداغ، سياج بنادق متأهبة، رجال سريون يتخذون من الجبال شقوق مأوى ومن الكهوف مخازن عتاد ومن المنحدرات المبسوطة على حافات قلقة مزارع طماطم وباذنجان وخيار، بينهم صاحبي سعيد ربما. عالمي هذه الغرفة، انتهت بين جدرانها عشرون سنة من الذكريات والاحداث والافكار والاحلام، حبيسة هنا منتظرة مصيراً لما يزل ثاوياً في ضباب الغد.

على الجدار المقابل لعيني علقت لوحة ذات اطار خشبي عتيق: جبال مكللة بالثلج يتركب بعضها على بعض، تعرش خلالها دروب ضيقة سود تتقاطع وتتجاور، تغيب في دنيا البياض او تميتها قمة مدببة تطعن فضاء ازرق، سماء ملساء عارية، ويشرق على الكل، على الدروب والقمم والسماء والثلج وريشة الرسام قمر كامل الاستدارة، فضي السطح كأنه درهم مسكوك خارج تواً من المصهرة. ليسْ ثمة رجال مسلحين، ملتحين، غاضبي التعابير، ولم يبن في الصورة قطيع غزلان برية او ثعالب رمادية، ثمة فقط المثال المطلق الذي تجلى لبصيرة الفنان عن عالم الجبال. وقد جاءت خيالاتي محض خيالات، وشعرت ان هذا الاطار الرخيص ينقلني عبر رموزه إلى العالم البعيد، الموجود خارج الغرفة والمدينة.

في المساء طلب مني الرجل الجلوس معه في الحديقة، وسألته بقلق: هل سأقضي الليلة هنا؟ كلا، رد علي، سترحل عند انتصاف الليل مع شخص سيأتي لأخذك. عسى أن يكون سعيداً، فكرت مع نفسي. لكن لا، فالأمر يصبح أكثر من خرافة.

مصباح اصفر معلق بغصن متدل من شجرة التين، كان يضيوءنا، حولنا إلى كتلتين شمعيتين احاطهما الليل بالسرية والغموض، في عالم وجدتني فيه نائياً عن نسيجه، جديداً وسط ارض كل ما فيها عتيق ضارب الجذور. قرّاص في حقل برسيم، بقعة زرقاء على بحر بياض، فكرة ناشزة وسط حديث محبوك،

ولولة ساقطة من خرم في سقف يظل عرساً. قلت له هل تعرف سعيداً؟ من هو سعيد، رد متعجباً تحت اوراق التين، قلت له صديقي، جاء إلى هنا قبل سنة وانقطعت اخباره. قال يمر يومياً عشرات السعيدين، فكيف لي ان اعرف: قصار، طوال، ملتحون، والنهر يسري والباب مفتوح، وكلنا في قبضة حديد محمى، كيف لي أن اعرف. قلت له كان يجالسني في مقهى البرلمان، قلت انها مقهى في بغداد. قال لم ازر بغداد إلا مرة واحدة، وانقطع الحديث بيننا على قرع خافت ادار انتباهنا إلى الباب: وصل، قال مضيفي وهو ينهض عن كرسيه ويترك دائرة الصفرة ليمتزج بالسواد.

همس، اشارات، انفاس متسارعة، غموض له طعم مالح لكنه بلا رائحة، والمدينة جراب هائل تتناسل فيه احياء وتختصم، وهي عرضة للتوقعات. انهض، اشار لي صاحب المنزل، فنهضت، ولم يكن سعيد بانتظاري. كان رجلاً بملابس سود اشار لي أيضاً بمرافقته دون كلمات.

سآخذك إلى خان قريب، حيث ستكون القافلة، قال لي هامساً.

عبرنا في البدء حارات ذوات بيوت متداخلة، وسماء الليل تبين فيها خطوطاً طولانية مكللة بالنجوم، بعيدة الغور، شوارعها خيالات، عطفاتها بقع اسفلت عميق السواد، لا انارة فيها إلا غمازات النجوم وهي تأتلق لثانية واحدة بذلك السيف الناري الذي يقطع الامداء العلوية المظلمة.

ما كنت متأكداً منه هو أن طريقنا كان يخرج رويداً رويداً عن تخوم المدينة: مزامير السيارات خفّت وغابت حركة الاطارات، الالتزاز بين البيوت تنحى فاسح المجال للعرصات الواسعة والفضاءات الارضية وضياع الازقة، فراحت السماء تقترب واخذ الخلاء يداعب اقدامنا، وما بيننا صمت لا يعكره بوم ولا تطير في جنباته حياة، وتلك هي الجبال: مع انني لا اراها، لكنني احسها، احسها كما لو كانت ماردا يقف ساتراً نفسه بطلسم حول طيات الليل إلى قمقم. لك ايتها الصخور الصم قلبي الواجف، وللمسرات ايام قابلة،

وسلاماً لك ايتها المدينة التي نغادرها خلسة. نغادرها إلى خان لم يظهر بعد، ومن بعيد تشق قمقم الليل اطلاقات نارية لا يسمع دويها، يرى منها فقط لمعان ذيولها. انتبه، فاجأني رفيقي هامساً، نحن على مشارف الخان.

خلاء شاسع وحمحمة بغال وهمس ورائحة، وسأغلق مجساتي واسبح دون وعي في هذا الخضم القادم. كانت ثمة انوار وظلمة وعتمات، كانت ثمة اشباح وخيالات واطياف. كان ثمة باب عريض أعرض من ورقة تين يتخيلها بزاق، يلتص بجانبيه سور من اللبن يضيع طرفاه في الظلام، وجدناه مفتوحاً فدخلناه. وراء الباب فسحة نحتتها شموع موقدة داخل غرف واطئة بلا ابواب. فسحة من الصعب ادراك اين تنتهي ولكن للغرف اسرارها ايضاً، لا تعرضها إلا لمن تنال ثقتهم، فهي تطوي اجنحتها على مهربين وهاربين وعصاة وثوار ومتطفلين ومغامرين وكسبة جاؤوا الخان تدفعهم اهواؤهم فوقفوا يتجادلون حول بضاعة او طريق. لا يستطيع غريب فك مغاليق اشاراتهم إذا لم يكن بضعة من المكان: من المدينة والجبال، من الارض التي اشعلت حروباً ورمّست جماجم، انمت فستقاً وأنشأت مسالك. غرف متآكلة مسقوفة بالجنفاص وخشب الجوز وعساليج العنب، تكومت امامها احمال واكداس من الصناديق واكياس تحتوي بضائع مهربة ستباع في مدن اخرى باضعاف اثمانها وبعملات غير التي نتعامل بها، يقف حولها ووسطها رجال غامضون، وعلى بعد امتار منهم تعنقدت مجموعات من البغال مجهزة للرحيل. عشرات العيون اللاصفة لبغال ورجال وحشرات ارضية تتمترس في ضفيرة المدينة، سيقع النهار القادم عليها وهي تدب في طريق ضيق او مضيق بين جبلين او رحاب مدينة صغيرة لا توجد في الخرائط.

قال صاحبي قف هنا ودعني اجد طريقي، وضاع بين البغال والرجال، لا شك انه ولج عديداً من الغرف وتكلم مع كثير من الرجال، فالقافلة متأهبة والقلوب ناطرة والليل عميق. لقد انتهى عهد، قلت لنفسي وتناولت ورقة

الاجازة من جيبي ثم مزقتها ارباً ارباً، وعلى اشعاعات الشموع الواهنة، الحزينة، رأيت المزق تتحدر بخفة على المياه الاسنة وروث البغال وآثار الاقدام وحرشفة الارض السميكة ذات الجوف الرطب. اين نقاط التفتيش،اين العساكر، اين قبضة المدن الحديدية، اين وحشة الموت في داخلي التي عانقتها آلاف الايام، لقد سقطت جميعها في بركة هذا الاسن المحاط باصابع الجبال. وبعد دقائق عاد صاحبي مع رجل مسلح يقود بغلاً داكن اللون، مثقلاً بالاحمال فقال لي اركب. فركبت. ارتقيت ظهر البغل وحشرت جسدي الناحل بين علب الكارتون واكياس النايلون ثم اتجهنا إلى قطيع بغال يقوده ممر مظلم إلى خارج الخان.

أنيتا

أنيتا: شوارع فسيحة تظللها اشجار، تظلل وروداً وحدائق ذات اسيجة واطئة، تسور بيوتاً من طابوق احمر سقوفها من آجر، تطل عليها نوافذ زينت بالتماثيل والاشكال الورقية واصص النباتات، ستائرها ساتان أبيض كثيراً ما اتخذ شكل قلب ضخم او وردة هائلة الاوراق او حجاب قماشي مزهر. انيتا بطة برية تطير برشاقة من بحيرة إلى اخرى يهيمن عليها امان ويوجهها هاجس التزاوج والمرح واللعب. اضواء مدن، انفساح خمور، ضحكات صبايا، قبل سريعة تُقتطف في الزوايا وخبايا الأبواب، تحليقات منائر، كنائس وابراج بيوت تداعب بآجرها الاخضر راحات السماء أو جدائل الغيوم وهي تنث قطرها على الارض. انيتا غربتي وشوقي الفذ، انسلاخات عواطفي القديمة وهي تنحل طبقة طبقة تاركة اياي جسداً طرياً عارياً يشف في الهواء الرقيق. تساقط وفر هي، ابجديات جديدة، حكايات تنتال ليلاً على قدح من الجعة في حانات كراسيها من الخشب ونوافذها تأسر الابصار إلى نقوش وتكوينات هندسية وايقونات لاهية لوّنها رسامون مجهولو الهوية.

انيتا الاعاصير الباردة الهابة من الدائرة القطبية ودببة الغابات بفرائها الابيض والجزر المتناثرة مثل افكار قلقة على مفارش البحار وهي تختض فتنبسط مرة نحو الارض وتنقبض اخرى ملتمة على نفسها كقطة خائفة. انها القطارات

المنسلة خارج المدن ليلاً ونهاراً، التي تفتض بعجلاتها الحديد سهوب القمح وغابات الزان والقرى الصغيرة المتجمعة فوق تلة أو حول كنيسة لما تزل بصمات الفايكنغ على بوابتها الخارجية واحجارها وخشب ابوابها السميك الذي احالته السنون إلى كتل سود عديمة الشكل.

* * *

كان القطار يجتاز بي أراضياً وسهوباً معشوشبة ذات انبساطات تسيل في كل اتجاه دون ان توقفها تلة او منحدر او جبل، يخترق بي الغابات الصنوبرية عابراً قنطرة او جسراً كما لو كان مارداً فالتاً من هيمنة طلاسمه، تعبر القرى بي مثل اطياف وتجتازني المدن كأنها صور من الخيال.

ارى انيتا في ذرى الاشجار وعلى سنابل القمح واوراق الخريفات الماضية المنعجنة جنب السكة بالطين والورود الفاقعة الالوان والحصى العتيق وبقايا العشب وقد ابادته اشعة شمس صيفية نادرة. كتبت لي بأول رسالة لها بان من الصعب جداً التفريق بين الصداقة والحب، فكلاهما ميل وود ورغبة. لم تصرح بحبها، كعادتها، لكنها اوحت به، وتركتني ساهراً طوال ليلة كاملة اروم الوصول إلى مكنونات قلبها. وكان ردي انني تعلقت بها، افكر بها دائماً، امضي نهاري محدقاً بزرقة البحر وامواجه الغامضة العميقة الغور حالماً بعينيها.

كتبتُ: رأيت التماعة عينيك في الحصى المنزوي تحت اجراف الجزر، في الرمال التي تبدو متشابهة بحبيباتها الزرقاء والصفراء والحمراء والسوداء والمبقعة الثاوية تحت رحمة مد وجزر دائم الحدوث، فوق سقوف القش، حول النوافذ المؤطرة بالتعازيم والتعاويذ الواقية من الحساد، عيناك اللتان تقدحان في ليل غرفتي مثل مصباحين كانتا هما الانيس والعشق والتجربة.

نجوم الليل،اضواء المصايح البعيدة، نوارات الازهار البرية، التماعات الموج المكللة بالزبد، الصور البائدة، اغلفة الكتب المطلسمة، الخواطر المتواترة المتواردة

على الاذهان، شموع الاحتفالات، براويز النوافذ المغلقة، تجليات الارواح المغامرة، كلها عيون محبة، وعيناك تميمتاي.

كانت رسائلها تتراقص امام بصري، فكيف اواجه انيتا بعد ذلك البوح، مني ومنها. كتبت لها انني ارغب العيش معها، وطلبت منها القدوم لزيارتي، وكان جوابها في آخر رسالة مراوغاً كعادتها، اخبرتني انها تكتب إليّ وبين يديها قدح نبيذ وقد خرجت تواً من الحمام. زوجها خارج البيت وشعرت برغبة ملحة لرؤيتي والحديث معي، ثم سردتْ هموم العمل ومشاغل الحياة: لا يفهمونني، كتبت: يطلبون مني حل مشاكلهم بلحظة واحدة وأنا لست ساحرة كما تعلم. كل قومية ومزاجها، كل لغة واشارتها، كل بلد وخاصيته، عليّ أن اوفق بين التركي والايراني والفلسطيني والعراقي والشيلي والسريلانكي، سواء في السكن أو المدرسة أو الحفلة، وفي المكتب يحذروننا من اقامة صلات عميقة مع الاجانب (الجنسية خاصة) فماذا أعمل؟

كأن القطار درب ضيق تطبق عليه جبال، وكأنني شارد في بساتين التين والخوخ، وكأن السماء صحراء شاسعة اتيه بين ثناياها، والرجال والنساء والاطفال ينفذون من عربة إلى اخرى بأيديهم قناني بيرة وسندويشات وحقائب يدوية، اعبر اللحظات الج الامكنة في خدر ذهني لذيذ ذئاب واودية ورائحة عرار وسراب ونخيل له تاجات من مراوح سعف وانعكاسات اشعة لشمس تائهة مثلي في صحراء شاسعة تتجلى فيها انيتا سُوقي وغربتي.

ـ يا ابا ليلى ماذا أفعل؟

ـ كن جريئاً، فالنساء ينالهن الجرىء.

ـ أنا خجل يا صاحبي.

ـ انت في بلد البحارة وقباطنة المحيطات. فايكنغ فايكنغ فايكنغ.

فتحت عينيّ على محطة غرينو: محطة صغيرة ذات سقف مخروطي نبتت بين فراغاته سويقات عشب غضة. كانت نسيمات البحر القادمة من

الفضاءات المفتوحة تهزها هزاً خفيفاً، واستطعت أن المح نحلة عسلية الجناحين تطير فوقها غير عابئة بضوضاء القطارات والركاب. محطة غرينو لم تزل كما عهدتها: ازواج مدمني الخمرة يجلسون على مقاعد الخشب المتوزعة على امتداد الواجهة الخارجية، ومنتظرون ينظرون ساعاتهم بقلق، واطفال متمددون في عرباتهم الانيقة يحدقون إلى البشر بدهشة. مدمنون: شعورهم صفر، بأيديهم قناني البيرة والنبيذ، اذرعهم عارية واكتافهم، تزين سواعدهم ورقابهم وصدورهم تماسيح وفراشات برؤوس حيوانية وافيال ارجلها مخالب وخيول افواهها ابر عقربية واشباح بارزة الاسنان واسماك طيارة واقزام ومخلوقات خرافية ترتعش سكرانة بوهج الاصيل وثمالات القناني وحركة الاجساد المنفعلة المفاجئة التي لم تعد تجلب لي أية غرابة أو خوف كما حدث لي في بدايات معرفتي للمدينة ولقائي بأنيتا، ثمة كذلك فتيات حليقات الرأس يرتدين بناطيل ممزقة، عيونهن مصبوغة بالازرق الذي يضفي عليهن مسحة السحر، وكأن المحطة غافلة عن الزمن، والبشر هم البشر وأنا المتحرك الوحيد، هي كما عهدتها وقد كانت مكاننا المفضل لانتظار الباص ثم إلى حيث البيت الكبير.

• • •

يقع البيت الكبير في قرية لا تتجاوز بيوتها العشرين بيتاً، شوارعها ضيقة قصيرة تشعر السائر فيها كما لو ان عشرات العيون تحدق به: من الشبابيك، خلف الستائر، خلل الثقوب، من وراء فيلة العاج وغزالات الرنة والافراس والزرافات القطن والعصافير والاصص المكتظة بها النوافذ والابواب الزجاجية.

قالت انيتا: حياتنا بيوتنا، فالغرف حدائق والمطابخ مطاعم والتلفزيونات فضاءاتنا على العالم. قالت: انها قرية المتقاعدين الذين يفضلون الانزواء بعيداً عن ضوضاء الشوارع والبارات والمقاهي ليتأملوا حيواتهم الماضية ومسارب الموت التي ستقودهم قريباً إلى القبور. الحقول هنا تصفيّ الهواء وتستجلب الطيور وتفرش السكينة على نفوس البشر، ومنظر البحر القريب بحصاه وقواقعه

واسماكه وخلوده يجلب السعادة ومسرات الروح.

سطوة العيون لم تردعني عن مرافقة انيتا حين دعتني إلى جولة في القرية، فعليّ اكتشاف موضع قدمي منذ الآن قلت لنفسي، وعليّ أن اقتض هذا الوجود الغريب المحبوك من اصص وعيون متلصصة وغابات وسقوف من آجر احمر وذكريات بحارة فاتكين كان يفطرون على رائحة الدم ويغمضون اجفانهم على الرائحة نفسها.

كانت عجيزتها تحتك فخذي كلما ملنا لاجتياز قنطرة او قطع شارع. اشارتْ إلى الغابات المحيطة بالقرية. وقالت: قبل مئة سنة كانت مسكونة بالدببة والذئاب والثعالب إلا أن المدينة اكلتها قطعة فقطعة، حولتها إلى باقات صنوبر وزعرور بري وكستناء ملتمة على بعضها، مشمورة على حافات الحقول.

ارتني خيط البحر وقالت: كان ذات مرة مرفأ لعشرات السفن، اشرعتها بيض كأثواب العرائس.

نحن اشرعة تتخبط في محيطات من مياه ملغومة بالحياة، كلما غادرنا مرفأ تاه عنا آخر، لا يخدعنك الركود.

نحن قواقع جففتها السنون، رمال منسية على ساحل غير مكتشف، خشية كانت حيزوما لمغامر اسكندنافي.

خمورنا ثرة واشجارنا يانعة وسماؤنا دانية ونساؤنا ذهب، فهل لي علاقة مع امرأة دنماركية؟ سألتني. جدار الكنيسة يلقي ظله علينا وكنا جالسين على صخرة ضخمة قرب السياج الحديدي، والقرية ببيوتها العشرين تحت ابصارنا هادئة ساكنة بدت شوارعها مثل لعبة اطفال وكانت رائحة القراص والنفل واشجار السرخس القريبة تفرض حضورها علينا. والبيت الكبير يجذبني فاتخيل قاطنيه: ابا ليلى، جعفراً رياضاً، اسماعيل، إلى آخر الشلة وهم يعدون

عشاءهم وسط ضجة السكاكين والقدور ورائحة البصل.

لم أجب على سؤالها، إنما سألتها وعيناي تنغل في حدقتيها: هل لديك صديق أجنبي؟

لكني متزوجة يا سليم!

لم تروم الانتقال من المدينة؟

لا استطيع العيش في البيت الكبير، القاطنون معي معظمهم افاقون.

نجد لك غرفة في غرينو.

لا استطيع، سأراهم في المدرسة والمكتب والمقهى والمحطة، غرينو مدينة صغيرة ولا مهرب. ارغب ان اعيش في مدينة اكبر، ذات اضواء ومباهج، يمكنني الضياع فيها كما يحلو لي.

ثم امتد الصمت بيننا، الكنيسة صامتة والعصافير والشوارع ومالبد الصنوبر ووجه انيتا الطويل المصقول الذي يتدلى على صفحتيه قرطان من عاج، احفورتان لدائرتي الضوء والظلمة المأخوذتين عن اصول هندية بائدة.

لا بد أنكِ سمعت بالمعركة التي حدثت قبل يومين؟

اجل، لكن كل انسان ويؤخذ بجريرته.

ثم امتد الصمت بيننا، وراحت الشمس تغور خلف ساحل غيمة شاردة، ملتقطة ضوءها من سقوف القرميد وزجاج الشبابيك واغصان الزعرور وتويجات الورود المتوزعة على حافات السياجات واركان الابواب وخشب الحظائر.

تأخرت، سأعود إلى البيت.

لأنيتا رائحة التوت الارضي، ومذاق الشوكولاتة، وسوف لن تهرب مني أبداً. ثمة الكثير ينتظر الاكتشاف في هذا البلد.

* * *

قاعة واسعة، زُين سقفها بأوراق ملونة وشرائط على هيئة قلوب وبالونات فاقعة الالوان تتأرجح في الفضاء المضاء بأنوار شموع صفت اربعاً اربعا على الطاولات، والطاولات صفت صفين وسط القاعة بينما غطيت سطوحها بورق ابيض تبعثرت عليه الكؤوس والملاعق والسكاكين والاشواك. عند المقدمة منصة خشبية واسعة قيل لي انها ستكون حلبة للرقص، وكان الجدار القائم خلف الحلبة يحمل لافتتين بثلاث لغات، العربية والانجليزية والدنماركية ترحب جميعها باللاجئين الجدد الذين وصلوا غرينو قبل يوم.

وفي زاوية القاعة كانت الموسيقى تنبعث من مسجل ضخم يقف عليه شاب فلسطيني يبدل الشريط تلو الشريط، وقد اختلطت موسيقى الشرق بموسيقى الغرب: فيروز، ام كلثوم، الفس برسلي، بوب مارلي، فرقة آبا، طوني حنا، ومغني الدنمارك الشهير كيم لارسن.

كنت جالساً مع ابي ليلى ورياض وجعفر قبل معركة السكاكين بينهما، وتشيع في وسط القاعة ضوضاء هائلة خليطة هي من اصوات الحضور والموسيقى وطبطبة الخطى المتنقلة بين الطاولات، وكان الحضور مزيجاً من اللاجئين الجدد والقدامى وموظفي مكتب استقبال اللاجئين والفضوليين من اهل المدينة، وكان الوجه الانثوي الوحيد المألوف لدي هو وجه انيتا. تمنطقتْ ببدلة طويلة وردية، وحزام أحمر يلتف على خصرها الناحل ابرز عجيزتها شاسعة مستديرة شهية، وقد انحدر شعرها الداكن على صفحتي وجهها فتبدّتْ لي مثل ساحرة شمالية خارجة للتو من عتمة الغابات. تدور على المنصة بصحبة شاب فلسطيني اعرفه.

لم استطع رفع عيني عن حافات تنورتها، عن الق خديها، عن جسدها الافعواني المعلب بالشهوة. ألاحقها بين الراقصين، افتش عن عينيها الشملتين، وجيدها المرمري، ويبدو ان كهرباء نظراتي لسعت وجهها بتيارها الصاعق، المستمر، المتوالي الاصرار، نظراتي الجادة الغريبة، فشعرت انها ارتبكت وتعثرت

خطواتها، وهي تحاول اخفاء جسدها خلف جسد مراقصها، متوغلة معه في بحر الحاضرين إلى الطرف الآخر من الحلبة.

كانت الخمرة تسري في الرؤوس، تنزع اغلفة الخوف والتردد غلافاً غلافاً، وكان الوقت يمشي بطيئاً على وجوه البشر، يزيد من جرأة الرجال ويلاشي مقاومة النساء في لعبة تدور حولي وفيّ، تدور في عتمة الشموع وظلال الراقصين واشارات الجالسين.

شاب اسود الشعر وامرأة شقراء يتعانقان قرب المدخل بلذة: على الطاولة القريبة منا جلست امرأة في منتصف العمر قميصها مفتوح عند الصدر يكشف عن كنزين عامرين، وهي تداعب باصابعها وجه رجل يرتدي زياً موحداً ازرق ورمادي، ربطة عنقه انيقة جداً وشعره منكوش على طريقة الزنوج كان يبتسم لها مشجعاً.

ـ دبْ، قال لي ابو ليلى، فالنساء كثر لا يمانعن، فقد دبت الخمرة في الرؤوس.

اغلفة حيائي سميكة لم تزل، كأنها طبقات صخور كلسية حجرها مرور الزمن، فبقيت في مكاني ملتصقاً بخشب الطاولة محاولاً غرز قدمي في الارض اعمق فاعمق، وكانت اقدام الراقصين قد تخلصت من شكها وتلكؤها فراحت تنساب على وتيرة متناسقة، الايادي تشتبك حول الخصور، تملس الاكتاف، تداعب الوجوه والشعر. الموسيقى مثل ليل طيفي تتغلغل في الارواح واحسها تمزق خلاياي وتنفذ إلى الدم، بادئة رحلتها نحو قلبي.

انيتا تكرع كؤوس النبيذ مع شلة من موظفي المكتب، وتخالسني النظرات بين الفينة واختها. الموسيقى تشف عن افق. دب يقول لي ابو ليلى، وحرائق البحارة تشب في جسدي، ارغب ان امسك خصرها، اتأمل عينيها الناعستين، ارتشف خلسة قبلة منها، اريدها أن ترقّصني انا الغريب على الرقص، الضامىء

إلى حركة الجسد، المتشوق إلى امراة بضة امارس عليها رجولتي. فكرت ان اقوم اليها وادعوها لمراقصتي، ثم اقنعت روحي بأن عليّ أن اشرب مزيداً من الخمرة، مزيداً من فقدان التوازن والخفة والطيش والتحليق، فالاغلفة سميكة لم تزل.

ما اشاع فيّ العجب انها هي التي بادرت، جاءت إلي مثل بجعة تياهة بحلتها ودعتني إلى الحلبة.

مدت يدها وجرتني خلفها.

عارياً شعرت نفسي، الناس يحدقون بي، بملابسي، بشعري، بلمسة الاصابع المكشوفة التي اقدمت عليها انيتا.

مغموراً بحرير الموسيقى، هائماً بخيالاتي سابحاً في غيوم العطر، راقصت انيتا على اضواء الشموع وغمر النعاس وتوهجات العيون اللاصفة يحيطنا بها الراقصون، همست في اذنها، قودني انا الجاهل باصول رقصكم، فهي المرة الاولى التي ارقص فيها مع امرأة: قالت وانفاسها تفتح خزائن شهواتي باصبع سحري، انس العيون المحدقة وعش الموسيقى بكل خلاياك واجعل مفاصلك تجد هويتها. الوقت وقتي اذن، وقت للتحديق، للغوص في غيهب الاحداق، لشرب البحر من زرقة هالة قمرية لا تُنال إلا في الخيال، وكنت اخشى قربها، واهرب من تماس الجسد، احجم حين تقدم، وادور حولها حيث ينبغي الالتصاق، وانيتا تراقصني كأنها فراشة نزقة، حرة، فرحة بطيرانها الخلاق.

مع انيتا عشت المدينة بأدق تفاصيلها، لكني لم اكن اعرف ما يدور بذهنها، كنا نتهرب من الكشف.

في كنيسة بأحدى القرى وجدت نفسي معها مرة أخرى، امام عشرات الفلاحين والقاطنين من كبار السن. كنت عرضة للأسئلة: لماذا جئت إلى البلد وكيف وصلت وماهي مشاعري تجاه الحياة هنا وكنا جالسين قرب تمثال ذهبي ليسوع متوج بتاج من الشوك، والاضواء تحيل البشرات إلى كتل شمعية غريبة.

غمضة عين وإذا الكنيسة كوخ فسيح من سيقان الصنوبر وإذا الجالسون محاربون يرتدون جلود الغزلان والدببة، وانا واحد من اتباع زنكي او صلاح الدين، جندرمة في جيش محمد الفاتح، فارس من فرسان المرّيين الذين روعوا سهوب ايريا، احسست نفسي وحيداً معباً بتاريخي الطويل، اجيب على اسئلة ظلت تتراكم فوق بعضها قروناً بعد قرون. الكلام يدور ويتشعب، عن الاهل والنساء والدين والمدن، وكانت انيتا هي القبطان الذي يوفق دوماً في قيادة السفينة إلى بر الامان. قبطان متمرس بالامزجة، بخرائط الارواح، بنزق الرغبات السرية الدفينة.

قبل اسبوع من رحيلي عن المدينة جاءت انيتا إلى البيت صباحاً لتفريغ علبة التلفون العمومي المعلق في صالة الجلوس من النقود، وكنت وابو ليلى متأهبين لمغادرة البيت الكبير عازمين زيارة الساحل لجمع القواقع والاصداف. كانت تلبس الجينز الازرق وتنشر شعرها على كتفيها ذيل حصان وثدياها بارزان مثل تفاحتين ناضجتين. جلست قربي على الاريكة وبدأت اقص عليها مغامراتنا الريفية، كما اسماها ابوليلى: نخرج صباحاً مع الخبز والسمك المعلب والبصل الطازج على دراجتين هوائيتين نزور القرى المجاورة نكتشف الابنية العتيقة وندخل حانات الفلاحين المزينة الجدران بالصور الزيتية ومناظر البحار المكتظة بالسفن وبورتريهات النبلاء الذين قضوا منذ عشرات عشرات السنين وظلت ذكرياتهم شاحبة خابية لكنها عالقة في الاذهان. نتجول على السواحل الرملية لاصطياد المحار والحصى الملون والقواقع واللقي القديمة، التي كان يشكل منها ابو ليلى مجاميع زجاجية خلابة الالوان يريد ان يحتفظ بها لابنائه واحفاده. كنا نسمع زعقات منكرة تقصدنا، وصرخات استهزاء واشارات بذيئة ورموزاً توحي بالاستغراب والدهشة، فما الذي يفعله شخصان اسودا الشعر اسمرا البشرة وسط اجمات الصنوبر واعشاش اللقالق وغيطان العفص؟ كنت قادراً على ان استرسل بقصصي لانيتا ساعات وساعات الا انها اوقفتني باشارة من اصبعها وقالت:

سأرجع إلى المكتب الآن تأخر الوقت.

رافقناها انا وابو ليلى خارج سياج الخشب حيث تقف سيارتها الصغيرة، وقبل أن تلج السيارة قالت:

ـ ثمة حانة قريبة يعرضون فيها رقصات فولكلورية كل مساء جمعة، هل ترغبان الذهاب؟

ـ أود ذلك كثيراً. اجاب ابو ليلى.

ودون أن تنتظر جوابي أنا الآخر قالت ضاحكة:

ـ سأعرج على البيت الكبير الساعة الثامنة.

وشاهدت عينيها الخضراوين ترمقانني خلل مرآة السيارة.

• • •

وجدنا طاولة جوار الباب، نشرف منها على الصالة الداخلية التي لم تكتظ بعد.

كؤوس تتلامع، اشعة، زجاجات سوائلها تضيء مركومة على أرفف خشبية خلف رجل ناعم القسمات مكتنز الساعدين، كان يوزع المشروبات على الجالسين، صندوق موسيقي لا أراه، يصدح باغانيه فيملأ الجو بشحنة من خدر. دخان، روائح، ضحكات صخابة، ولا أثر للرقص الشعبي الذي وعدتنا به انيتا.

اخبرتها انني سأسافر الاثنين، وستنتظرني في المدينة الجديدة صداقات وعيون وشوارع وطيور وحيوات عليّ اكتشافها كما جرى لي هنا، في مدينة غرينو.

ولمحت في عينيها ظلالاً من التوسل، من الاسف المندلق مع اقداح البيرة.

تلتز وتنبسط اساريرها، ثم تدس قدميها بين رجليّ، ثم تتوهج دواخلها فتتلامس ايادينا بانجذاب روحي نكتمه. همس لي ابو ليلى: لا تدع انيتا تشرب كثيراً فهي التي ستقود السيارة.

لكن أبا ليلى كان يكرع الكؤوس دون روية.

ينفتح الباب فتهب نسمة باردة قادمة من الخلاء، محملة بملح البحر واريج الازهار المرفوعة القدود على الاسيجة، محملة باوهام ليل الشمال المكتنز بالاساطير فينزاح الدخان بغتة ويهرب من بين درفتي الباب. ولا يلبث الباب إلا ثواني حتى ينطبق مرة أخرى على عالمنا الغريب، عالم الحديث المخاتل والنساء الثملات والنادل الدائب الدوران باقداحه ودوارقه واطاييبه. نسيت النظرات المريبة والايماءات غير المفهومة ودسست مجساتي في الجالسة قربي، لم افكر بمد يد او تقبيل شفة أو ملامسة شعر، القرب منها يكفي، فالنظرات الحانية والاحتكاكات المقصودة والتنهدات العميقة لا تعني سوى نفسها، هي وحدها المتعة المطلقة.

زجاجات خمرة، زهور فاقعة الالوان، تتوسط الطاولات، أياد تتلامس، ارجل تداعب بعضها، ونساء يغادرن اماكنهن لتجديد البودرة وكحل العيون وحمرة الشفاه ورش السوائل المعطرة للفم المزيلة لطعم السجائر. رؤوس سابحة بزبد الخمرة وانعكاسات النبيذ وفوح الكحول: هي ليلة الشمال ذات الاهواء غير المألوفة، ليلة عنبيات الخدود، وزجاجات الكرستال وهي تزيح شعاعاً من هنا لتسقطه هناك على تمثال لاودن او راس لفرايا او خشبة مصممة على هيئة عضو ذكري كان مقدساً عشرات القرون في الكهوف الباردة والغابات الصقيعية والقرى.

ـ دعنا نرحل، لقد سكرت، وقال النادل ان فرقة الرقص الشعبي لن تأتي الليلة.

جاءني صوت ابي ليلى من بعيد، من غياهب ضياعي الساحر بين العيون والطاولات وروائح الليل، لقد سكر ابو ليلى فعلاً، وسوف لن يحس بوجود شيء اسمه حلقة الليل المضيئة، نسيم منتصف الظلام الحامل للبعوض والحشرات الطائرة. لن ترى عيناه صفوف المصابيح تتعاقب على خيالاتنا

الحالمة، والحانة تنأى خلفنا وتغور في لجج الضباب والغابات. السكون شامل والخمرة مهرج يرقص بين العظام، ونور الشرق تفاحة مقشرة.

كان الصمت جليلاً فيما بيننا.

سأفتقدك، همست لي ونحن نهم مغادرة سيارتها امام البوابة، وكانت ظلال التفاح لما تزل تهيم بخيوط العتمة وشجرة الزعرور البري ايقظت عصافيرها، وكان رأسها منكساً على المقود، وشعرها هاطلاً على ركبتيها.

فعلاً، كانت ايامنا جميلة، قلت لها، اكتبي لي ان كنت راغبة، وفتحت بابي ونزلت.

هل كانت تنتظر قبلتي؟

• • •

بدأت المحاكمة صباح اليوم الثاني لوصولي إلى غرينو، وكنت واحداً من الشهود.

عرض علي المحقق سكيناً طويلة وسألني ان كانت هي نفسها التي استخدمها رياض في طعن جعفر، تلك الليلة التي لا تنسى في البيت الكبير. ليلة من دم وفضيحة وتوحش، كانت واحداً من الاسباب التي حدت بي إلى الانتقال من غرينو.

اجبت بالنفي، فالسكين التي رأيتها وقت المعركة كانت صغيرة، لا يبرز من كف رياض إلا رأس نصلها.

وتبين لنا فيما بعد ان المعركة حصلت بينهما بسبب فتاة دأبت على زيارة جعفر مرتين في الاسبوع.

وهكذا لم يدم وجودي في المحكمة إلا لحظات. وأول ما لفظني باب البناية قررت المضي إلى مكتب مساعدة اللاجئين، الواقع في شارع ابي الهول.

قادني الدرج الضيق، ذو المحجر الاحمر والخشب الاملس إلى صالة المكتب الواسعة. قلبي يدق بعنف بين اضلاعي وتخيلت الدهشة العارمة التي ستلبس وجه انيتا، غير انني لم اجدها هناك. قالت لي موظفة الاستعلامات انها مضت إلى بيت الفلسطينيين، ولن تعود قبل الثالثة.

رجعت خائباً إلى البيت الكبير.

في البيت اخبرني جعفر ان المحكمة أودعت رياضاً السجن لشهر واحد مع غرامة الف كرونة.

اجتمعنا امام البيت قرب شجرة الكرز ورحنا نعد النار لشي بطة سمينة اصطدناها ليلة البارحة انا وابو ليلى من احدى البحيرات القريبة من القرية، وكلما رن الهاتف في الصالة اهمز من مكاني ظاناً أنها انيتا. لكن انيتا لم تتصل إلا حوالي الخامسة عصراً. اخبرتني انها لن تستطيع رؤيتي اليوم ولا غداً، غير انها ستدعوني إلى بيتها بعد غد، فزوجها مسافر إلى العاصمة، وحددت لي مقهى الزهرة القريب من المحطة مكاناً للقاء. الساعة السادسة، لا تنس ذلك. ثم اغلقت السماعة على عجل.

• • •

نحن نتجه إلى بيتها، بيت من لاحت لي على اوراق الاشجار ،وقناطر الطرق وبصيلات التيولب الغضة، على حصى الفايكنغ الذي توهجت حمرة دماء البحارة في عروقه، على ابراج الحمام وفي حيرتي المستولية علي منذ دخولي هذا البلد. لا كلام، فكل واحد منا يعيش في خريطة افكاره، هي في الطريق وأنا حولي: غابات مستنقعية تتخللها طرق ترابية تحنو عليها اماليد طائشة لصفصاف واثل وسرو وعفص، شوارع فسيحة فارغة تتناهبها السهوب من كل الجهات، ومداخن تنفث هواء ازرق يتلوى فوق التلال.

هل حضرت المحكمة؟

لأجل، حكموا على رياض شهراً بالسجن مع غرامة الف كرونة.
ـ لقد كتبوا عن الحادثة في صحيفة غرينو.
ـ لا تلوميني لو غادرت المدينة.

بعد انعطافة واسعة للطريق الترابي، وبعد خروجنا من غابة مكتظة بالاشجار، اشارت انيتا إلى غيضة كثة يتوارى تحتها بيت كبير طابوقه احمر وسقوفه من آجر اسود، غابت منه اجزاء خلف دوالي الورق. قرب البيت بحيرة صغيرة معتمة الماء، عدا انسجة واهية من اشعة الشمس التي تسللت من الاشجار. اوقفت السيارة في الكراج خلف البيت وقالت لي بمرح: الليلة ليلتنا، نأكل ونشرب وننسى ما يجري وراء الجدران، فبادلتها الابتسام وانا شاك بمقصدها، متوجس من رأس انيتا الغامض الخطط. في الفضاء كرات متدحرجة على اجنحة الهواء من بعوض هائل الحجم، وبين لحظة وأخرى يمرق نورس في السماء او يغرد طير من مخبأ ما ثم يسود السكون. قالت لي ابتعت سمكاً صباح هذا اليوم من ميناء غرينو، سنضعه على النار ثم ننزل إلى البحيرة، ما رأيك؟

على الأرائك المخملية انطبعت رائحة انيتا، في الاصص المنسقة في الجدران استطيع أن ارى أصابعها الانيقة وقد درجت على التويجات وانصال الورق وحبيبات التربة، وكان حضور انيتا داخل البيت يلغي كل حضور آخر للذكور عداي، لم يدر طيف زوجها على ذهني، ولم أسألها عن الموضوع وقررت أن لا أغامر بذلك. الليلة ليلتنا، هي التي صرحت بهذا، وما علي سوى الاستمتاع.

وضعنا السمك في طنجرة كبيرة سوداء مع قطع البطاطا والكزبرة والزيتون ثم سكبنا عليه زيت ذرة ثم اعددنا ناراً هادئة على طباخ الغاز ثم تناولت انيتا قنينة نبيذ أحمر، ثم ناولتني كأسين بلوريين وقالت دعنا نخرج.

جلسنا على حافة البحيرة، جلسة عاشقين وقد خلا لهما الجو وصفت نفوسهما وهي تتأهب لمنح كل شيء، تتأهب للانفلات خارج المعايير

والممنوعات ولغط الاشاعات والرقباء. في المياه الصافية خيوط سبايروجيرية تدوم واشنات تخضها قرب السطح ضفادع كبيرة ترمقنا بعيون الوهم والخوف، ووسط الانسجة المشعة لضياء الشمس الساقط على صفحة البحيرة تراقصت دوائر ناعمة سببتها حصاة قذفتها انيتا بينما كانت تروي لي معاناتها مع الغرباء، كما كانت تسمينا. حديثها يسيل نحوي رصيناً مرة عابثاً اخرى، وانا المتوج بالشوق لشفتيها اصغي ولا افهم، فذهني لا يلاحق الكلمات ولا يربط الافكار، انما منغمر كلية بالجيد والرقبة والشفتين والعجيزة الغائصة في وحل العشب وسيقان الخباز وقش البيت. حواسي مركزة على تلك اللحظة المنتظرة، اللحظة التي سأطبق بها على شفتيها، وادخلها جسداً وروحاً إلى فرن رغباتي وشهوتي.

زمرد الدب، تويجات اقحوانية ذات شرائط زهرية، اعتمت. لاتنساني، الجرس الازرق، زهرة الحليب،قبعة السيدة، عرف الديك، باشواكها الخيطية الهاوية إلى تربة سوداء مرقشة بديدان عتيقة: اعتمت زهور ونامت احاسيس وتجلت ميول عميقة الغور واشرأبت الظلال وتناوحت فاختات تحت غصن مكسور. بحر من الروائح كان يغري خطاناً، دافعاً بها إلى طريق ضيق، يقود إلى الموقد: هنا نشوي ايام الاحتفالات ورأس السنة والعطلة الصيفية: بطاً، اضلاع اغنام، سجقاً المانيا متبلاً بالثوم، افخاذ خنازير برية نصطادها في الغابات المحيطة بغرينو، وهنا ايضاً كانت عواطفنا تشوى مع بعضها حين يصاعد الثمل والخدر ليفرشا مناحاتهما في الخلايا. الموقد جدران طابوق مبلطة بالاسمنت تقيبها قضبان حديدية مسودة، تنتصب قربه شجرة جوز شمالي تدلت اغصانها مشكلة تاجاً مفلطحاً حجب عنا السماء ورسم عتمة غامقة على مصاطب الجلوس المتقابلة التي تقوم بينها طاولات من الخشب المشقق، بدت آثار الحروق واضحة عليه: سجائرنا، قالت، حين نثمل، واماكن اسياخنا حين تنسينا القبل جمر الموقد. نرقص ونغني جماعات جماعات، هناك بيت السيد شولتز بسقيفته المهلهلة، إذ هربت زوجته إلى مدينة في الجنوب مع رجل

آخر، وهناك بيت السيدة نلسن، وهي ارملة جاوزت الستين لكنها تعشق الاحتفالات وخمرة البطاطا، وعلى مسافة خمسة كيلومترات يقع البيت الذي التقيت فيه بزوجي. كان ذلك قبل خمس سنوات: بيت جماعي، لكل شخص غرفة، نطبخ سوية، نأكل سوية، ننظف البيت سوية، نزرع حديقة البيت بالورود والعشب والخضرات سوية لمطبخنا. حتى عواطفنا كانت جماعية، إلا أن الايام تمضي ونعود إلى ذلك القانون الابدي، قانون البشرية الذي لا مهرب منه، ألا وهو إن لكل امرىء بيتاً، لكل عائلة سقف واحد يظلها واطفال وقطط وهموم.

يا للظلال العاقة، سقطت دفعة واحدة: كتة سوداء باردة، تلمست بالسنتها بحيرة الماء جزءاً فجزئاً ونشرت جدائلها على واجهات البيت وسقوفه ورازوناته ونوافذه، بجوفها الهائل تريد أن تحيل الموجودات إلى كتلة واحدة. كنا ايضاً موضوع رغباتها العاقة، فما كان منا إلا أن دسسنا القنينة الفارغة تحت سقيفة الطيور وتوجهنا إلى داخل البيت، مخلفين وراءنا كتلة من الحيوانات الظلامية والحشرات القطبية والخيالات الفلاحية المتوارثة جيلاً بعد جيل.

اشعلنا الشموع على الطاولة ونثرنا بعضها في مسطحات النوافذ والممرات والاروقة المسترخية على فراغها، ثم اطفأنا نار طباخنا وكشفنا غطاء الطنجرة ففاحت رائحة السمك لذيذة شهية خالدة. بعينيها المتوهجتين قابلتني على الطاولة، جرعة من نبيذ ابيض وشريحة من سمك القد، لا ينقصها سوى قبلة انيتا. رأسانا ينوسان في انوار الشموع والظلال تتراقص تميل حيناً إلى النافذة وحينا تتكسر على الاقداح المرصوصة في خزانة قديمة. قالت انها تشك بوفاء زوجها، ولا تستغرب انه الليلة يبيت في حضن من الاحضان. ان نساءنا يتفنن باصطياد الرجال، خاصة حين تدب الخمرة في الرؤوس. اقترحت على انيتا ان نتحول عن طاولة الطعام إلى الاريكة، فوافقت. اريكة مخمل خضراء تحتل الركن المواجه للنافذة، يمكن للجالس عليها من مشاهدة عتمة المساء المخيمة

على الكون ووحشة الصفصاف والبعوض المصطفق في ذرى الشربين. سأصطادها الآن، فهي فرصتي الاخيرة، وقد قربت الاريكة ما بين جسدينا وحلقت بنا الخمرة إلى دنيا الخيال والهيام، اناملنا تحتك مع بعضها، وعجيزتها تلتز علي بقرب نشوة وسعي لذة، وكان الضوء يهتز في عيوننا وينير اعماقنا:

ـ انيتا، لقد اشتقت لك كثيراً، اشتقت لأن اعانقك، واحدق بشفتيك، واداعب شعرك. اللحظات التي عشناها سوية، مع قصرها، ومع ما حملته من غموض، إلا انها كانت اجمل الاوقات لي هنا.

كانت تحدق بي ذاهلة، عارية الروح، في ثوان نسينا فيها لون الشعر والعيون والبشرات ولامسنا ذلك القاع الانساني الذي نملكه جميعاً كبشر. كانت دهشة لهذا البوح،المنثال من عمق غائر لم تقاوم السقوط فيه.

ـ أنا كذلك.

همست بصوت خدر واهن من عشق ومن اشتهاء، ثم امالت رأسها نحوي واطبقت على شفتي.

كنت جاهزاً لانيتا بكل جوارحي، بكل توحداتي العميقة، بأيام الذكريات، بالهيامات المجنحة كأنها فراش، باشواقي الطافحة إلى امرأة امارس عليها رجولتي، فما لبثنا ان سقطنا، دون أن ندري في نفق الليل البهيم.

* * *

وعدتني انيتا انها ستكتب لي في اقرب فرصة. ستراجع مغامرتنا بحذر وأناة.

مضت سنة كاملة دون ان تكتب لي أنيتا.

لكنني وبعد تلك الليلة، احست أن روح هذا البلد قد تسللت إلى روحي مثل شعاع شمس.

احلام قاطن البيت

اصبح البيت مصنعاً للأحلام، يصبها بقالب بارد شتاء ويقذفها بلا رحمة في سماء نومه، او يذيبها صيفاً عجائن مروعة تلتصق بذهنه وتبلّ فراشه بعرق الرعب وماء الخوف. تتكرر كل ليلة بنسغ واحد، تتجمع بمجرى فريد وان اختلفت التفاصيل او تباين الزمن. صار يعرف ادق التفاصيل فيها، الروائح، الاماكن، الوجوه، الاشجار، الشوارع والفصول. احلام شبيهة باناء ضخم اختلط فيه الحاضر والماضي والتهويمات. ما عاد ثمة فواصل أو حدود بين بلد وآخر، مدينة وأخرى، بين رائحة ورائحة، بين صيف وشتاء. انها تحاصره بحضورها، تقطّع نومه، تعيش معه يوم صحوه حتى ظن ان البرودة التي تشيعها المدينة داخل البيت هي السبب. وقد سمع الكثير عما للجو من تأثير على الامزجة والاحلام، لا سيما وأن بيته المكون من غرفتين عاريتي الجدران يستحيل إلى ثلاجة حقيقية ايام الشتاء. ثلاجة لا تنفع معها تلكما السخانتان المائيان الموضوعان تحت نافذتي الغرفتين.

في الليل، وقبل أن ينام، كان يلقي نظرة عجلى على الشوارع، يلفيها مكتظة بالثلوج فيدرك ان جيش الاحلام المرعبة سيغزوه حتماً مثل كل ليلة. ينتابه الخوف من اطفاء النور، لا يجرؤ الاندساس في سريره ولا اغماض جفنيه، لأن ذلك يقوده بلا شك إلى دوامة الاحلام غير المفهومة. مازجة شك

بأن الفصول وتغير ايقاعاتها تدلّ الاحلام إلى رأسه كما تدل الاعمى عصاه. لكن الشتاء غادر المدينة واكتست الاشجار معاطف جديدة وتدثرت الارض بشرشفها الملون وما زالت الاحلام تغزوه. غادر الشتاء وحل الصيف، رحل الخريف وقدم الربيع، وظلت الاحلام هي نفسها، تلوث روحه وتنفث جثاماتها في نومه. كوابيسها صاخبة، شجر احداثها ملتف كث، روائحها نفاذة، عرقها ساح. هذا كله ادخل فيه القناعة بأن روحه النارية، الحديد المنصهر، التراب المتلظي بمعادنه، هي فلك تلك الاحلام. مادتها، منفاخها، عجينتها، ولا دخل للشبابيك العارية والشوارع الثلجية بالامر. لا دخل للفصول وجريانها ولا للوحدة الكئيبة المعششة في السرير وعلى الجدران وبلور المرآة المثبتة جنب السرير. نعم، ثمة مغناطيس فيه يجذب تلك الاحلام ويولّدها، يعجنها، يدمجها، ثم يسقطها في نومه ككرة من الزجاج تعرش في جوفها شجيرات احداث ناعمة الاغصان.

المرآة التي تبتسم

يمشي في شارع نظيف بخطوات متعثرةغير واثقة، تراصفت على جانبيه بيوت خفيضة من طابق واحد، ديكوراتها لطيفة ونوافذها واسعة لا يرى العابر من خلالها سوى الظلال والعتمة. تحف بتلك البيوت حدائق صغيرة منسقة فيها ورود مختلفة الالوان: صبار مزهر، لسان ثور، جوري مائل الخد، مشعشعة تميس على بساط من الثيل الاخضر المنسق بدقة. كان ثمة اشجار من السرو والدلب والكستناء تصفّي ضوء الشمس وتدخله بلطافة إلى الشبابيك البلورية.

في ذلك الشارع مارة غريبو الاطوار، وجوههم شقر وعيونهم خضر وشعورهم المسبلة تتعثر بالرموش والحواجب ويخضها النسيم مثل اشرعة وجلة. كانت وجوه المارة منبسطة راضية على عكسه هو، فقد كان يمشي بين تلك الحشود بتلكؤ، فالعيون مصوبة نحوه، مسمّرة اياه باشعاعات بصرية نافذة. مثل

هجس غير اكيد سمع احدهم يدمدم مع روحه حين حاذاه: خنزير اسود. آخر يقول بوضوح ثوم عفن الرائحة. ثالث كان يحمل مرآة طويلة يرتطم به ويشكل امامه حاجزاً لا يمكن اجتيازه إلا إذا حدق بالمرآة. يميل نحو اليسار فيميل امامه، يميل نحو اليمين فيلفي الرجل المرآة أيضاً. ما كان منه إلا أن يحدق، إلا أن يلبي رغبة ذلك الرجل: شعر اسود مفلفل يتجه إلى السماء، بشرة سمراء لوحتها عقود من الاشعة الشمسية، عينان سوداوان فيهما هزائم منكرة تتمترس وراء الجفون والاحداق. طير البجع الضال تأمل ما حولك، تقول المرآة، هل تجد بينهم شبهاً؟ ويتأمل فلا يجد، إنه يختلف عنهم. يبعد الرجل عن طريقه ويحاول الهروب من الطوق. تحاصره الاجساد، تحاصره الشقرة ويغرق في بحر من العيون الخضر والزرق، ولا تنفك النداءات تصخب بأذنيه: خنزير اسود، أين بيتك، ما الذي جاء بك إلى مدينتنا، ارحل. ولا يملك امام طغيان هذا السيل من الاصوات، هذا الحصار غير المرئي إلا الهروب. الركض دون الالتفات إلى البيوت والازهار والشارع المضيء بنظافته. انه يسرع للوصول إلى بيته، وبيته في نهاية الشارع تحت ضفيرة من الاشجار تجمعت على بعضها لتشكل بيضة هائلة الحجم يولد منها الشارع بكل تفاصيله.

يجد نفسه في البيت، يتنفس برخاوة ويتلمس شعره وبشرته وعينيه السوداوين، يرى مرآته جوار السرير ويلمح ابتسامتها المغرية. يقترب منها، يلمس بلورها، يداعب ملاستها، فتفتح له ذراعيها ويدخل فيها. تريه جلدته السمراء المذبوغة بثلاثة عقود من الشمس واطنان من الغبار الصيفي الجاف. ثم تبسط له خبايا روحه التي لم يطلع عليها بشر، ويحس بنعمة التواصل. تستدرجه إلى تهويماتها اللامعة وملاستها الدخانية، مادة له كتلة من الشعر الاصفر سبط الملمس ناعم التعرجات دقيق الجذور. تطلعه على عينين زرقاوين صافيتين رموشهما من الموسولين الاحمر، مركومتين على خزانة صغيرة من خشب الصندل كتب على رف من رفوفها اسم كارين. يرى العينين ويلمس

خصلة الشعر وتواتيه الفكرة، تنفتح امامه سبل القضاء على فرادته. يمضي فيها، يلجها. فقد حانت فرصة التحولات السرية التي لن يقع عليها احد. وبتلقائية وتواطىء مع المرآة يمد يده إلى الشعر الاسود فيقتلعه خصلة بعد خصلة، يكومه على ارضية الغرفة. والارضية من خشب الماهوغوني الرخيص تتلقف الشعر بين شقوقها وتدمجه بقلامات الشوائب والاوساخ المنسية. يضع الشعر الاصفر فينسدل على فوديه وصدغيه ثم يبادل المرآة نظرات حيرى، فهو لا يفقه ابتسامتها العالقة في البلور. لا يميز الانبساط من السخرية. وحين يلتفت إلى الخزانة يلفي العينين الزرقاوين تغمزان له وتغريانه بالاقتراب فيقرر المضي مع المرآة في لهوها. يلعب معها لعبة الاستبدال والالغاء. ينتزع عينيه السوداوين ويرميهما جنب شعره الاسود دون مبالاة بالدموع السائلة التي اخذت تنسكب منهما منداحة على الارضية وشقوقها. يلصق بعد لأي العينين الزرقاوين بمحجريه الفارغين ويتنفس برهافة وطمأنينة، فقد تمت المعجزة وهاهي المرآة تدله على شخصيته الجديدة. بشرة سمراء تطوقها هالة من الصفرة، ينفتق فيها ثقبان ازرقان برموش من الموسولين الاحمر. عيون زرق وشعر اصفر وحواجب سود وقلق متوهج متلاطم الامواج، وفم مزموم على مرارة ايام سود موغلة في القدم. نعم، تمت المعجزة وتشكلت هيئة اخرى. هيئة تنسجم مع ثلوج الشوارع واتساق البيوت والوجوه الخالية من التعابير.

الشوارع التي لا تنفذ

المقهى الجالس فيه ضيق يحتوي على ثلاثة ارائك فقط، يحتل هو واحدة منها نائية قرب الجدار الرابع المواجه للشارع. ازاءه موقد النار وقد ملأته اواني الشاي المتربعة على عرش من الجمر اللاهث المتلظي، يحس بحرارته تلفح وجهه وعينيه. قرب الموقد رصفت دلال قهوة عالية تعكس الضوء المنسكب من الباب الزجاجي المنفتح على شارع ضاج بحركة الناس. وثمة أيضاً سماور من الفضة على شكل جامع تراكمت على مآذنه سحب من الغبار نسي العامل

ازاحتها. الجالسون تلفهم ضوضاء عالية، وجوههم متوترة، طلباتهم من الشاي والدارسين لا تنقطع.

كان يحدق في الموقد مرة وفي الشارع المتكظ بالجنود مرة اخرى، وينبعث في داخله هاجس لا يدرك كنهه، يميز فيه مسحة خطر وتوقع مريب. العامل دائب الحركة بين الجالسين، والموقد متقد بحرارته، وقلبه معتصر بقبضة ذلك الهاجس المجهول. يزداد نبضه ويطرد مثل خيول مغيرة. ينفر الدم في وجهه وتزداد كثافة الجنود في الشارع ثم ينفتح الباب بغتة وتدخل ثلة من الشرطة العسكرية، متشابهة الوجوه، ملابسهم الكاكية تفح حرارة تشبه حرارة الموقد، ويلقي وجودهم المباغت القشعريرة في جسده. كان هاجسه على صواب اذن، وقلبه لم يخطىء رسالته.

الثلة ابتدأت التدقيق في الهويات ولكي يفاقموا رعبه أكثر، بادر واحد منهم واغلق الباب وراءه ووقف شاهراً مسدسه اللامع إلى الجالسين. انتشر الذعر في فضاء المقهى، شحبت التماعة دلال القهوة وخفتت التماعات الجمر، وفز من بؤبؤيه طير من الخوف، عملاق فرش اجنحته فوق العيون والاحذية وراحتي العامل المشققتين من ملامسة الماء. انه لا يملك ما يدل على شخصه، ألا يكفي أنه انسان، انسان هارب من جحيم حياة مؤطرة شاحبة. يكفي انه كائن يمشي ويتنفس ويعمل. هل علموا بمكانه، هل دلهم واش او مخبر، فالمسدس مصوب اليه وحده، فوهة عارية تتجه إلى القلب، هل ان ما يراه مسرحية معدة مسبقاً للقبض عليه؟

كلما تقدم الشرطي على الجالسين يحس بالمنية تقترب، بالمرارة تفجّر انسجته الحية، بالبياس يلفه، فيتصاعد النبض ويشرع قلبه باللهاث مثل حصان. يداهمه سيل من الضياع يسحب جسده إلى اصقاع مرملة وصحارى من الموت. يركض، يلهث، يفح الزبد من شدقيه، فتطارده الثلة، اقدامهم الثقيلة المدعمة بالمسامير تطرق الاسفلت، تثير غباراً، تسحق ثلجاً، تطاير حصى

وحجارة، ويزيده هذا لهاثاً وركضاً واندفاعاً إلى الامام. إلى الابواب السرية المجهولة المتوارية في شراشف الغيب. الوقوف معناه الموت. ركض لا انقطاع له.

تماثيل الشوارع ترمقه ببرود، تطارده هي الاخرى، تشير للقتلة باصابع من الرخام والكونكريت، فيتخيلها اجساداً آدمية تتسمسر على الهاربين من امثاله. لا أحد يلتفت إليه، لا أحد يهمه امره، والمدينة سادرة بحياتها، ماضية بايقاعها الرتيب، ووحده المطارد في زمن اختلاف الفصول.

تستمر المطاردة ويستمر اللهاث والجري والتعقب رغم الجليد المعرش على السرو والدلب، فيا لهذا اليوم العجيب يبتدي بصيف وينتهي بشتاء. ينعطف إلى شارع ضيق فينعطفون خلفه عصيهم بأيديهم مسدساتهم باحزمتهم والوقوف يعني التحول إلى تراب، إلى نرجس جاف ودقائق ثلجية تهرسها الاحذية. يعني التفسخ في زنزانة قذرة هواؤها عطن وجدرانها مسلوخة. لا، النهاية قريبة، ثم يندفع إلى الفراغ، والفراغ تفرّع آخر اضيق يمشي فيه هونا ويروعه خلوه من البيوت. لا بيوت في الزقاق، جدران فقط، صماء ملساء محايدة تقوده إلى نهاية لا تدرك.

ينتهي الزقاق اخيراً، يا الهي، يقول بصوت راعش ما ان يرى الزقاق مغلقاً بجدار عال يستحيل تسلقه او اختراقه. يسقط بيده ويختلج امامهم، يرى مصرعه بأياد لا تندم ولا تأسى. الايادي تخرج مسدساتها، تصوبها إلى عيون فاغرة بالالم والتساؤل. يجف الكلام وينقطع النفس. يسقط الجسد بين ايدي القتلة ثم يتصاعد إلى الفضاء بخار ثلاثة عقود من الرغبات والامنيات والآمال.

السلك الذي يتوهج

هذا سريره العريض بشراشفه ولحافه، وتلك سخانة المياه لم تزل تحت النافذة المطلة على مدرسة ثانوية جدرانها من الطابوق الاحمر. مرآته الطويلة

التي تحولت إلى اكسسوار في احلام سابقة تنتصب على يمينه، والاشياء داخل الغرفة في اماكنها المألوفة وليس هناك ما ينم عن حلم أو كابوس. غير أنه يعيش الكابوس بكل جوارحه، يحس هذا من الشلل المستولي على جسده، فجسده نصف نائم نصف يقظ، ووجود ذلك السلك الرفيع المشدود بين قائمتي الباب يؤكد حضور الكابوس واطباقه عليه.

السلك مصدر الرعب، سلك دقيق على ارتفاع متر تقريباً يبعث ذبذبات متواصلة تتسرب إلى جسده، تنفذ مع دمه إلى القلب فيخفق ويصطفق بين اضلاعه. سلك الخوف والرعب يرتجف بين القائمتين، يراه بوضوح فيشل فيه الحركة. لا يستطيع النهوض ولا يستطيع النوم، نصف نائم نصف يقظ والسلك يتوهج بلون احمر، يزحف نحوه بخطوات بشرية وئيدة. وهج يفتض جسمه ويعذبه، يجمد حركة الدم والاعضاء. امواجه الضوئية تندفع مع الهواء وتشيع في جو الغرفة الراكد، تصطبغ بها المرآة الساكنة والجدران العارية وتمسح بأجنحتها المشعشعة شراشف السرير واخشابه المقضقضة. يحاول النهوض من الفراش فتمسكه ملايين الخيوط الحديدية إلى الخشب، وحين يهم بادارة رأسه يفاجأ بمفصل رقبته لا يطاوعه. هل تمكن السلك من اعضائه كلها، وأي سحر خاف جاء به الليلة؟ هل تحول الليل إلى حيوان هلامي لا يراه، سقط هو في لزوجته، أم التمت الجدران بفعل السحر واطبقت عليه؟

ينتبه إلى نفسه بذهول: الغرفة المعتمة والجسد المشلول والسلك المتوهج. يصيح بحنجرة مليئة بالشوك فيحتبس الصوت في صدره، يطلب النجدة من الجيران النائمين، من الشوارع الفارغة، من الليل السادر في هدأته. يصيح دون صوت فتردد افكاره الجدران والمرآة والمواسير المائية وقصاصات الاظافر الساقطة على خشب المهاغوني. لا جدوى، يستدير على نفسه، فما من يد تسحبه من مستنقع تلك الذبذبات، من امواج التوهجات المجردة، من سطوة سلك المداهمات الليلية القديمة والاهانات اليومية السابقة والحصار الذي عاشه طوال

ثلاثة عقود من السنين. يركد في فراشه مستسلماً، فريسة لخطوات ذلك الرعب الاصم المنبعث من السلك. لا يستطيع تقدير الفترة التي استغرقها اختفاؤه، فقد افاق فجأة ليجد نفسه يحدق في فراغ الباب بجسد متيبس من وطأة الكابوس. هذا سريره العريض بشراشفه ولحافه، تلك سخانة المياه لم تزل جوار النافذة المطلة على الطابوق الاحمر. مرآته التي تحولت إلى اكسسوار في احلام سابقة تنتصب على يمينه، وظلّ السلك ذكرى غائمة وظلا يخيم على ذهنه. ولخوفه من عودته ثانية نهض من فراشه وانار المصباح، ثم عاد إلى سريره مستعجلاً طلوع الضوء.

انا والمجنون

المرة الأولى التي رأيت فيها مجنون كوبنهاغن كانت في مقهى الحذاء الصيفي، يوم السبت، بعد الظهيرة، والشمس مشرقة ذات وهج خفيف، وقد اخرجت المقهى طاولاتها وكراسيها في الفسحة امام المبنى. الجالسون في المقهى كثر وعلى الطاولات كؤوس بيرة مثلجة وفناجين قهوة وفي الوجوه متعة واسترخاء. الفسحة ساحة واسعة تحيط بها مباني عتيقة احتلتها محلات وبنوك ودكاكين صغيرة لبيع السجق، وابرز تلك المباني بناء المكتبة العامة لكوبنهاغن، واجهتها زجاج لماع كنت ارى من خلاله القراء والزوار المفتشين عن بغيتهم من الكتب.

كانت العيون مركزة على فرقة موسيقية غربية مصطفة عند جدار مواجه للشمس إلى يسار المكتبة، فرقة البراميل سميتها، لأن آلاتها كلها من البراميل. براميل ذات احجام مختلفة، طويلة كاملة أو مقصوصة من المنتصف، اطار برميل فقط أو ثلث برميل، انتصبت عشرات منها على الارض أو على حوامل من الخشب يعزف عليها عشرات من العازفين. اصداء عزفهم ترددة زوايا الابنية ومزاغلها وقبابها واهلتها المتعرجة المقببة للنوافذ، وتجمع حول الفرقة اناس من جميع الاعمار كانوا يقفون لحظة يتأملون الفرقة العجيبة فتطربهم الاصوات، أو يرضون فضولهم ثم ينسحبون. الجالسون في المقهى يتهامسون

حول ما يجري امامهم أو يديرون ظهورهم منغمرين بشأن من شؤونهم الخاصة.

في محيط الساحة تتبعثر اشجار عالية يستظل تحتها خمّارون يمسكون قناني البيرة بأياد مرتجفة وقد ضبب السكر عيونهم، وفي وسط الساحة جلس عدد من الشبان على الارض حفاة الاقدام تناثرت حولهم المشروبات ايضاً وكانت الشمس قبلة لوجوههم الشقر. وحدى وفنجان القهوة والشمس المترامية فوق وجهي وجسدي، تتداخل في اذني اصوات الموسيقى وصراخ السكارى وهمسات الناس وكلام المارة في الساحة.

ما ان تعب العازفون ووهنت اياديهم حتى توقفوا وانفضّ المتجمعون كلٌّ قاده شاغل، وظلت الفرقة أميزَ ما فيها براميلها المطلية بلون رمادي مفضض يعكس اشعة الشمس. وقبل أن تدخل الآذان بدهليز هدوء مخلخل فاجأتها اصوات نسائية منشدة، محاذاة المقهى ترافقها موسيقى مسجلة عالية الرنين. خمس صبايا ينشدن للمسيح اغاني دينية تدعوا إلى الحب والايمان بالله، وبين فترة غناء واخرى يتكلم رجل او امرأة إلى الجمهور المتجمعين حولهم في الموضوع نفسه. ولأن الفرقة الدينية قريبة جداً، موسيقاها عالية من نمط آخر، فضلت فرقة البراميل الصمت، حتى ظننت أنهم صرفوا النظر عن العزف ثانية، وقد بدأوا فعلاً بجمع براميلهم وتوضيب مطارقهم متأهبين لمغادرة المكان. الفرقة الدينية استثمرت الأمر فواصلت احاديثها واناشيدها ورقصاتهاإلى ان تعبت هي الاخرى فتوقفت اخيراً.

سيل المارة عاد ينهمر في الساحة، يميناً نحو قلب المدينة أو شمالاً إلى المحطة القريبة، حيث القطارات والباصات راحلة إلى الضواحي والمدن الاخرى. خيم الهدوء ثانية على الساحة، عادت طيور الحمام تحط تلتقط ما يلقيه السكارى والجالسون من فتاة خبز وبقايا سجق ومخلفات فواكه. رواد المقهى استرخوا وتابعوا متعة التشمس واحتساء البيرة.

حين يتعالى الصوت أكثر من المألوف يجذب النظر، وحين يكون الكلام بلغة مفككة غير مفهومة لا يستطيع احد تجاهله، اما إذا كان بلغات عديدة فإنه يدعو إلى الدهشة. وهكذا خيمت الدهشة علينا ما ان بدأ الوافد الغريب الواقف امامنا يتكلم بصوت عال ولغة مفككة ويمزج اللغات مزجاً مثل مهرج غير بارع. عربية، انكليزية، دنماركية، يوجه الغريب كلامه إلينا بتلك اللغات، عابراً وجوهنا المستطلعة دون ان يعيرها ادنى اهتمام. التقطت منه بعض الكلمات والجمل مثل: الصراع الطبقي الاستعمار، الخيانة الزوجية، الشرق، كحل، التضخم، حروب الاقزام، غسل الادمغة، الثقاب المستعر، الكينونة المتعرجة، اهداب الماضي، يمام، ابراهيم لنكولن، معراج النبي إلى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله، مخدة محشوة بالريش، ملكة الدنمارك ذات الجسد الأهيف، لاجئون، تجار حشيشة، غرف لافلام الجنس، مسابح من الكهرب والعنبر والجمشت، قلادات من الذهب، او من الفضة.، لا بد أن الرجل يروم جمع النظارة حوله كما عودونا هنا في الشوارع، وهو اسلوب ذكي، فإذا اردت جذب الاذهان ما عليك إلا أن تقوم بفعل غير معتاد. شيء من الاكروباتيك، كلمات متبلة بالجنون، تقليعات مخترعة لم يشاهدها أحد قبلئذ، اغان نابية. انه اسلوب حواة المسرح والممثلين الجوالين، ومن المؤكد أن الرجل واحد منهم، قلت لنفسي وانا انتظر ما سوف يسفر عنه لغوه المتواصل. لا، لم يتوقف لبدء نمرته الجادة، اخذته نشوة الخطاب ونسي روحه وظلت ملامحه جادة ذات تعبير واحد حتى جاء عامل المقهى واوقفه. همس له بعض الكلمات فتحجر برهة محدقاً بنا ثم ادار وجهه وانصرف نحو قلب المدينة.

* * *

المرة الثانية التي رأيت فيها مجنون كوبنهاغن هي التي جعلتني اهتم به. هي التي اشعلت فضولي فرحت استقصي ما وراءه من اسرار. وقد جرى الامر في مدرسة اللغة، مدرسة تعلم الدنماركية، الواقعة بشبه جزيرة آما. وهي جزيرة

يحيطها بحر البلطيق من اغلب جهاتها، يربطها بالعاصمة ثلاثة جسور متحركة ويقطنها اضافة إلى الدنماركيين، اتراك وعرب وافارقة وباكستانيون وبولونيون، يجدهم المرء كل صباح في بؤرة واحدة، بؤرة تسمى مدرسة اللغة.

شاهدته في البهو.

كنت واقفاً جنب باب الصف المفتوح على البهو، احدق بحركة الطلبة متأملاً تعدد الوانهم ولغاتهم، اراقب ما يدور بينهم عند الطاولات والكراسي، وعلى حين غرة انفتح الباب الخارجي، يربط البهو بممر صغير يقود إلى الدرج النازل إلى الشارع، واطل عليّ وجهه. انه الرجل نفسه الذي جذب انتباهي في مقهى الحذاء الصيفي. رزانة في الجبين، ملابس نظيفة، وجه اسمر، عينان هادئتا النظرة، شاربان صغيران يحيطان فما غير مزموم. بيده رزمة اوراق وقلم يمسكه بين اصابعه. حسبته كاتباً من كتبة القرون الوسطى حياته تسبح ببحار من الحبر وغابات من الورق. لم ينظر إلى أحد وكأن هرج البهو عالم آخر يبعد عنه ملايين الكيلومترات. النساء المتبرجات بعيونهن الكحيلة صور زخرفية تُزيّن البهو لا أكثر، والرجال اشباح هتفتها غيمة غربة سارية إلى مجهول، وجدران المدرسة محارات منسية على ساحل جزيرة ضيقة تدعى آما، قطنها ذات يوم بحارة قايكنغ همهم الوحيد احتساء جعة سوداء تقشع عنهم عناء رحلة بحرية مغامرة.

خطاه الثابتة تأخذه إلى لوحة الاعلانات المعلقة قريباً من باب الصف. انتخب ورقة عريضة حجمها كبير من رزمته وفردها امام وجهه، تأملها برهة كأنه يتأكد من صواب ما كتب فيها، من نظافة مسطحها الغاص بالاسرار، ثم استل عدداً من الدبابيس من قماش اللوحة وشكها في الورقة. ثابتة لا تريم من مكانها، قال لنفسه لا بد، خلل وقفته الصافنة بالورقة، ثم استدار إلى الباب ومضى نازلاً الدرج، مخلفاً طبطبة حذائه بين جدران البهو.

اشعلني الفضول بناره، فأمر الرجل سينجلي بمعرفة ما موجود بتلك الورقة،

جمرة هي في ظلمة مطبقة، ستضيء حتماً بوصات من مجاهيل روحه.

الورقة الملصقة على لوحة الاعلانات جلبت لي الحيرة اكثر مما جلبت المعرفة. انه يتعمد التضليل والمداورة، يزيد سره اسراراً، يقحم غيره بخضم روح تاعسة قلقة تجهل ما تريد.

الورقة المثبتة بأربعة دبابيس، بلورة شافة تتكسر فيها اشعة وحدة وارق، اشعة تشرد ومعاناة ايام طويلة ماضية.

الورقة لها شكل يكشف عن مكنون ذلك الانسان إلا أنه لا يضيئه، يجعله يتماوج بعتمة، بلون لا هو بالابيض ولا بالأسود.

الورقة ليست أصلاً، مصورة عن اصل ثمين، وهي تعيد وبصيغة أخرى، ما سمعته بمقهى الحذاء الصيفي، لولا شيء من الاستثناء. فهنا تنسيق وتبويب، عمل ذهني نتج عن تأمل في ورقة بيضاء يفتضها قلم اجرد شجاع مغامر، يرتاد العوالم الخافية عن الاعين.

عوضاً عن السرد غير الموجه لبؤرة واضحة، هنا جدولة، تصنيف لحياة ومفاهيم وافكار، تأخذ الواحدة منها محلها تحت حدين، سالب وموجب، ولا وسط بينهما. السالب والموجب هما جديداً ذلك الرجل، يعرضهما في ثنايا الورقة المعلقة بجزيرة آما. ملأ الورقة بجمل وشخوص مرسومة بدقة وبراعة، بازهار واشجار وتخاريم وايقونات، ثم منح لكل شيء هوية، اي سالب وموجب، ثم وضع حول العلامتين دائرة مسواة بفرجال هندسي لا يخطىء، إذ لم تمسكه يد مرتجفة انما واثقة من نفسها.

الحرب الاهلية في لبنان، سلبي، ودائرة كبيرة تحيط بالسلب. حرية الرأي، ايجابي، ودائرة شبيهة تحيط بالايجاب، تطوقها زهيرات تكاد لا تبين، تعكس اعتزازه بما يسرّ وما يعده خدّاماً للبشرية ويديمومتها.

اما التصنيفات الاخرى التي اكتظت بها الصفحة فهي كالآتي دونما تغيير

لضرورة رقابية او اخلاقية:

تناول الجمعة صباحاً سلبي،التفكير بماهية الله ايجابي، عمل الباه مع الحيوانات سلبي، يو أس أي سلبي، اللغة الدنماركية الشبيهة بنقيق الضفادع سلبي، الشعر الاسود سلبي، الاصفر ايجابي، شرب الخمرة المعتقة بقبو كنيسة عمرها خمسمئة سنة ايجابي ايجابي، اوربا مكتوبة بريشة عريضة وخط كوفي مذهب يشعشع نوراً سلبي، مكتوبة بنفس الريشة وبمداد احمر يميل إلى السواد ومرسومة حولها ثلاثة توابيت يخرج من كل واحد منها كف تصيح انا انا انا.

ثم في حواشي الصفحة مزيد من الرسومات، كتل وخطوط تعوم على خلفية من الاوراق والازهار والعساليج العنبية، مردفة بآيات قرآنية واقوال انجيلية ومقاطع من نشيد الانشاد.

الورقة المزركشة بالسلب والايجاب، المشكوكة على قماشة لوحة الاعلانات ككف عفريت، جعلتني احير بامر الرجل اكثر فاكثر. ان دلت على شيء فإنما تدل على حكمة، على شتات ذاكرة، على حيرة حكيم، على ضياع جاهل، عابقة كلماتها باريج انكسار فذ في طريقه إلى مملكة الجنون.

• • •

تبين لي، فيما بعد، انني لست الوحيد الذي يراقب ويقتفي خطى الرجل. لست إلا واحداً من عشرات ادهشهم امره وراحوا ينقبون عن شخصية مجنون كوبنهاغن ذاك. من أي بلد هو، وكيف قدم إلى الدنمارك، وما الدافع لتصنيف الحياة بشكل قاس كهذا، أي، أسود وابيض، سلب وايجاب؟

اخبرني احد اللبنانيين ان وراء جنونه هذه الغربة الشاقة التي نحياها في البلد، اختلاف اللون، صعوبة اللغة، مزاجهم البارد، الانانية المفرطة، ثم الشعور بالرفض المستولي على الاجانب. واحاسيس مثل تلك، إذا نبتت ونمت بتربة خصبة، سرعان ما تقود إلى الريبة بالاخرين ومحاكمة الظواهر حسب المزاج

اليومي، وهذا عينه ما اودى به إلى النظر إلى العالم بعدستين لاغير، عدسة سوداء وأخرى بيضاء. لقد كان المجنون يرتاد المدرسة التي يتعلم بها اللبناني، وهي في وسط المدينة، ويعلق نشرته تلك اسبوعياً. ولم ينتبه له اللبناني وحده، بل آخرون غيره، كلهم كانوا يتابعون ما يكتبه. بعضهم يسخر، بعضهم يتأمل، بعضهم يفسر، بعضهم يعجب.

شاب عراقي اكد لي ان الرجل كان في ايران، عرفه باحدى معسكرات اللاجئين، يصلي ويصوم ويتحدث عن يوم سيأتي تعم فيه العدالة السماوية بارجاء الارض، حيث يتآخى الحمل مع الذئب، النار والماء، الغني والفقير، يزول الظلم ولا يبقى لفاسق اثراً. اما تحوله بهذا الشكل، يقول العراقي، فما هو الا ردة فعل على مجتمع صناعي يتعامل مع المرء من افق المادة ومقتضياتها. الحانات الغاصة بالرذيلة، عرى النساء الفاضح في المسابح والشوارع والملاعب، افلام الجنس، زوال الرحمة من صدور البشر، مستجدات لم يطق التكيف معها.

لاجيء سياسي من البحرين يجزم انه كان يكتب عموداً يومياً باحدى الصحف البيروتية، افكاره تمجد الانسان وتذم عالم الربح غير المشروع، وتتحدث عن افق غيبي سنمر به، موزّد بالعدالة والمساواة. ومع ان الجريدة غير واسعة الانتشار، إلا أنه اكتسب شعبية لا بأس بها من خلال اطلالته اليومية تلك. قال انه حاول يوماً تذكيره بايام بيروت فتصنع العته، اخبره انه لم ير بيروت في حياته قط، وهو مغربي الجنسية جاء للعمل هنا.

فهمت من هؤلاء وغيرهم أن الرجل يوزع نشرته بأماكن اخرى عدا مدرسات اللغة: في مكاتب استقبال اللاجئين، في المقاهي، في البارات، يلصقها على أعمدة التلفونات، على كابينات محطات الباصات، في المراحيض العامة، بل يقف احياناً في شارع المشاة الكائن وسط المدينة ثم يسلمها يدوياً إلى المارة.

هذه الشهادات دفعتني للتفكير بالرجل على مدار الساعة، اين يعيش، ومن هم اصدقاؤه، واين يقضي اوقات فراغه وكيف، وإلى أي بلد ينتسب؟ جعلت كذلك، اتوقع مصادفته في كل مكان ارتاده بالمدينة، تصورته شبحاً يملك عشرات الجسوم، تتوزع على الشوارع والباصات والحدائق العامة. راودني هذا الشعور لأنني صرت التقيه بمحال لا تخطر على الذهن.

ففي يوم شتوي، صاح مشرق منوّر الآفاق، كنت في طريقي لزيارة صديق بيته يقع جنب البحيرات، وسط المدينة، ولأن المشي باشراقة جميلة امر مستحب في البلد، في الشتاء خاصة، فضلت أن اسلك الشارع الترابي الممتد على حافة الماء. اجتزت البحيرة الاولى والثانية والثالثة، وحين وصلت منتصف الرابعة وقع بصري عليه. جالساً كان على حافة البحيرة، يده قابضة على كيس مليء بفتات الخبز، كان يتناول منه، على مهل، حفنات يلقيها إلى الطيور المتجمعة عليه. بط، اوز، نوارس بيض، حتى بدا لي وكأنه ملتحف غيمة بيضاء تتماوج صعوداً ونزولاً. عيناه تبرقان وجبينه منتش وملابسه نفسها لم تتغير، فما كان مني إلا أن اقف على بعد خطوات منه. هممت مخاطبته، لا سيما أن منظره وسط الطيور قد هالني واعجبني، إلا أنني تحيرت باية لغة أو لهجة، وتهيبت ونال مني التردد. كان يمكن لي أن اجلب ما يفيض عن حاجتي من طعام، لهذه المخلوقات الجائعة بشتاء ذوت الحياة فيه. دخلت المكتبة العامة لاستعير كتاباً حول علاج أمراض الروح، كتبه حكيم من حكماء جزر هاواي، يدعى شامان الاكبر، فوجدته متسمراً خلف مدقق الارقام يلقي خطبة من خطبه، ظل يمطها على الاسماع حتى وفدتْ مديرة المكتبة وطردته من هناك. في الباص المتجه إلى جزيرة آما، جلست مرة قربه، وكان الثلج يدثر المدينة بلحيته الكثيفة وينفث البرودة من خياشيمه البيض، فحدثته عن بلداننا الحارة، عن وقر الصيف وسخونة الاسفلت، عن سراب المديات المتصاعد غب ظهيرة صيف، وكان خلال حديثي يرمقني بعينين فارغتين، دون أن يشاركني حماسي، وما لبث أن غادر الباص قبل وصولنا المدرسة.

الرجل محارة عصية على الفتح والاختراق، كدت اسلم بجنونه المطلق، الاصم، الخالي من الرموز والدلالات. كدت ذلك لولا أن صادفته بمكتب اللاجئين، جالساً في قاعة الانتظار. انتهزت الفرصة فجلست قربه وسألته دون مقدمات عن البلد الذي ينتمي اليه. انه من الشرق، اجابني، شرق الرمال والافاعي السامة، شرق النفط الآيل إلى النضوب، شرق النساء المدثرات بروائح القرنفل وحب المحلب. اجابة سيالة محشوة بالحنين والتهويمات، بالتأملات، بالسخرية، خلالها كان يمزج حديثه بلهجات مختلفة: عراقية جنوبية، اردنية بدوية، حلبية متعثرة بلسان كردي، لبنانية مموسقة، مصرية واضحة التكلف. لهجات مختلفة لم تصلني بحقيقة انتسابه، ولما شددت والحفت بالسؤال، قال انه لاجيء وكفى، ليس له موطن. ولكي يوصد ابواب الحوار أمامي، حمل رزمة اوراقه ونهض عن كرسيه ثم اتجه إلى لوحة الاعلانات.

الصق نشرته ومضى دون أن يودعني.

* * *

نشرته شبيهة بسابقتها، الورق نفسه، الحجم نفسه، الخطوط، الالوان، الزخارف والتخطيطات. القلم العصبي نفسه، لولا أنه نحى منحى فكرياً أكثر من السابق. حين قرأتها خطفاً، راودني احساس ان البحراني الذي قال عنه انه كان يكتب عموداً باحدى الصحف البيروتية، على حق. فأفكار كهذه لا تأتي إلا عن ذهن متمرس بالكتابة، إلا عن تأملات وقراءات عميقة ومشاهدات روحانية شفافة ناعمة.

كتب فيها:

كشوف لا تمنح السعادة، سلبي سلبي سلبي.

تزاوج الحضارات، ايجابي.

النظر إلى الامور من اكثر زواياها اهمالاً، ايجابي.

ايمان اعمى بالدين، سلبي.

القفز على الزمن، سلبي سلبي.
تعلم لغات أخرى، ايجابي
جدل كلامي افضل من امساك المسدسات، ايجابي.
الاختلاف، ايجابي.
أما الجملة التي لم استطع فك رموزها، وحيرتني كثيراً، فهي:
الولادة ثانية وثالثة ورابعة إلى ما لا نهاية، ايجابي.

فكرت انه قصد تعلم شيء جديد كل يوم: ممارسة ما لم يمارس من قبل، ورؤية ما لم تره العين سابقاً، كسقوط ورقة وانعطافة فراشة في الفضاء وتلاشي نجم بعيد وشكل انف لكائن غريب وتعبير وجه لمجنون وابتسامة عاهرة وصوت ذبابة ومشاهدة فلم وقراءة كتاب جيد، وغيرها وغيرها. لكن رغم تفسيري لجملته الغامضة، إلا أنني اشك ان لها مدلولات اخرى يعسر عليّ معرفتها. هل استطيع معرفة ما يفكر به مجنون أو حكيم؟ وللحقيقة فقد بدأت استمتع بظاهرة السلبي والايجابي. انها افق يسحر، يفتت القناعات، يتسلق جدران الذاكرة الشائكة فيهز غفلتها. إذ ان الارتكان إلى التصنيفات به شيء من التسلية. تسلية، هذا ما بدأت احسه بمتابعة افكار مجنون كوبنهاغن ذي الملابس النظيفة والعينين الثاقبتين. طفقت اتأمل مفهومه الغريب للسلب والايجاب، فما هي الامور التي تستحق أن يطلق عليها صفة السلب، وما هي التي يطلق عليها صفة الايجاب؟ وهل أن السلب هو نفسه عند اناس آخرين ربما لا يمتّون لي بصلة ولم يحيوا الظروف نفسها التي عشتها؟ وانْ اطلعَ الآخرُ على ما أعده سلبياً أو ايجابياً واطلعتُ انا على ما يعده ويصنفه، هل يخلق هذا حالة من التنافر او التجاذب او زيادة الفهم احدنا للآخر؟

كثير من الاسئلة الهمتني نشرة الرجل. في البيت، في المدرسة، في حديقة الحيوانات، عند الاصدقاء ووحدي، لم تن تلك التساؤلات تراودني، إلى أن فكرت بايجاد قاموس تصنيفات خاص بي، أدون فيه ما هو سلبي وما هو

ايجابي طالما ان في الامر تسلية واختباراً لثنائية الروح:

امواج البحر تتكسر على ساحل رملي موجة موجة، محملة بأشن وزبد ابيض، ايجابي. ضجر مطبق يطلي الاشياء بحجاب قاتم يعدم طراوة ما يُرى، يجرجر الاعضاء إلى ملكوت خمول كل ما فيه ميت، سلبي. النجمة تطل من سماء بعيدة بعيدة، والتحديق فيها بعينين ضاجتين باسئلة الوجود والغاية ومن اين نأتي وإلى اين نمضي وسط كوكبنا المحاط بملايين نجوم شبيهة بتلك المتفردة الثاقبة المتلألئة بعليائها، ايجابي. طعام شهي، ايجابي. ملمس حرير، ايجابي. صديق راكد مثل مستنقع، سلبي. الجملة المحكمة تشع معانيها دون انقطاع، ايجابي. الجملة المتبجحة كأنها فقاعة صابون حشيت كتلة من هواء، سلبي. دمعة عاشق، ايجابي ايجابي ايجابي. ضعة حكيم، سلبي سلبي. والكثير الكثير، وجدت عقلي يغص به، لكن الغريب بالامر انني وحسب رحلاتي المغامرة داخل حجرات الروح، عثرت على مسميات يصعب ادراجها تحت هذين التصنيفين. الغربة. الفيتها كلمة زلقة صابونية لا تركد بمحل، تارة إلى السلب وتارة إلى الايجاب، واحياناً تقف في المنتصف مثل بغل حرون. لها عتمة وضياء، عكارة وصفاء، حلاوة ومرارة. فمها يقول، سلبية انا، منقطعة عن الجذور مفارقة الحلان، والهواء الذي كوّن رئتيّ بعيد، وشجيراتي التي سقيتها ماء قراحاً تلاشت كما سراب، وبيتي الذي اعرف زواياه وخفاياه، رائحته واسراره، دفء صيفه وبرد شتائه، صار ذاكرة غائمة وجمرة تبعد آلاف الاميال يفصلها عني عملاق ضخم الجثة يسمونه ليل النأي. بفم ثان تقول، ايجابية انا، مشرقة كحبحبة، دافئة كيد حانية: رؤية بشر مختلفين، ارض اخرى باطيارها ورباها وسهولها، ضحكات اطفال جدد، غناء ذو رنين عال، حانات مختلطة، شوارع نظيفة ضيقة أو واسعة، ليل طويل ونهار قصير او نهار طويل وليل قصير، لغة ذات ايقاع خاص. تلك هي بلورة ضئيلة من كتلة تلك الكلمة المضيئة، الكلمة الجالبة للشك والحيرة، لأنها صابونية زئبقية لا تهوى السكون. لا أرغب دخول المصيدة، غير انني وجدت في نظريته لذة فائقة،

دعتني في الآن عينه، إلى التحرز والانتباه، فنقطة العسل تقود الذبابة إلى مصيدة الموت.

* * *

مقهى الحذاء الصيفي يتكون من صالة طويلة مغطاة جدرانها بالخشب الصاج، بمرايا توسع حجم المكان، باعلانات عن فرق الموسيقى والمسرح والافلام الجديدة، يكتظ شتاء بالصبايا العائدات من العمل ومتصيدات الرجال والاجانب والسكارى، جوه مدخن مشبع برائحة الطعام والبيرة والانفاس التبغية الثقيلة.

كنت أجلس بمواجهة الساحة، وهي مغطاة بثلوج مهروسة واشجارها رمادية كأنها ايادٍ متيبسة ممدودة إلى السماء تطلب عوناً، وامامي فنجان قهوة ايطالية وفي فمي سيجارة. في اللحظة التي شرعت افكر بها بالمجنون، فاجأني رأسه ينبثق من هوة الدرج الصاعد إلى الصالة. دخل بهدوء ثم وقف في الممر ناظراً الجالسين، عيناه صافيتان، شعره مصفف، فمه منبسط لا يعكس اية تعابير عصبية. قلت لنفسي سيبدأ الآن محاضرته الشيقة عن السلب والايجاب وتعاليمه الاخلاقية المختزنة طوال سنوات الغموض اللافة لجسده وروحه. تريث، هلّ حوله سكون بض فأغراني حاله إلى دعوته لفنجان قهوة فرضي. شيء لم اتوقعه البتة، فسألته من دون كلمات فائضة عن اكتشافه الفذ لنظرية السلبي والايجابي، كيف وردت في خاطره ومن أي مصادر الفكر استقاها، وهل ثمة مرجع فلسفي لها، ام انها وليدة اللحظة المبدعة؟ هل جاءت من جذور يونانية أم اسلامية أم هندية، وعلى أي حامل عقلي ترتكز؟

كنت اقطن وحدي، اجابني، غرفة عتيقة في الطابق الاخير من بناية عمرها قرن. شبابيكها تقود بصري إلى امواج بحر البلطيق، وكانت تلوح لي من بعيد مثل ثيران اسبانية هائجة. اعاني من وحدة، من قناعة انني حشرة ضالة، حياتها

لا تهم احداً من بشر المدينة. لا اصدقاء لي، لا امرأة تهتم بي، اصرف الساعات، وفي الليل خصوصاً، احدق بجدران غرفتي العارية. الملاط وخيوط العنكبوت صارا اصدقاء خلصاً، انفث هموم حياتي إلى سجادة الارضية وبلور النافذة وخشب الباب، اتأوه بصوت مسموع فتردد جدران البناية حشرجات وحدتي، يضحك الليل لي ويسامرني ضوء الفجر الهالّ من الشرق. ذلك الضوء المنير لامواج البحر وذرى الاشجار واطواق الابنية كم كان رحيماً بي، كم يبعث فيّ الحنين.

ذات ليلة، وبعد نهار امضيته بلا طعام، قررت أن اطبخ لنفسي رزاً ومرقة دجاج، قررت عيش لحظة بطر وأبهة. تلك الليلة لن انساها، فالشعور العارم المريع باللاهدفية والوحدة كلكل على روحي كما سحابة مدلهمة مبرقة مرعدة مزخة مطراً وبرداً وشظايا نار. هرستني جدران غرفتي ولفتني خيوط العنكبوت، تحولت نافذتي إلى ثقب ضيق ارى من خلاله مذابح ومعارك وهجرات لشعوب يطاردها موت اتخذ شكل فراشة عملاقة اطرافها مخالب، بطنها ضخمة تتقلص وتنبسط، لوامسها خراطيم ماصة، جناحاها مناجل تتقصف من هولها الرؤوس. قلت لنفسي ما هذا الا شتات افكار وحصرة خلق وتهويمات، فمضيت بطهي طعامي محاولاً تركيز ذهني بحبات الرز في القدر والياف قطعة الدجاج السابحة بالمرقة.

وضعت طبق الرز وصحن المرقة على طاولتي الخشب وجلست للأكل متناسياً احاسيسي الغريبة المستعرة في داخلي. قبل ان اغرس ملعقتي بصفحة الرز هالني ما رأيت: طبقي عش لكائنات بيض صغيرة تتحرك، تتلوى، تميس يميناً وشمالاً، تتسلق الحوافي محاولة الفرار. عش ديدان يبعث النفور، صحفة من الخيوط تطبق عليها ملعقة هائلة فضية مقعرة سيمتص محتوياتها فم لحمي لتتحول إلى سوائل وافرازات ونفايات. معدتي تحولت إلى كائن حكيم، اندفعت بجدرانها وشعيراتها وغددها هاربة إلى حلقي، فسارعت إلى دورة

المياه وتقيأت سائلاً أصفر مراً كريه الرائحة، سربته من جوفي حتى آخر قطرة منه. غامت نظراتي وكدت ان اسقط، فانعطفت إلى حنفية المياه وغسلت وجهي بمياه باردة وصابون عطر، ثم عدت إلى غرفتي.

لم احتمل رؤية الطعام ثانية فامسكت الرز ومرقة الدجاج وقذفتهما في بالوعة المراحيض. حاولت أن انام، ان اتلاشى عن كل ما مر علي. حاولت أن اغلق صنبور أفكاري المتدفقة الحاملة لمياه ماض مجعد، فظ، مشاكس، مكفهر الطلعة، مأساوي الاحداث قلق الوجود، ففكرت بوردة عملاقة بأمرأة ثرة الجمال، بموسيقى حليمة تتماوج نغماتها كأنها عشب في حقل طلق مفتوح لريح سلسة. شيئاً فشيئاً ضمرت عواصف ذهني ورحت استعيد صفاء وجودي ثم ولجت إلى عالم التأملات: الاكل، سلبي، يحول المرء المتسامي إلى حيوان لا يفرق عن الشمبازي وبنات آوى. لا محيد له عن تلكما القناتين، الفم والمخرج، وهو إذ يجوع ينسى قيمه ومفاهيمه ويقاتل حتى اخاه. يثور من اجل الطعام، يقتل، يغش، يكذب ويبيع روحه. الاكل سلبي اذن، اوصلتني تأملاتي العميقة التي عشتها في غرفتي الكائنة في تلك البناية التي عمرها قرن من الزمن.، الفكرة صائبة جذبت مثل مغناطيس فكرات أخر، فشرب الخمرة صباحاً سلبي والحوار بالمسدسات سلبي وكشوف لا تمنح السعادة سلبي، وما إلى ذلك. وكما قادتني تأملاتي إلى جوانب السلب في الحياة، ارشدتني أيضاً إلى الضفاف المشعة الودودة المسماة ضفاف الايجاب.

في تلك الليلة القاسية، وبين اربعة جدران هرمة، ولدت نظريتي عن السلب والايجاب، حيث اعتبرتها رسالة ينبغي أن اوديها إلى بني البشر.

هنا انقطع حديثه وعم السكون بيننا. لم أشأ الكلام فقد امتلات ايماناً انه يمتلك حقاً موهبة خاصة ورسالة قيمة تستحق التأمل.

نهض عن كرسيه واستل ورقة عريضة من جيبه الداخلي ومدها إليّ ثم قال: هاك نشرة الاسبوع، عليك التمعن بها بدقة وترو، والا ستحل الكارثة.

في الساحة ثلوج هرستها الارجل بقساوة.
اشجار متيبسة تنعكس اغصانها الجرداء على واجهة المكتبة الزجاجية.
مارة يسيرون بلا هدف أو غاية.

• • •

ممارسة الحب تحت رذاذ مطر بليلة ربيعية تتقافز نجومها وسط السماء كغزلان شاردة، ايجابي. اطعام البط في بحيرات كوبنهاغن على انغام لا محسوسة لفجر صاف هالّ من شرق النقط والتراخوما وبساتين الليمون، ايجابي. مرض الايدز وملحقاته من السفلس والسيلان والحكة الشرجية وسلس البول وضمور البروستات وتلف عضلات الرحم، سلبي سلبي. مضاجعة تخلو من عاطفة، سلبي. الاعتناء بزهور الحديقة، ايجابي. تلويث مياه ارضنا، الجوفية منها والظاهرة، سلبي. قائمة طويلة هذه المرة مكتوبة بخط ناعم صغير لآلة كاتبة منمنمة الرموز سميكة الشدّة بارزة النقط، القوس فيها على شكل هلال ينتهي بقبة يمتد منها املود صغير يكاد لا يرى.

هنا ثنائية ساحرة، بلاغة طهرانية لروح شفافة ترقص بامواج نورانية ليست من عالم التراب. هنا قائمة شغلتني، وأنا عائد في الباص إلى بيتي، عن واجهات المباني، عن الكلاب الشيقة الاحجام، عن وجوه النساء، عن الافق البعيد. هل يفكر ركاب الباص يا ترى، بسحر ثنائية الحياة هذه؟

هل يدركون ان ثمة رسول آت من الشرق يقطن بين ظهرانيهم؟

هل يخطر ببالهم انه يقضي ايامه بمناجاة جدران واهداب عنكبوتية وخطوط خشب وامواج بحر كأنها ثيران؟

واصلت التفكير جدياً بمجنون كوبنهاغن. جدياً لحد انني اندفعت، وبعد ولوجي الباب، مباشرة إلى طاولة الكتابة المركونة جنب السرير، والتقطت قلماً وورقة وشرعت بتسطير سلب الحياة وايجابها، من وجهة نظري انا.

تداعت الافكار بين يدي طوال الليل، فيضان من الذكريات والتجارب والقراءات والحكم المتوارثة قرناً بعد قرن.

رحت انقح، اضيف، احذف، اعدل الجمل واصل الواحدة بالاخرى. لا أريد لجملي أن تكون متبجحة كأنها فقاعة صابون حشيت كتلة من هواء.

احطت ما هو سلبي او ايجابي بدائرتين بدلاً من واحدة.

ادخلت الالوان إلى عملي لكي تضفي على النشرة مزيداً من الجمال.

أما تصميم الورقة فقد هداني حسي إلى شطر فضاء الورقة الابيض إلى شطرين، بخط اسود عريض بارز، يكون الاعلى للايجاب والاسفل للسلب.

القسم الاعلى ظللته بلون أزرق خفيف، يشكل خلفية ملهمة للافكار تزيدها جاذبية.

القسم الاسفل ظللته بالاصفر الرمادي كي يحمّل السلب مدلولات جارحة كالموت والركود وفقر الذهن.

وحين انتهت اللمسات الاخيرة للنشرة، غمرني الليل بسكونه فاحسست بارتخاء جسدي ونفسي، احسست أنني وجدت الطريق.

نشرتي ستفاجيء الكثيرين بلا شك، خاصة اصدقائي ومعارفي.

وسأبدأ غداً توزيعها على مدارس اللغة ومكاتب اللاجئين وفي محطات الباصات، اما بعد الظهيرة فسأقف في شارع المشاة لأوصلها إلى أيدي المارة.

نعم، لقد وجدت الطريق.

جامع العملة

المحطة ذات الهيكل الضخم، بناء عتيق طابوقه احمر منقوش بالاخاديد والحفر والحزوز وبقع الرطوبة السود. من موقعي في مقهاها الزجاجية كنت اسمع وابصر القطارات تدفق في شرايين المدينة منطلقة إلى مجهول اخمنه بخيال محتدم: إلى ضواحي هادئة شوارعها مظللة بالشجر، إلى قرى كسولة تفيق على خطى ساعي البريد، إلى مدن حدودية تلطمها امواج خلجان داخلية، إلى جبال مزنّرة بحزام ثلجي على مدار السنة، إلى سهوب وهضاب ووديان. والجلوس في محطة يشبه ركوب بالون يطير بين الغيوم، فالانسان يتحول إلى رقيب متقد الحواس، ينظر ويحصي ويصنف، يندهش ويزن وينفذ إلى الاعماق، يحصي الاعراق واللغات والازياء، يخمن نوعية الطقس الذي ينتمون اليه وكثافة الغبار في الجو ونوعية التربة وحرارة ما في القلب من دماء. ولعل تلك الامور، وهي تسحرني وتجعلني احس بوجود واضح وسط المدينة الضاجة الهادرة، هي التي زيّنت لي المجيء يومياً إلى المقهى، في الساعة عينها لأنتبذ الزاوية نفسها الملاصقة للحاجز الزجاجي، حاجز المقهى الواقعة في الطابق الأول من بناء المحطة.

والمقهى التي اعتد الجلوس فيها ممر ضيق طويل يتسع لصفين من الطاولات يفصلهما طريق في الوسط ينتهي بمطبخ يقدم الساندويش البارد والكيك

والحلويات، معروضة بحاوية زجاجية مضاءة بشمعة ناصعة البياض. يقدم كذلك، اضافة للمشروبات الكحولية، عصير الاناناس والمانكا والليمون والشاي والقهوة الثقيلة السواد. والممر مقبب بزجاج شفاف ذي انحناءة لطيفة في السقف اشبه بفقاعة يرتكز على عارضة حديدية مغروزة بالجدار. والممر قطار ايضاً، إلا أنه قطار ثابت بمحطة عاجة بالصخب. محطة تجلب لي المتعة المختلطة بحلم وقوع حادث يغير من نمط ايامي المتشابهة. حادث يقع او شخص يجلبه قطار غير متوقع من مدينة بعيدة.

كنت اقضي الساعات الطويلة مبحلقاً بهوة السلالم وهي تقذف المسافرين إلى بهو المحطة باحثاً عن وجه اعرفه من وجوه البشر الذين التقيتهم ذات يوم في مدينة، في سجن، في رحلة بحرية، في متراس حرب، في معسكر اعتقال، في ميناء عاج بالسفن المسافرة حول العالم.

ومن خلال الحاجز الزجاجي، كنت أرى لعالم المحطة، بشرها، ساحتها، محلاتها المنتشرة وسط الساحة وفي اطرافها لبيع الصحف والسجائر وتصليح الاحذية المعطوبة، من بينها مكاتب بريد وبنك خدمات ونقطة شرطة. أما التلفونات العمومية فكانت مصفوفة بارتفاع واحد على جدار طويل ملوث بالعرق والاعلانات، وتشكل خلفية جامدة لتلك المحلات. كنت أتخيل المحطة مدينة لا تنقصها سوى الشوارع والاشجار. مدينة كل ما فيها مدهش: ساحة المحطة الشاسعة بسقفها غير المستند على اعمدة، فيضان البشر الدائب التدفق حتى الثانية ليلاً، اصص الزهور على طاولات المقهى، انبثاق البشر واختفاؤهم، هيكل المقهى الزجاجي الشبيه بفقاعة هواء ترفرف على الساحة وتكاد تنزلق إلى الفضاء. وبعد اشهر من التآلف مع تلك الاشياء، قادني بصري إلى دهشات اخرى اكثر غرابة لم يكن الالتفات اليها سهلاً في البداية: كبسات الشرطة الفورية للبحث عن الاجانب المتسللين خلسة إلى البلاد ومشاجرات العاهرات وحيل مدمني الخمر للحصول على النقود وحركة افواه المتكلمين بالتلفونات

العمومية وباعة الحشيشة والمخدرات والسكارى المشعثو الرؤوس بعيونهم الغائمة السابحة في الوهم والضلالات، واخيراً ارتطام المطر بقبة المحطة المصنوعة من زجاج محلى بازاهير بيضاء ومكعبات حديدية وتخاريم وايقونات وأرابسك. المطر خصوصاً كان يحملني، بوقعه وسيلانه على الايقونات والرسوم، إلى خارج المحطة والمدينة، إلى اسرار فضاء مطلق يغيّب عني ما يجري امامي وحولي. يضمحل الحاجز الزجاج، تختفي الروائح، تهمد الضجة، تتداخل الالوان والاشعاعات المادية ليحل فيّ سلام شامل وهدوء منسجم. ولاضاءة شخصي اكثر اقول انني اعيش هنا على مساعدات الدولة لمن هم اجانب من امثالي، واقطن وحيداً غرفة صغيرة حسنة التدفئة تشرف على حديقة عامة، خضرتها الدائمة المؤلفة من ثيل واشجار سرو وآس وكستانيا تلسع العين كلما عاودت فيها النظر. الخضرة الدائمة مثل صحراء مرملة، كلاهما مرهق، دونتُ تلك الملاحظة على ورقة الصقتها على بلور نافذتي.

اما قدري الذي جعلني زبوناً دائماً للمقهى وبندولاً متأرجحاً بين غرفتي الحسنة التدفئة والمحطة المدينة فقد صُنع قبل اليوم من خليط غريب وغير منسجم البتة: قيظ يذيب اوراق النخيل واجنحة الفراش، غبار يسد منافذ العقل، روائح بارود زهم يلفّع ارغفة الخبز وليّان الصبايا وورق طلبة المدارس، ميتات غامضة تجري خلف مكاتب انيقة فخمة مسيجة بأسلاك شائكة ومحروسة بكاميرات لا مرئية، خطب رنانة عن الشجاعة والتاريخ وصناعة الانسان الجديد، قصص حب شاذة، قراءات فظة للحياة. قدر من بارود نقي يمكن القول، جعل الحياة تبدو لي وكأنها قبضة مصادفات وفرص لا متوقعة تهطل على الرؤوس كما تقوم بهذا قطرات المطر وكرات الثلج في هذه المدينة التي أتنفس هواءها.

كان اعتيادي على موجودات المحطة من بشر واحداث وتهويمات واحلام ينفثها السواح والمعتادون على المخدرات هو ما دفعني إلى تفاصيل المكان

وروحه السرية المتولدة عبر الحقب. فالأمكنة، حتى العتيقة منها، جديدة دائماً، طازجة ملبدة بالخفايا التي ما علينا الا اكتشافها، وهي تمنح نفسها بلذة لمن يدقق النظر ويعقد صلة روحية معها. هكذا بدأتُ ببناء المحطة. تلك الثمرة المتنامية منذ عشرات العقود. الاحساس بالمكان ادخلني بدهاليز المحطة وكيانها الداخلي ذي الامواج المتضخمة بمرور الزمن. اسابيع بكاملها صرمتها متأملاً سقف المحطة باعتباره المعلم البارز على ما عداه. تصليح، تطوير، تمنمة، صقل، رسومات، ثم تلك الرائحة الخاصة المعتقة التي لا يلتفت لها الجالسون. الاخشاب ربطت الجدران الى بعضها واغلقت فضاء الفسحة، لها لا بد حكايات مثيرة رحت احاول استكناهها: نوعية الاشجار وحجم الغابة التي عاشت بكنفها، عدد الليالي الكارة على اوراقها ونوعية الحيوانات التي عاشت هناك، فصائل الحشرات المتناسلة في ظلال اغصانها وفي سيلان اشعة الشمس المتسربة نحو الارض. وكنت خلال اسفاري بأوقيانوس هذه الاسئلة اعب ما توفر تحت يدي من المشروبات، قهوة، شاي، جعة، عصير، اما منفضة السجائر فكانت غاصة بالحرائق. المحيطون بي لا يلتفتون لاشياء كهذه، فالسكارى همهم قنينة جعة اضافية والعاهرات اصطياد زبون يدفع بكرم والمتحدثون ايجاد الشخص في الجانب الاخر من خط التلفون والوافدون للسياحة همهم تبين الامكنة على خارطات يفرشونها امام وجوههم الفضولية.

مرات عديدة حاولت فيها ادراك مخطط معقول للسقف بصيغته الاولى فلم اوفق. لقد وصل إلى ما هو عليه الآن نتيجة لتراكم العوارض الخشبية والاعمدة والمسامير والصفائح مجدولة بنشاط استثنائي لاجيال من الاحياء. قطعوا الخشب بمطارق يدوية ومناشير، صقلوا السطوح بدهون شفافة، حفروا بالمثاقب، دقّوا وقوّموا وحنّوا، ليظللوا مسالك الناس بظل يمنع الغواصف والثلوج والامطار. ولتحلية السقف المقبب وتحويله إلى شاخص سياحي يفاجأ الداخل للمرة الأولى، عُمد إلى كسر رتابة انسياب الزجاج المفروش على الخشب بنوافذ ملونة سطرت صفوفاً ثلاثة متناسقة متناظرة، الأول بطرف

المحطة المطل على شارع البغايا والثاني في الوسط والثالث ناحية حديقة الالعاب الضخمة التي يفصلها عن المحطة شارع عريض يشق المدينة شقين. رؤوس الاعمدة الخشبية ومرتكزات الصفائح الحديدية احيطت بمقرنصات وضفائر على هيئة ازهار واشجار وحيوانات طائرة كالتنينات والديناصورات واللقالق والبط والبجع، مغطاة دائماً بسربال من الدخان يتصاعد عن سجائر محترقة وثقاب وغليونات مستعرة واوراق سيلوفان مستخدمة لتسخين مسحوق الحشيشة في الخبايا البعيدة عن أعين الشرطة، تحت الادراج، عند المراحيض، وقرب حائط التلفونات العمومية. كم من العيون حدقت مثلي إلى السقف ومقرنصاته، كم بقي منها حياً وكم غادر ارضنا الرؤومة، كم تشتت دخان على الخشب وسال رذاذ على مسطح الزجاج ملامساً اطر النوافذ وتخاريمها، كم من الزهور ذبلت تحت وجه القبة وكم من الاصص القيت في خزانات القمامة؟ الاحزان، الافراح، الضحكات والهمسات، الزفرات واللقاءات العجلة، ترى اين بصماتها على الخشب، هل عبرت المكان دون أن تخلف اثراً يذكر؟

لاجئون فقدوا البوصلة إلى الوطن، شتتهم حروب اهلية ومغامرات فاشلة ومؤامرات تحاك في سرية تامة، ومهجرون ذووا ثباتات غير اكيدة دالة عن هوية، مغامرون وعيّارون، متسللون ومتماهلون عن تجديد اقاماتهم، منتظرون لقطارات راحلة إلى سراب مدن لا توجد إلا على الخارطة، ومحتسون لكؤوس خمرة تهز مزاجهم المرتكس الى حزن اصم، رواد مقهاي التي دأبت الجلوس فيها. بؤمه ايضاً متصيدو نساء ومخبرون بثياب مدنية ومدمنو مخدرات اميزهم من شحوب البشرة، انفلات الشعر على الجبين، سيلان اللعاب، تلاشي مؤخراتهم، نظراتهم التائهة المنصبّة على فراغ اجرد يشدهم اليه بطاقة روحانية ترتسم بزاوية مهملة او جدار او فقاعة شاردة في فضاء المحطة. كنت اتجنب الحديث معهم، واهابهم، فهم كثيراً ما صرفوني عن اسفاري في المكان واحلامي الدائرة بفلك ماض مذهّب وانتظاراتي لشخص شاركته عناء بناء

متراس او نصب كمين او تمتين ساتر من قصب وطين مطوق بحيوانات برية. على أية حال، لقد عتل الماضي كل ذلك في مَنْ عتل من الاصدقاء والتجارب وولّى الزمن الذي كانوا فيه يثيرون الفضول، يبعثون الريبة، يفجّرون الخيالات، يرفدون الذاكرة بينابيع مسائل لا تنضب. لقد غُتلوا بعيداً مثلهم مثل الغرابات الهاربة من اشعة بصري: امرأة عجوز تجر كلباً بحجم سلحفاة لابساً سترة تقيه الصقيع، شابة حليقة الشعر يزيّن اذنيها قرطان على صورة اعضاء جنسية ذكورية، عامل المحطة وهو يلتقط الفضلات من اوراق صحف وقشور موز وبقايا ثمار بآلة تشبه العصا وما هي بعصا، الرجل يتبول بقنينة الجعة نصف المملوءة ثم يحتسي الخليط، العاهرة تساوم زبوناً لقضاء وطر في دورة المياه، اللوحات الضوئية المحددة لمواعيد القطارات، الشحاذون الاذكياء الذين يستجدون العملة بحجة الاتصال تلفونياً، كل ذلك قد مضى وصار جزءاً من ذاكرة متخمة. صار هلاماً رجراجاً اعتصرت منه الحكمة ولفظت التفل ثم غمرت روحي بتيار الموجودات الجامدة باعتبارها القطب الآخر لوجودنا.

والحادثة التي سأرويها عن جامع العملة وساهمت بتعميق معرفتي لنفسي، كان لها أن تمر دون اثر فيما لو عشتها قبل بضع سنين. فحينذاك كانت العموميات، كخطوط الاحداث البارزة وهياكل الاشياء الباهرة، هي ما يستولي على فكري وبصري، عكس ما أنا عليه اليوم. انا الان لا ارى الوردة مجرد وردة، كلا، اصبحت ارى منها الاوراق والتيجان وحبيبات اللقاح والمدق والسداة. العطر اشمه واللون يخلبني والاشواك المحيطة بالتويج احسها حبلى بالمدلولات والاسئلة. بل جعلت اقضم حتى الورق كي اشخص ماهية الوردة تلك لذلك ظلت الاسابيع تتعاقب باطراد وانا على انغماري بتفاصيل المكان الذي يدعى بالمحطة، إلى أن جاء اليوم الذي نحت فيه جامع العملة.

كان يوماً ثقيلاً رمادياً، فالثلوج سقطت كثيفة واستمر هطولها يومين متتاليين، ثم اعقبها ريح هابة من القطب بعثرت الثلوج في الطرقات وعجنت

الارصفة بأوراق الخريف المسودة من الطين. جمّدت اقدام المارة وتغلغلت برودتها بين الملابس سارية إلى الجلود هامزة اصحابها للبحث عن ملاذ دافيء. والمحطة بمثل هذه الظروف تصبح محجاً للشحاذين وسماسرة المخدرات والشاذين جنسياً وعاهرات الشوارع ومن لا بيت لهم والاجانب الذين يقضون نهاراتهم متجولين في الشوارع بلا هدف. من يشاهد تلك الجموع المحتشدة في الساحة يظن ان المدينة هربت بكل سكانها إلى هنا. اكتظت الطاولات بخليط ملون من البشر وازدحمت الادراج المؤدية إلى المقهى وتدافع الناس على ابواب المحطة العديدة. وشيئاً فشيئاً درج السقف يتلاشى وراء ستار خانق من الدخان والانفاس المخلوطة بالجعة وزنخة الاطعمة والبخار. قبة السقف اصبحت بيضاء وارضية المحطة شرعت بارسال اشعاعات حمر اضاءت المكان بلون خاص حوّل الوجوه إلى اقنعة شمعية بلا سمات.

وسط هذا الايقاع المصبوغ باللون الشمعي، ايقاع الجوف المطوّق بسقف زجاجي وجدران هائلة الضخامة، استوقف جامع العملة عينيّ. ملابسه عادية مكونة من بنطال جينز ازرق وحذاء شتوي ضخم يمتد عنقه إلى الركبة وتنحشر نهاية البنطال فيه حشراً، ويرتدي سترة من الجينز ايضاً مبطنة بفرو أصهب بارز خارج القماش.

بشرته كانت سمراء ولحيته نابتة قليلة الشعر مختلطة بشارين صغيرين. شخص اليف المظهر، إلا أن شيئاً ما فيه هو الذي استوقفني. ربما يكون الامل العميق وقد استحال انتظاراً مملاً يشع من ثنايا جسده، وربما يكون الخيبة المعرشة من ارومة امل غير متحقق يومض في عينيه. كان واقفاً امام صف التلفونات العمومية مستطلعاً المتكلمين. وقفته غير واثقة، عصبية، كما لو كان يخشى أن يُمسك متلبساً بجرم ما. التفاتات سريعة، نظرات مستريبة، تحديقات بعيون المارة وقلق ينخزه كلما مرّ جنبه رجل شرطة.

في البدء حسبته ينتظر دوره لمكالمة ما او انه على موعد مع احد الاصدقاء،

إلا أنني رأيت بعض التلفونات شاغرة دون ان يتقدم نحوها. اكتشفت انه كان يترصد كل شخص ينهي مكالمته ليندفع بعده إلى الهاتف، يمد اصابعه إلى الفتحة التي تتساقط فيها العملة الفائضة ثم يهز الجهاز عدة مرات ثم يكرر تلمس جوف الفتحة. مرة أو مرتين دس بجيبه عملات منسية واكثر المرات شعرت به يرتد خائباً إلى موضعه. وكان الجالسون حولي منكبين على خمرتهم وقهوتهم، احاديثهم وهمساتهم، وكأن جامع العملة وما يقوم به، حدث مألوف لديهم، حاله حال تساقط الثلوج وحمرة ارضية المحطة وكبسات الشرطة وومضات الاعلانات الضوئية. انه بالنسبة لهم جزء من حياة المحطة اليومية واحدى خصوصياتها. وقد امضى الرجل فترة ما بين الظهيرة والغروب دائراً على تلفونات المحطة فيما صرفت الفترة نفسها ملاحقاً اياه بنظراتي وافكاري.

بعد ذلك اليوم ادخلتْ الريح القطبية الشتاء بأكمله إلى المدينة، جاءت به محمولاً على عجلات ثلجية واحصنة زمهريرية جمّدتْ بأنفاسها اغصان السرو في الطرقات فاستحال إلى عناقيد بيض. نشرت حول حافات الابنية اطواقاً ثلجية حادة النهايات تتساقط بغتة على الممرات. ضربتْ صفحة المياه في الاقنية المتغلغلة بجسد المدينة فإذا بها زلقة تجذب هواة التزلج. النوافذ، ومنها نافذتي المطلة على الحديقة، تكللت بطبقة اسفنجية ناعمة خليط هي من بلورات منجمدة وشعيرات مائية صلبة وبقايا اوراق مسننة. توقفت القطارات المحلية وكادت الباصات ان تنقطع عن المسير، واعلنت الارصاد الجوية ان عاصفة الثلج هذا الشتاء لم تؤشر مثلها التواريخ منذ نصف قرن.

الحالة استمرت لاسبوعين متتاليين قضيتهما في غرفتي، وحيداً مع جامع العملة. في الفراش ظلّه يطاردني، اتطلع بالشجر المحيط بغرفتي فيلوح ندفة ثلج عالقة بفرع اجرد، يتمدد على الحيطان شبكة عنكبوتية تتسع خيوطها بمرور الوقت. كان اشبه بعود ثقاب بذهليز مظلم، اضاء لي بغتة كافة الالتباسات

السابح انا بلجتها. طفقت اتصيد لسلوكه المبررات والتفسيرات، لحالته اشخص الاسباب والدوافع، استقرىء مركّبات شخصه من المظهر الذي رأيته عليه ذلك اليوم. قادني رأسي إلى المدينة والمحطة وايقاعهما غير المُنقطع منذ قرون، إلى تحولاتهما غير المدركة، ثم رأيت وكأنني معلق بيالون مطاطي كبير الاحق به رجلاً بعينه، يجيء إلى المقهى الزجاجية بساعة لا يتجاوزها. يجلس على الكرسي نفسه، ملامحه متأملة غارقة بانكسارات سببها ماض بعيد لم يعد له القدرة على تغييره. لِمَ يفعل هذا وما هي الاحلام الدائرة بين عظام جمجمته، وكيف يقضي وقته بالتطلع إلى السقف والقبة والقطارات المسافرة إلى دول اخرى وبشر من نوع آخر. هل ثمة جدوى من وراء ما يقوم به؟ هل ثمة جدوى من حمل جثة ماض مرهق؟ هل ثمة جدوى من انسياقه مع وقع الحياة الرتيب، ومن بندول روحه المتأرجح بين نهايتين، جدران غرفته العابسة الضيقة المعبأة بالملل، والمحطة قلب المدينة وبؤرتها؟

نعم، دخلت بعجينة الاسئلة التي جبلها لي جامع العملة من ماء واسمنت فتجمدت حولي ولم اعد استطيع منها فكاكاً. أنا وجامع العملة مثلنا مثل من يجلس تحت شجرة فاتحاً فيه، معولاً أن تسقط الثمرة بين ثانية وأخرى.

ومع ان العاصفة توقفت بعد اسبوعين وانقطعتُ عن زيارة المحطة وهبّتْ ريح جنوبية اكثر لطافة وسخونة، عادت خلالها الطرقات لتمتلىء بالناس وذابت مقرنصات السقوف التي من ثلج واسفرت اغصان السرو عن جلدها الكامد، إلا أن تلك العجينة الاسمنتية المتصلبة ما زالت ملتصقة بي.

نوارس البحر

من ميناء إلى ميناء يطوف بلا هدف، يحكمه هاجس السفر بين المدن البحرية، ويتعقبه تاريخ مطرز بالزنازين والرجال الخشنين المدججين بالبنادق والمسدسات كاتمة الصوت. السفن عرائس بحر تجرفه معها دون مقاومة. يومه مثل أمسه، وغده غيمة ليس تمسك، اشكالها غريبة على هيئة افيال وذئاب وزرافات، على هيئة شوارع فارغة بشرها هلامي مترجرج.

اليوم، ستبحر سفينته من ميناء اسبرغ عبر امواج بلورية وجبال مائية قواقعها نزرة واسماكها عجيبة، لكنها لا تبعد خياله عن الاجراف المتآكلة من المد والجزر والحرارة، لا تبعد خياله عن اطياف النخيل والبردي والليالي المقمرة. هي ذكريات لا تمسك مثل الغمام الثلجي المظلل للميناء الممتد امامه كراحة ملساء. سيبحر في هواء رقيق ومياه مسالمة تحمله إلى ميناء آخر يجهل تفاصيله. لقد غابت الغربان واليمام المحوم فوق مدن عاش فيها ذات يوم، وحلت محلها طيور بيض وحدها ملكة للفضاءات. هاهي تحوم بنزق عليه وعلى المدينة التي سيفارقها بلا اسف، مع انه يحفظ تفاصيل مينائها مثلما يحفظ تفاصيل وجهه. فالايام التي قضاها هنا كثيرة لا تحصى، ايام النظر إلى المشارق ذات الآفاق المخضرة بضوء كاب. كان شاهداً على الآلات العملاقة وهي تتكاثر على مر الزمن، والارصفة تتضخم بكتلها الكونكريتية وتتعرج حسب ضحالة المياه

وعمقها. اما السفن، فلشدما كانت تدهشه بتراصها وتنوعها، سفن للشحن والصيد واختبار التلوث وحراسة السواحل، وسفن عملاقة موشكة على الاقلاع وافتضاض البحر مثل سفينته.

فكر وهو واقف قرب حاجز السفينة، ان رحيله اليم من غير مودعين، يبادلونه قبلاً وابتسامات ونظرات ندية تستجلب له حظاً مواتياً لرحلته وعودة قريبة إلى النوارس والشوارع المعبأة بالاضواء.

كان الرصيف عاجاً بالمودعين. شباب نزق يرتدون حللاً من الجلد الاسود تغطيهم غيوم من الدخان تتصاعد من سجائرهم. صبايا حليقات الرؤوس ملونات الاجفان والشفاه. عجائز يضعون سماعات لاقطة للذبذبات الصوتية. معوقون يمتطون كراسي سيارة من دون صوت. كلاب عملاقة واخرى مقزمة تدب ديب ديدان ربيعية. رؤوس مغطاة بقبعات فرو الثعالب او عارية يلحسها الصقيع، الذي يشيع فيه الحنين إلى لهيب الصحارى واشعة الشمس ووقر الاصياف الهاب من الغيطان. قبلة قادمة من الرصيف تقذفها ام الى ابنتها الواقفة في زاوية ما على السطح. تلويحة على شكل جناح يمامة يقذفها شاب إلى حبيبته. همسات. حنين. وداعات. يدور ذلك حوله ويلف جسده من غير أن يدخله، من غير أن يداعب روحه المنشدّة إلى عالم آخر يراه امامه واضحاً وضوح الرافعات والمودعين وشوارع المدينة الضائعة وسط الضباب. أذنه لا تسمع وعينه لا تغتبط، والقبل والابتسامات موجهة إلى ناس آخرين، مشدودين بآلاف الخيوط إلى البيوت وهواجس الامهات وقبور الاجداد الذين قضوا منذ مئات السنين في حروب امجاد في سبيل الوطن. وحده الذي بلا خيوط، بلا انفعالات، بلا قبور اجداد. كم ضلت عنه قبلات وكم تاهت بعيداً عنه ايماءات، وكم يكون جميلاً انبثاق ملامح يعرفها من وسط الحشد، وجه يرميه بقبلة وداع تنخذ من الفراشة هيكلاً والضباب طراوة والجلنار رقة.

الموج يضرب الجدر الكونكريتية بقبضاته المسطحة، ويعابث بألسنة من زبد

حيزوم السفينة. الريح تهوم في المداخن، وكلاهما يحملها على الترجرج يميناً وشمالاً، اماماً وخلفاً. تتوتر السلاسل وتشد الجبال رابطة السفينة إلى قبضة المدينة التي لم يستطع ان يكون جزءاً منها. المدينة التي لا تمد اصابعها إلى قلبه كما فعلت مدنه التي ودعها بحماليها ونوارسها وغبارها. لماذا يرغب الاقلاع سريعاً كقرصان، لماذا تطرده مثل دخيل غير مرغوب فيه، لماذا يشاكسها واداً الانتقام من سلاستها، ولماذا تختلف عنه مثلما يختلف الجدار عن الفضاء، التراب عن الغيمة، الوشاح عن بدلة الحرب. لماذا يكبر الحنين ويصغر حسب اسماء المدن وجهة هبوب رياحها وبرودة طقسها... لماذا يحدق مثل غراب ضال إلى هذا الحشد المطاطي محشواً بالاسئلة حالماً برؤية وجه يعرفه؟

وسط تلاحم عينيه والمدينة، النوارس والفضاء، المودعين والراحلين، يرتفع الجسر الخشبي عن حافة السفينة، ويبدأ الدولاب الهائل بجر الارض بعيداً عنه، ليقذفه أخيراً إلى البحر الاجاج. بحر الهياكل العظمية والبحارين الغرقى والسفن المهدمة القلوع. ابصر الجسر يحلق في الفضاء وانكشفت لعينيه الهوة المائية الفاصلة بين البحر واليابسة، وهاهي الاعماق تعكس حزنه الشفيف وهاهو يقرأ ملامح الرحلة والبداية الجديدة. لقد خلا الميناء من المودعين. تركوا الاحبة بين يدي البحر، بين امواجه واسراره. السفينة تتململ لبدء الرحلة، البحر يفتح ذراعيه وبعد غيبوبة خفيفة اشبه بالغفوة، فتح عينيه ووجد الرصيف عاجاً بالمودعين ثانية. انهم مودعوه هذه المرة، جاؤوا من كل حدب وصوب، نفثتهم الارض من جوفها وامطرتهم السماء من غيومها. شعورهم كثة سود ملطخة بالقش والعليق واوراق الخندقوق. انحدروا كما تنحدر القطرات المائية الصافية: الامهات جئن بوحشتهن والخالات القلقات على مصائر الابناء، الاخوة، الاباء، الاخوات المزنرات بأسى ناعس له لون الريح. الكل على الرصيف، يراهم يحركون افواههم ويلوّحون بمعاصمهم ويطيّرون القبلات على الكل عهن. لو يسرعون قليلاً، لو يتركون تشبثهم بالدعامات الخشبية، لو جمد الزمن برهة، فالبحر مفتوح على الاقلاع والهواء رائق والسفينة تعوي

بنداء السفر. هاهي تدب كمحار لزج على الزبد والاشنات وقطع الخشب المتبقية من سفن قراصنة موهومين بالمغامرة. الهوة تتسع والامواج تلطم بجبروتها دعائم الخشب وصخور الشواطىء والمحرك يلتهم المياه بنهم. لماذا اتوا متأخرين؟

وتحسس باصابع مرتبكة حقيبته الجائمة على السطح وود لو يصرخ على الفلك العملاق آمراً بالوقوف، بالتريث هنيهة، فهم يستصرخونه بعيون حسيرة وسيماء سمر. لا احد يسمع النداء، ومن الداخل تصاعدت همهمة المسافرين الذين بدأوا التفتيش عن غرفهم ومحلات شرب الجعة ومراقب البحر المنزوية على السطوح المتراكبة.

انتبه إلى رجل واقف جنبه، هندي الملامح يتم وجهه عن عمر مديد وهو يسأله بابتسامة ودود: هل انت ذاهب إلى لندن؟ اجابه بالايجاب ثم رنا إلى المودعين ثانية. كان الميناء مقفراً والمدينة عارية مكفهرة، راحت تستعيد نوارسها واحداً بعد واحد، وسمع رفيقه الهندي يقول: وجودك على ظهر السفينة يفرحني، فسوف نقضي الرحلة معاً على الاقل.

• • •

يقترب الميناء رويداً رويداً، تقترب اليابسة برافعاتها ومبانيها الصخرية وزجاجها ومكاتبها. لقد نجا كأي بحار محترف من اصابع البحر الغليظة ومهاويه المختومة بالمحار والكواسج والاخطبوطات، وبعد قليل ستستقبله المدينة الجديدة استقبال مسافر ضل الهدف في تطوافه الابدي.

الابخرة الصباحية تتلوى خلف السفينة والمويجات تشظي بريق الغيوم إلى ملايين العيون الضوئية، وهاهو البحر الشاسع، مشتت الخلان، البرزخ الرجراج، هاهو يختبر صلادة روحه مرة أخرى.

في السفينة، وعند المدخل، توزعت على الارض حقائب ذات احجام

مختلفة واحمال لا تشي عن دواخلها، كان اصحابها متأهبين لاستقبال الميناء الجديد بفرح غامر. وفي الهواء رائحة كحول تنبعث من الافواه التي امضت ليلتها في مشارب السفينة، ويستطيع أن يميز بعض الوجوه التي التقاها ليلة امس هناك. المرأة المتصابية، ابنة الاربعين بقبعتها البلاستيكية المزينة بعناقيد العنب، هاهي ومثلما شاهدها البارحة تمص سيجارتها بمبسم انيق، وتحدق إلى الفضاء بعينين اذبلهما النعاس. الشاب المراهق منزوياً مع صرره في زاوية قريبة من سلة المهملات، كان وقتها يرفع كؤوسه نخب القوة البيضاء، القارة الثلجية المسيطرة على المقدرات البشرية في عالم الالكترونات والقميرات الاصطناعية والبحوث المجهرية. العجوز الاصلع، يتذكر رقصاته مع الصبايا برشاقة اضفت عليها الخمرة جواً اسطورياً، يقف منكسر الجسد يمص غليونه ذا الرائحة العبقة ويداعب كلباً قريباً منه. الكل يحمل لهفة للقاء شيء ما، وهو الوحيد الذي يدرك ان لا احد بانتظاره. يدرك انه سينسل من بوابة السفينة مثلما دخل اليها. اين صاحبه الهندي يا ترى، فأثره غاب تماماً منذ منتصف الليلة الفائتة. بحث عنه في الحشد فما وقع له على اثر، لقد اتحفه بقصص مسلية عن دلهي وكلكتا وافيال الغابات وقساوسة الهندوس والانهار المقدسة الشافية للهلوسة والاوهام. حين صادفه في مشرب السفينة، كان يحتسي الكوكاكولا واخبره انه لا يشرب الخمرة لكنه يدخن الحشيشة بين الحين والاخر. وقضى ليلته يجول في اروقة السفينة ومخابئها، متصيداً الحسناوات الثملات اللائي قال انهن لن يمانعن من صرف ليلة حمراء بركن منعزل. لو يرى وجهه لفرح حتماً، إذ هو شخص يعرفه على الاقل، كما نسي تماماً أن يسأله عن وجهته، وان صادفه اللحظة فلسوف يقوم بذلك.

ارتجت السفينة ارتجاجاً مفاجئاً وادرك انهم رسوا على الرصيف. كان الركاب محتدشين امام الباب، انه الخروج الوشيك إلى عالم لا يفقه منه الا ظلاله المراوغة، ولم يسمع عنه الا نتف اخبار متضاربة. وكما المرات السابقة التي دخل فيها مدينة جديدة، ساءل نفسه عن الجدوى من مجيئه، عن تواجده

في القارة المسيطرة على المصائر البشرية، عن سر الفترة المطبقة على وجوده. لا هو بالسائح ولا هو بالمقيم، والايام حبات عنب حصرم متشابهة. في اسبرغ اقنع روحه بمشاغل ظنها تسكت تساؤله عن الزمن القادم، الغريب في طعمه ولونه ودوره فيه، فتعلم مهنة التصوير. راح يخلق مناظر جميلة يعوض بها عن جفاف ايامه. حسب انه سيركب الحياة كما يشاء، يزين الوجوه او يشوهها، ينمنم الاشجار او يشظيها، وحين ملّ اللعبة شرع بدراسة الكيمياء الساحرة التي تحولّ الحزن إلى فرح والهواجس قناعات صلدة والوحدة تأملات ساحرة. حلم بوضع بصماته على حاضر يتجاهله ولا يطيق وقفته. ولكنه افاق ذات يوم على الجدار نفسه، التساؤل الضخم المحلق باجنحة من عبث وعزلة. ارتد ثانيةإلى النخيل والصحارى والانهار، إلى ماض متشبث به مثل قرادة لجوجة. هاهي اليابسة، بعد رحلة بحرية مليئة بالقبل المقتطفة خلسة عن الازواج السكارى والخمرة واللقاءات السريعة، الكل منتش للقائها. هو وحده المشتبث بزاويته غير راغب بمفارقة السفينة، غير راغب في البوح باسراره الى المدينة القادمة. العاملات بملابسهن الانيقة يغرفن سائل الابتسام بكرم، يرششنه على النازلين، وكن يتمنين لهم اقامة طيبة. والكلاب بفرائها القطبي كانت تنط على المدرجات المرفوشة بالبلاستيك الماص للقرقعة، وهاهو الهندي يفاجئه من حيث لا يعلم. كان متكئاً على افريز بيع الشطائر، ينظر إلى فنار المرفأ بمتعة. اقترب وحياه، ثم سأله عن وجهته، ولِمَ يبدُ عليه الكسل، فاجابه بانه جاء للتبضع من السوق الحرة وسيعود بعد الظهر إلى اسبرغ مع السفينة. صافحه بحرارة واتجه بحقيبته نحو الجسر الخشبي المؤدي إلى الرصيف.

فوق رأسه، وفيما هو يمضي إلى ارض المدينة الجديدة، كانت نوارس البحر الاجاج تتجمع وتتكاثف. اجنحة وريش ومناقير زاعقة بلغط فظ اوحى له بملايين الأكف البيض المشعرة الغاضبة. اكف تحاول باصرار، صده من دخول المدينة.

المدينة العجيبة

اتحدث عن المدينة، راعية العصور،

الام التي تلدنا وتلتهمنا، تبتكرنا وتنسانا.

اوكتافيو باز

سأقودك إلى المدينة العجيبة، نلجها معاً، يدا بيد وكتفاً لكتف، فاعطني كفك ورافقني الى بوابتها الزجاجية التي تنفتح دون بواب كعين ساحرة عجوز. سنرى ما بجعبتها ونشم روائحها ونلج عقلها المنشمر اقصى الجسد، ثم نرتقيها طابقاً طابقاً، فلتكتم الدهشة ولتبث بخلاياك الشجاعة فالمدينة لا يصل إلى خباياها إلا الذين ينظرون بقلب من صخر وروح شفيفة متوهجة. رؤيتها تخلخل المقاييس التي صاغتها هي نفسها، تفتح ثغوراً في القناعات، قناعاتنا نحن الذين سنعاقر عريها ونفتض براءتها واسرارها، هي الخالة الطائشة، ابنة اليوم وعجوز الغد، بستان الحاضر المدهش بازهاره واكمامه وبراعمه وثماره، والمقبرة غداً للأفكار والنظريات ونفايات المصانع وقير الشوارع وشظايا الزجاج المنحطم من مرور عجلات الزمن. اقودك ثم نهتف قائلين: افتح يا سمسم.

ينفتح بابها الزجاجي العريض دون يد، فلها في كل باب عين سحرية ترى

الوالجين والخارجين، تحس رعشة ظلالهم فيسري باحداقها اوامر كثيفة تُنقل باسلاك متداخلة إلى عضلة ما تهز الزجاج وتفتح فيه ثغرة للداخلين، لي ولك، لها ذات الاقراط وله المتقبع بقبعة مكسيكية او امريكية، تنفتح للصبيان والصبايا، للمقعدين والاصحاء، للأثرياء والفقراء.

انها تضمنا اليها لكنها تعاملنا باعتباطية، فلا يخدعنك ضوؤها الباهر وملاستها المعروضة، فالمدينة العجيبة لا تعطي نفسها من اللحظة الاولى. تبتسم بفم عريض وتخفي الخنجر خلف ظهرها، تعانق باحضان دافئة وبجعبتها الصقيع، لكن رغم ذلك نلجها فنحن لا نستطيع العيش دونها تلك الساحرة بين الساحرات، التي لملمت نفسها بين جدران وزجاج ملون.

هل تحس هواءها؟ انه ساخن فنحن في فصل الشتاء من كرتنا الارضية، وهواؤها بارد صيفاً ساخن شتاء، تتحكم به آلات عملاقة مطمورة تحت، في الظلمات، تستجلب نقاوة الهواء انابيب غليظة من الزنك المغلق، فالبارد لا يسخن والساخن لا يبرد، ومثل مجسات اخطبوطية تتطاول الانابيب وتعرش في طوابق المدينة وازقتها وفسحاتها، وفي كل تعريشة فتحة صغيرة تدفق الهواء إلى الجوف. هواؤها يجنح روائح الطعام ويدفقها في الانوف، ينشر عطر النساء بين الرجال، يمزج اريج الزهور فلا يعود ثمة اختلاف بين زهرة فلبينية انبتتها السهول واخرى من جبل من جبال هملايا.

هواؤها فوح خمور وعطر ازهار وعرق آباط وانفاس وتبغ. هواؤها عطن جلود مدبوغة وريحان واسفنج وجعة، فلا مهرب لنا من غيوم هوائها وزوابع عطورها الذائبة ببعضها المكونة مزيجاً قلما نحسه في مكان ثان.

ساحة.

يقذفنا الباب إلى ساحة، دائرية شاسعة مبلطة بمرمر ملون، زهري واسود، احمر وبني، مرقش وصاف، يتمرى الداخلون به فلا يقعون إلا على الوجوه

منهم معجونة بالوان ملابسهم. الخطوط الدائرية هندست كي تجعل للساحة مركزاً وللمشاة ممرات تقود إلى كل الجهات، وهي تتوازى تماماً مع دائرة القبة المعقودة فوق جسد المدينة. القبة المخيمة على الساحة تغلق المدينة على موجوداتها، ودوائرها الوهمية تضيق تضيق كلما ارتقت إلى الاعلى، يسند زجاجها شرائط معدنية بيضاء منسوجة عمودياً وافقياً. ومثلما لكل قبة مركز فلقية الزجاج هذه مركز تنضفر عنده نهايات الزجاج وشرائط الحديد واشعة البصر واعمدة الضوء المنعكسة عن مرمر الساحة، يتدلى منه شريط طويل من البلاستيك ينتهي بطابة ضخمة تتلقفها اذرع الساحة بحذر ظانة بها السقوط على رؤوس البشر. يميناً شمالاً تتارجح الكرة المذهبة بتيارات الهواء، يميناً شمالاً تكر فوق الرؤوس. ان اهتزازها دائب، حضورها لمن يترقب مرعب، تربط السقف بالارض، عقل المدينة بمعدتها، سماءها بارضها، في الاسفل ترسم اقواساً كما ضربة سيف عملاق حدودها الشرفات الدائرية للطوابق، حيث تقترب من محجلات الحديد مسافة متر واحد ثم ترتد مذعورة إلى الجهة الثانية.

لا تنفر من التفاصيل، فالمدينة في الحقيقة تفاصيلها، دقائقها التي لا يلتفت لها الفرد. لا تنتظر ان تمنحك نفسها. انفذ بها عضواً عضواً ودارة فدارة، فكما الزهرة تيجان ومدق وسداة واشواك واوراق ولقاح، كذلك هي، بشر واطعمة وشراب سائغ وروائح وشوارع وبنوك وسيارات. همسات كظيمة لا تصل الشفاه وقطط تتزاوج فوق الاسطح وشاشات بانورامية تريك الماضي والحاضر والمستقبل. كما الزهرة المتفتحة هي، وجودها مزيج غريب يمنحها روحاً ومذاقاً وهوية. لا تستطيع رؤيتها قبل المرور على سوق اطعمتها، معرفتك تظل ناقصة، فاتبعني.

الساحة فم

يفضي بك إلى مطاعم تبيع ما لا يخطر في الذهن، مطاعم سمك، مطاعم

لحوم مشوية مطاعم خضار، مطاعم سباغيتي، مطاعم لا طعمة باردة أو طازجة وما عليك الا الاختيار. وعلى خلاف المدينة التي اعرفها وتعرفها انت، فالمسالك المتفرعة من الساحة المشعبة في جسد المدينة سهلة لا عوائق فيها وكأنما ثمة عرف متفق عليه من الكل، يحرم الجلوس في الممرات او الوقوف الطويل. طوفان البشر دائب الحركة، يجرف معه النساء واطفالهن، الرجال ورفقتهم، الاطفال ودُماهم، والجميع محمول على كف هذا العفريت المسمى بـ (المدينة).

لا ينالنك العجب ان قلت اننا نتجول وسط معدة.

للمدينة معدتها شأنها شأن الديناصور المنقرض وافعى البوا وجاموس زائير وجمل الصحراء العربية الخابط بين الرمال خبط عشواء.

نحن نتجول وسط معدتها التي مهما حلقت بين السحب وتاهت في خيالاتها العلمية وتعازيمها السحرية وفنونها، فإنها لن تستطيع التخلص منها.

هضم، لوك، طحن، افرازات وافراغات، سيلانات لعاب، تمطق، شم، تذوق، غدد، كلمات من قاموس المدينة الضخم، المؤلف على امتداد آلاف السنين. ومنذ آلاف السنين ما انفكت تجاهد لطردها باحلال كلمات جديدة بدلها. فن، رسم، خيال، حب، صناعة، سفر بين الكواكب، غوص المحيطات، زراعة الاعضاء، العقل، الشاعرية، إلا انها لم تفلح حتى هذه اللحظة من تاريخها المكتوب.

لآلاتها اخترعت البنزين والنفوط والدهون غذاء، لخيالاتها الخمور والمشمومات والصور، لصحاريها جلبت من اصقاع بعيدة رطوبة المياه، خلخلت بنيتها القديمة، واسست اخرى جديدة، إلا أنها ظلت تأكل كما يأكل ابوها القرد، لا تستغني عن الخيار والسلق والذرة والرز، ولا عن دماء اشقائها الحيوانات.

فتعال نلج معدتها، نرفع الحجب ونلقي الضوء في هذه اللحظة من النهار، وبعد زوال حضارة البابليين والمايا والفراعنة وروما وغياب شمس امبراطورية الاسلام وتلاشي قرقعة اسلحة بني عثمان والصعود إلى القمر او الهبوط ربما، وسفر الاقمار الاصطناعية إلى مجرة جديدة لا تبعد الا سبعمائة وخمسة ملايين سنة ضوئية عن هذه القبة.

هل تشم رائحة غريبة؟

يقيناً أنها طالعة من بين يدي ذلك الفتى الياباني، وجهه املس،عيناه بقعتا زيت محروق ينش برموشهما شعرات سود متسربة من لمته السوداء كجناح غراب. المدينة خلية اجناس فلم العجب من وجود هذا الفتى الوسيم؟ لا تنظر إلى قصر قامته بل انظر إلى ما يصنع، إلى الفنون الهاربة من اصابعه الناعمة. فمثلما عمّر اجداد الفتى جزائر اليابان بالابنية المدورة والحدائق المنسقة وشغلوا الدنيا ببطولات ساموراياتهم، فهو اليوم يدهشنا بجانك زي والنيشيكوري والجن جيان والشاولن. لا أرطن، فهي اطعمة في قدور نظيفة مفلطحة تقليها نيران لا ترى، تطلق ابخرة محببة إلى الروح. دعني اخبرك بالجانك زي، فهو شرائح لحم طولانية مع مخضرات مسلوقة وطازجة يجاورها رز مصبوغ بالاحمر يسرق العيون دون عقاب. الشاولن؟ لا استطيع شرح كل الخبايا، فانت مدعو لبذل قليل من الجهد كي تتعلم. لا معرفة من غير ثمن. النيشاكوري يتألف من الرز والمرقة الصفراء الخليطة من البقدونس والطحين والسمنة والفطر والفلفل الاحمر.

اطعمة غريبة حقاً، وهل تعشق غير الغرائب؟ أليس ذلك معيار هويتها وانتمائها إلى حضارة اليوم المسلوقة بالنيوترونات والاشعة الذرية والاليات النفطية المتفحمة مثل خضار الياباني؟ ومن يدريك اننا نحن المتجولين بافناء معدتها ليس سوى اطباق مسلوقة بسائل رخوي؟

عند الحاجز القماشي المحلى برسم لتنين ينفث من فيه ناراً والمضاء بشمعة

حمراء تهز اطراف التنين وتجعلها تتماوج راعشة بحياة ضوئية تضفي الرعب في الناظرين، مطعم البترا. قيل في حوليات منشورات ذلك المطعم، ان اصل البيترا من قرية ايطالية طالها ذات زمن جوع وجدب لا مثيل لهما. العائلة صارت لا تجد ما يكفي من الطعام لاطفالها، وكما أن لكل صناعة مخترع، فقد قام رب البيت وافرغ الحفنة المتبقية بكيس الطحين في اناء صغير. عجن الحفنة وسواها على شكل رغيف كبير ثم جمع بصلة يابسة وسجقة متفحمة وثمرة بطاطا نصف تالفة وفرم هذا الخليط وصبه على الرغيف ثم دسه في التنور. وما هي إلا ساعة أو اقل، حتى خرجت الوليدة العجيبة النكهة المسماة بيترا. وفي بحر يومين انتشرت هذه الصناعة في القرية، وما ان مرت سنة حتى عرفتها كل الاصقاع المسماة ايطاليا. وباقي الحكاية يعرفها من هب ودب، إذ اصبح للبيترا اختصاصيوها وفاقت انواعها الخمسين. بيترا البصل والجبنة، بيترا بالمحار، بيترا بالسلمون، بيترا بالمخضرات لمن لا يأكلون اللحوم، وإذا رغبت معرفة جميع الانواع فما عليك إلا أن تطل في قائمة ذلك الايطالي المعلقة جنب التنين.

لا ترغب مشاهدة مطعم السباغيتي؟ حسناً، دعنا نتجاوزه إلى محل آخر.

هل جذب انتباهك مطعم السمك؟ المدينة خبيرة بملء معدتها، خبيرة بالطعوم والالوان والروائح.

إنه خليط مثير حقاً، اخطبوطات من تاهيتي، جرّى من الفرات، محار من شواطىء البحر الاحمر، سرطانات ضخمة الكلابات من خلجان اليونان، تونة من المسسبي، كافيار مجلوب بعلب للتو من البحر الاسود مدبوغ بالمطرقة والمنجل. سلمون بحجم صبي عيونه مدورة جامدة ينعكس في سوادها الضوء ورشحات الالوان المارقة والعكارة المخيمة في الحواجز. وفوق تلال السمك تلك، تربعت سلحفاة استرالية ضخمة البوز صلدة الدرع مخططة باللون الاسود والابيض، قابعة خلف حاجز الزجاج كما لو كانت تتحين الفرص

لمغادرة عرشها السمكي والفرار نحو اروقة المدينة.

من يأكل يشرب ومن يتخم بطنه لا محالة يظمأ، وكما ان ثمة مطاعم للأكل فاخرى للشرب تلتمع ندية ترشح حلاوة وطلاوة، وكل ما هو حي يعود إلى الماء، ولا حياة من غير رطوبة، قانون يربطنا بالافعى والنمر والذباب وكل الدواب التي نتقاسم معها شجرة عائلتنا الحيوانية.

لمبادا: برتقال مع اناناس مع منكه، شراب اصفر خجل قليلاً. ينتسب إلى البرازيل.

استراليا: عصير الكيوي لوحده، اخضر كما لو انه مصاب بداء الاشنات.

شراب بطيخ، عصير ليمون، نقيع تفاح محلى بالسكر.

شراب اممي خليط من رمان حلب وفستق السودان وحليب جوز الهند وموز جنوب افريقيا الابيض المبقع بالاسود أنتجت بذوره في بريطانيا العظمى قبل ان تتقلص مساحتها إلى جزيرة صغيرة تلطمها امواج بحر الشمال ليل نهار.

نعم مثلك مللت من الاطعمة والاشربة فدعنا نلتفت إلى اخوتنا بني البشر، هؤلاء الذين نتقاسم معهم المدينة والكوكب الدائر حول نجمتنا الضالة.

لا يغرنك منظرهم الموهم بالخلود. سيطوينا التراب بين جناحيه، عظاماً ننحل وشعيرات نتبعثر، وسنطفو ذات يوم على زمن أجرد طفو ازاهير الرمان في السواقي، ولن يبقى خلفنا سوى فضيلتنا الوحيدة، فضيلة اننا ندون هوية لهذه اللحظة من العمر، نروي لاحفادنا القادمين مآكلنا ومشاربنا، البستنا واحلامنا، مشاريعنا ورؤانا، فنحن بذرة اليوم وزهرة الغد.

فرادى أو جماعات يجلس الآكلون.

يجلسون على مقاعد عالية من خشب تعملق اجسادهم وترفعها في الهواء المختنق. على طاولات ما تكاد تفرغ حتى تكتظ ثانية ينكبّون، في وجوههم

لذة وعلى سيمائهم راحة بال، يمارسون طقوسهم الهضمية على موائد عامرة. يأتي الندل ويغدون، يزيحون فتات الخبز وعظام السمك، يلمّون باصباع من قطن قطرات اللمبادا واشنات الكيوي، اطقمهم بيض ويعلقون على الاكتاف شراشف بيض يبسطونها على الموائد بعد تنظيفها. الفم ليس وحده الذي يأكل، العين أيضاً، تقول قطعة خشبية دست بزاوية من مطعم تركي.

بين الاكلين نساء شقراوات باجياد عاجية وحواجب مزججة وشفاه تفاحية.

صبايا سمر مشرعات القامات كأنهن كواكب درية يلحظن الرجال بعيون سود رموشها شهوة واحداقها نداءات، يلفت البصر منهن طلاؤهن الخفيف واقراطهن المترجرجة على الرقاب: اقراط زجاجية، خشبية، بسلاستيكية، على هيئة حيوانات وزخارف هندسية وثمار استوائية، قصيرة لاصقة بشحمة الاذن أو متدلية في الهواء.

أية عيون لنساء المدينة في هذه اللحظة؟ وتلك الحياة الفائرة فيها اهي نتاج خمرة معتقة أم شهوة أم دل؟

عيون يضل فيها رجال متأنقون. انهم يبحثون عن عتمة تشعل ارواحهم، عن قبس انثوي يكمل لذة اليوم، ساهمين تراهم، جادين صامتين، ان حكوا حكوا بهمس وان صمتوا اسدلوا على النفس قناع الشمع.

لم تر، ومنذ أن هتفنا لسمسم أن يفك مغاليق بابه، اية لفتة مودة بين ناسها، اليس كذلك؟ لم توقفك محادثة عابرة بين صديقين يلتقيان بغتة، أليس هذا مدهشاً؟ انس المدن التي الفتها وتعال نبحث عن الاسباب، الاسباب التي تجعل الحشود جادين اكثر من اللازم تائهين مع نغمتهم الداخلية دون سواها. تعال نبحث.

المدينة طعام يوم ولذة ثوان.

انها السباق مع الآخر المتخفي تحت سمته الشمعية، المبتسم دون أن تدرك

هل ما تراه ابتسامة حقاً أم تكشيرة الجد البعيد، قرد الغابة المتعربش بغصن استوائي.

الفرد، يدرك أن اطعمة المطاعم واشربتها، ان نساء هذه الساعة وخمورها، ان متعة الحانات وموسيقاها، ان السماء الصافية خلف القبة وزرقتها، له، بيد ان ثمة آخر متربص أيضاً، يحتان الفرصة لاختطافها، لافراغها بجوفه حتى الثمالة. انه يخاف منه، يزاحمه، يشك فيه، وينفر منه.

الكل يرى السوط المعلق في الفضاء، السوط غير المرئي محرك الغرائز وهامز الشهوات. فهل تعجب من السباق المميت هذا؟

البشر، الروائح، الموسيقى، الندل المهتزون بين الطاولات كالرقاصات، اضواء الحوانيت، الانفاس، الجميع في سباق.

ولكي تزداد فاعلية الشعيرات المعدية وتغزر افرازات الغدد وتنبعث الرخاوة في خلايا الجسد، عُمد إلى الاستعانة بالموسيقى فجعلت تنطلق من الجدران على هواها، تدب في الممرات، يعجنها الهواء، ثم تندفع إلى فسحة القبة صعدا، اعصاراً حلزونياً يروم هروباً إلى أحدى المجرات.

روك بطبول وصناجات وابواق. فالساحات حزينة. سمفونيات ذات فواصل صامتة يعقبها هدير سلالم موسيقية تقوده البيانو. اصوات بشرية تؤديها حناجر صيادي الاسكيمو. لمبادا وسامبا من البرازيل. سنطور يوناني. قيثارة بالالايكا روسية. عود دمشقي يترنح فتهرّ نوتاته الموسيقية على البلاط الاحمر لأرضيتها فتتقافز كماعز جبلي. مقام فارسي. ايقاع زنجي يحس به الناس اقرب إلى ارواحهم، يحمل نفحات الاصل الحيواني والتعازيم السحرية والطقوس القبلية.

في جوفها، الموسيقى ليست هي الوحيدة التي تهر نغماتها على الارضية المرمرية، الاعراق ايضاً. لغاتهم تتطرطش في الاذان حافرة مساربها في القلوب وجاعلة من نفسها اليفة لا تثير الذعر.

لغاتها قاموس عجيب: فلكل طعام لغة ولكل شراب لغة: للخزف لغته وللكومبيوتر لغته: للبانوراما الضوئية لغتها ولقنينة العرق ايضاً: الخيالات والاوهام والبشرات لغات: انجليزية وبولونية والمانية وعربية وسواحيلية وهولندية، فرنسية يتكلم بها الجنوب الساخن فلا تخفى لكنتها، لغة الاسكيمو بمقاطعها السريعة، الاسبانية المموسقة المتأثرة بكاتولونية في طريقها إلى الاندثار، يابانية مفلطحة، صينية متوائبة كأنها ريشة بجع تتحدر بخفة من الجو.

الانسان الذي يدخل البوابة الزجاجية يصبح شاسعاً، كونياً، ابن الامس واليوم، يصبح مخترع المدينة ومغيرها، ناسجها وحالها ولا مهرب امامه من عيونها الميدوزية الساهرة.

ولاكمال متعة السكان واشعارهم بانهم مواطنون كونيون يرون كنوز الارض في متناول اليد، عمدت سلطات مؤلفة من ملاك مصانع وخبراء زراعة واعضاء برلمان وعلماء في الطبيعة ومختصين بالنفس البشرية إلى جلب الغابات وتضاريس الارض والحدائق الشهيرة كي تمتع الانظار وتوسع آفاق الرؤية وتمنح الخيالات عمقاً جغرافياً يتعدى الجدران والقباب والابواب. ولما كان من الصعوبة بمكان جلب غابات افريقية وصحراء العرب ونباتات اليابان ونخيل البابليين، باعتبار ذلك مشروع غير واقعي يتنافى وعقلانيتها، فقد تم انتخاب ما يلمح عن هوية وما يدل على صورة. المنتخبات موزعة على الواجهات، فوق فوف من خشب الماهوغني، عند الزوايا المعتمة، مدلاة من السقوف، وسط شذروانات محمولة بقضبان زجاجية او خشبية: شجيرات قزمة ذات ورق ناعم وسيقان معوجة من جزر اليابان، نخيل بمقتبل العمر تتشبث به فسقيات من الطين، ازهار مدارية ضخمة كتب على ورقة حمراء منها قلب الامازون، متسلقات لبلاية اعدت لها ادراج خشبية لكي تدلي اوراقها فوق رؤوس الشارين، صباريات من اريزونا، صبار افريقي تتفرع منه اوراق تتفرع منها اوراق تتفرع من الاوراق سيقان مزهرة محاطة باشواك قنفذية، غزال الرنة من

البلاستيك، الجمل اليمني من الخشب، العظايا الاسترالية من القش، كلاب البحر من جلود مدبوغة ينتأ منها انياب عاجية تجاورها عينان رسمتا بالفحم المذاب أو القير.

انها تبتكر نفسها، تصنع حياتها. انها لا تكف عن الابتكار، فأما ان تقبلها أو تلفظك، وهذا اس مبادئها.

أراك ضقت ذرعاً بجوفها هذا ونال منك الملل وادارت الموسيقى والروائح رأسك... لا مهرب من الجوف. لا مهرب إلا بالصعود إلى فوق، وللخلاص من تيهها ينبغي ايجاد السلالم.
تعال نصعد.

* * *

انها مصممة كي لا يبذل بشرها طاقة فائضة.
وهكذا ابتكرت سلالمها المتحركة.

ضع القدم على الدرجة البلاستيكية وامسك الشريط الأسود الطويل الملتف، وها نحن نبتعد عن الجوف، ننأى عن الهضم وروائح الطعام. تتضاءل ضجة الاقراط وموسيقى الصخب تخفت. ابتسامات الندل تشحب وعواطفنا الدونية تخف قليلاً قليلا بعدها يحل التسامي الفذ

نحن قادمون إلى عالم اكثر ابهة واقل تشنجاً.

نحن في المشغل: محلات لبيع الملابس، بنوك، بريد يصل المدينة باجزاء العالم التي لا تبين في الخرائط، مكاتب طيران، مكتبات، قاعات لعرض التماثيل القديمة التي لا تبين في الخرائط، مكاتب طيران، مكتبات، قاعات لعرض التماثيل القديمة مقاصف ناعسة توزع طاولاتها على شرفات تطل على الفسحة التي تتأرجح في وهدتها تلك الكتلة المسممات كرة، ذات التأرجحات البندولية الايقاع.

هونولولو هارلم اهرامات مصر منابع النيل احراش تنزانيا بوينس ايرس رشت انقرة جزر الكناري مراكش تونس الخضراء هضبة التبت ازقة لينينغراد معبد ابولو فينوس بعل ساحر نيودلهي افيال بنغلادش.

مدن واسماء ذات وقع ذهبي يجلب الاحلام إلى القلوب أن رغبت برؤيتها ادخل مكتب طيران من تلك المكاتب الانيقة بواجهاتها المزينة باللوحات والمناظر والصور. العاملات ثمة، حوريات يرششن الابتسام مجاناً، تدفع لهن خزائن الارض ثمن تذكرة على خطوطهن الجوية والبحرية والبرية. بريئك محل سكنك وانت واقف تحت القبة، يدلنك على النبيذ والمقاصف، يقدنك إلى أكثر الفنادق شهرة وفخامة.

فنادق ذات نجوم خمس تقدم ثلاث وجبات في اليوم، فنادق تقدم وجبتين، فنادق حماماتها وسط الغرف، بمسابح أو بدون مسابح، اسرّة مشتركة أو مفردة. لكنك لن تستطيع السفر من غير طلسم. للمدينة طلسمها الخاص. حزمة الورق:

ساحر القرن وعربون الزواج
تأشيرة الحب ودم الحضارة
القبلة وخمرة الاعراس
الباني والهادم
الباسط والقابض
البدء والمنتهى.

إن فقدت الطلسم فتهيأ لدخول حاناتها الكثر.

هنالك وعلى مقعد وثير تهبك لحظة النشوة، تسافر دون رحيل وتحلق دون طيران. إذا هالك الواقع فعليك بالخيال، فلا تسألني لِمَ ابتكرت المدينة مرهمها الغريب المسمى بالخمرة.

مرهم باشكال لا تعد: صفراء، حمراء، بيضاء، وردية، شفافة او كثيفة،

حامضة أو مزة، يصب باقداح بلورية تعلقُ على حوافها فقاعات لحظية الانطفاء. ومادة العجب تلك، ساهمت كل شعوب الارض بصنعها: خمور عنب من ايطاليا، خمور خبز من روسيا، خمور بطاطا من سهوب الدانمارك، خمور تمر من العراق، خمور قصب السكر من تشيلي، خمور تفاح من اسكتلندة وولايات اميركا السابحة بضباب معامل الاسلحة وسراويل الجينز.

تهب الشجاعة بقول ما لا يقال، تأخذك إلى داخلك، تدلك إلى مهاويك واغوارك، فتتذكر الطفولة وهواجس الازمان الاولى وحبك الأول ورعشة جسدك البكر.

على الطاولات اصص وزهور: غارديتيا وتيولب ولسان الثور وقلب العاشق وصبار مكسيكي، تصطف حولها كؤوس مشعشعة تجمعت فيها اضواء الحيطان وسيول الزرقة السماوية المترشحة من زجاج القبة، رجال ونساء وجوههم مقمرة تسامر بعضها أو تسر إلى بعضها ثم تمطر حشود الاسفل بنظرات مليئة بالنفور، وقد لعبت الخمرة لعبتها وراحت تفك القيود قيداً بعد قيد. هنا يحلو اصطياد النساء واختطاف القبل، ومساومات تجارية حول اعمال لا تشف عن نفسها.

البيانو السوداء اللامعة بأرجلها الخشبية الصقيلة المرتكزة على رؤوس اسود مكشرة من الابنوس، واحدة من منابع الهام المدينة ومتعها. وجودها الموسيقي يتوسط مصعدين زجاجيين يشبهان فقاعتين هوائيتين، يطيران بالمتأملين في الفجوة المحصورة بين مركز القبة والساحة المرمرية. شرفتها الطالعة قليلاً خارج السقف تجذب الابصار إليها وتمركزها، تشيع فيها حالة ترقب لنغمة ستفز إلى الفضاء سابحة طاغية على روائح الطعام وعطور النساء وهمسات البشر.

يقف خلف البيانو السوداء شاب انيق الهندام بلوري الاصابع تنضح الموسيقى من مسامات جسده، نظراته نوتات، لفتاته سلالم، انحناءاته مفاتيح، ربطة عنقه على شكل صليب اسود، يبعثر بكرم فالسات راعشة كأجنحة

الجنادب وسمفونيات وسوناتات لكبار موسيقيي الفترة الكلاسيكية من تاريخ المدينة المدون. اسمع لموزارت سيرينادا سريعة تفتتح نفسها بحركة سعيدة ثم تخطو بخفة إلى الرومانتيك لتنتهي بك إلى منويت راقص كما النحل في اهتزازه على الزهور.

الصخور تتكسر وتنفجر الينابيع ويتشظى زجاج سميك في الروح والامواج ترتطم باجراف صخرية عالية تحت شمس كونية حلمية لا هي بالعنيفة ولا هي بالرخوة. ذاك هو بيتهوفن. ولفيفالدي يعزف الشاب مقطوعات تتخيل روحك عند سماعها، تراقص جنية في نور القمر، تحملك نشوة عميقة إلى عالم الوهم غير الارضي فتطير فوق غابة خضراء لا حدود لها، مطلقة السكون تضيئها حباحب فسفورية.

موسيقى، تفرش اجنحتها على وجوه الشاربين والمتأملين، ثم ترتفع إلى فوق ارتفاع ارواح اثيرية جلبت بيوم ماطر من كوكب بعيد وهي تروم العودة إلى هناك ثانية. تزملنا الموسيقى من القدم حتى الرأس.

تلهو بنا، تدغدغ اذاننا، تواجهنا بتلك الهارمونية التي نفتقدها. وفي بحرها المضياء تشف الموجودات عن ارواحها واصولها، ترتدي شاعرية فارهة عميقة القة. البلاط في حضورها يضحك والزجاج يقمر والعيون تشع. الموجودات القديمة في المحلات القريبة تدب بها الحياة: يرتعش تمثال حمورابي ويهز لحيته الممشطة، تعوم اهرامات مصر في غيوم شاردة، والخزف يشتعل ثانية بناره. دعنا نعيش ذلك الالق، إذ لا يبعد سوى خطوات عنا.

أوان خزفية وزجاجية: صحون، اباريق، اكواب، دنان، كؤوس، جرار، مصابيح، شوابك.

الاواني الخزفية والزجاجية ذات زخارف خطية وهندسية ملونة، بعضها زخارف نباتية بارزة متعرجة تنط عن الانية نحو الهواء.

تحف معدنية منزّلة بالفضة والذهب تكمل متعة الاعين وتخاطبها بلسان الفن المفهوم من كل شعوب الارض.

خزف معدني الزخارف، زهريات وابرايق وسلطانيات مختلفة الاحجام، الوانها البني والداكن، الاحمر والاسود، صفاء البحار في سطوحها ونقاء السماء، رسمت عليها الطيور والحيوانات الاليفة والمتوحشة، بصمات يد الخزاف متروكة في مساماتها وفجوات طينها وان كانت لا تدل على اسم او بلد معين.

المدينة تعرف كي تدهش، أليس كذلك؟

ثمة انواع كثيرة من الخزف، رسمت زخارفها باللون الاسود تحت طلاء ازرق فيروزي مثل تلكما السلطانيتان اللتان نراهما امامنا. متشابهتان هما، توأمان قدتا من طينة واحدة، يزينهما رسم طاووس، يؤلف الخط الذي يحدد جسميهما وذيليهما المنفرجين على شكل دائرة موضوعاً زخرفياً يتفرد بمادته ويتوحد بزخرفه. خذ سلطانية ثالثة: يزينها تنينان متشابهان متشابكان، لهما جسد ثعباني منقط إلى جانب التعريشات والتفريعات النباتية كانا ينفثان غضبهما على شكل لطخة حمراء متوهجة.

انظر بوذا في واجهة المحل ببطنه المكورة كعجينة ذرة وابتسامته الغامضة كما لو كان يدلنا على الارواح العلوية التي تحررت من حمأة العالم السفلي وانتقلت إلى مقامها الاعلى. من يجزم انه كان ملكاً ذات يوم؟ هل تهينه بوضعه وراء الزجاج أم تضفي عليه القداسة؟

بمواجهة منحنيات القبة، حيث مصدر نور خفيف تنثه سماء بعيدة، تنتصب ثلاثة اهرامات صغيرة من الخشب، مثلث سر الموت الذي لم تصل اليه رغم خبرتها بنزوات الجسد والروح وسفرها الدائب خارج حدود التراب. وعلى بساط ضوء كاب، فرشه مصباح مدلى من السقف، وامام مرايا طويلة

ينعكس في صفحتها بلاط الطابق الارضي وطاولات الخمرة وحبل الكرة البندولية، تتمدد بسلام مومياء توت عنخ امون، عيناها تحدقان في السماء الصافية من نهاية قرننا العشرين. توت عنخ آمون، توت عنخ آمون، توت عنخ آمون، تردد آلة عجيبة موضوعة عند رأس المومياء، بلا انقطاع.

استبرق. قديفة. اقنعة من غابات الامازون. رماح افريقية. دروع فارسية. البسة مريشة لهنود حمر. اجهزة ارصاد لمتنبئين صابئة. كتب نساطرة ورقها من جلد الغزال. بردية من سومر. نقود متآكلة الحواف: دراهم وليرات وأونسات ذهب وجنيهات وروبيات ومجيديات وعظام استخدمت مرة نقوداً باحدى جزر استراليا. لقي. اطقم فضة. اقنعة من حجر. اقنعة من خشب. اقنعة من خزف. يتفحص ذلك السواح والفضوليون وانا وانت تحت خيمة الموسيقى، فمثلما فعلت بالاطعمة والاشجار والموسيقى واللغات، جمعت المدينة تحف العالم تحت سقفها مانحة لنفسها هيكلاً كونياً اطرافه حضارات بائدة ومعاصرة، من التداخل بمكان بحيث يصعب الفصل بينهما. انها الوراثة، ابنة جدود عديدين.

فما نراه امامنا وليد ملايين من السنين، بأيامها الثقيلة ولحظاتها المرعبة. نتاج حروب بشعة بقرت فيها البطون وسلخت الجلود وسالت الدماء انهاراً. انها تتعلم من اخطائها وهناك من يدفع الثمن دائماً، أمس واليوم والغد.

هل انتهت غرائبها؟ كلا.

ففي الاروقة المتلوية بين الجدران الكثير الكثير، كل شجيرة زينة وراءها حكاية، ولكل قنينة خمر قصة طويلة تملأ تفاصيلها المجلدات، وفي كل نظرة تنطلق من عين بشرية معانٍ عميقة واحداث جسام وتواريخ: اخفاقات واحلام ومخاوف وهواجس يتطلب لفك الغازها عشرات من اطباء علم النفس والمحللين الاجتماعيين وخبراء الاقتصاد. ثمة سجون، مدارس، مصحات مجانين، مجاري جوفية لطرح النفايات، سراديب لدفن الموتى، ذباب يقاسمنا الهواء،

ثمة اسلحة مطمورة في مخازنها وآلات رصد للقلوب واحجار كريمة، إلا انني لن احدثك عن هذا، امض اكتشف بنفسك، حدق بعمق إلى ما تراه كل يوم ولا يجلب النظر.

اصفن واطل بحقل الورد الذي تظنه متشابهاً وبساحل الرمل الابيض.

قامتك احنها وتأمل جيداً صفاء وجه الصبية، حيث الحفيرات الدقيقة ومنابت الشعر والشقوق الصغيرة والقشور المنسلخة.

الرجل الرث الثياب الذي يعبر البيانو مصمتاً مصماً اذنيه، اتبعه وحاوره، حدق إلى يديه فلربما كانتا اذنين.

لن تصل روح المدينة ان دخلتها دخول سائح يبحث عن الغرائب، عن ما يصطاد العين كما تصطاد العنكبوت ذبابة غبية.

اننا نتجه إلى دنيا المجردات من المدينة، فدعها تملي علينا همومها ومشاغلها، في هذا الوقت من النهار.

• • •

نحن في البهو الشاسع، قريباً من عقدة القبة، لا يفصلنا عن السماء إلا الزجاج. نعانق الزرقة القصية، نتوحد بالكون وينتابنا هاجس الطيران والتحليق، هاجس الهروب من اصلنا الارضي، من أجسادنا وحاجاتها، من فورة موسيقى نخلقها ثم نحلم بها، من هذه الذرة العائمة في الهواء.

الهروب من أذرع الاخطبوط المتشبثة بنا:

ذراع الكوارث

ذراع الامراض

ذراع المجاعات والحروب

ذراع الايام المتشابهة منذ بليون سنة

ذراع التواريخ المكرورة جيلاً بعد جيل
ذراع المعارف التي لا تنتهي
ذراع الحياة والموت في تعاقبهما غير المفهوم
ذراع الزهور عينها
ذراع الاشكال البشرية عينها
ذراع اللغات بأبجدياتها الثابتة.
نهرب من قدر يستحيل الخلاص منه.

نحن في البهو، نتجمع من الادراج ونقف صامتين متململين، ننتظر عجائب المدينة. التي ستفتح لنا، نحدق بشعاع الشمس الساقط على المرمر ونتسمع رعشات الموسيقى. نحلم ونتخيل، في بهو التأملات هذا.

عند الدرابزين الدائري الفاصل بين الهوة والشرفات يتكيء رجل ذو لحية شعثاء طويلة يطل هنيهة إلى العالم السفلي وهنيهة يمسح السماء بعينيه الكابيتين. تناولَ، ربما، وجبة من السلمون أو ماعوناً من السباغيتي، شرب كأسا من خمرة البطاطا او عصير ليمون، جال كما انت وانا وسط محلات بيع الاحذية وحوانيت الكتب واستوقفته عينا توت عنخ آمون. مثلنا هو في وقفته، يطل إلى الجوف فيجد البشر اقزاماً تهيم بلا غرض، يتحركون بفعل طاقة مغناطيسية تولد فيهم تجاذباً أو تنافراً، تمحوراً أو تشتتاً. تعال نقحم انفسنا برأسه خلسة، نعيش افكاره المتواثبة المستورة وراء لحيته: الزمن يقفز قفزات هائلة، اطرافه تطوي السنين مثلما تطوي خيط قطن، عشر سنوات، خمسين سنة، مائة. ناس آخرون ينبثقون في الممرات والزوايا ملابسهم غريبة سحنات وجوههم غير مألوفة، نظراتهم سكرى بخمرة زمن آخر له طعم معتق، وهو قد اختفى أيضاً وحل محله رجل بلا لحية يقف قرب الدرابزين رائياً إلى البشر. يعاود الزمن قفزه: مئتين، الف سنة في هوة المستقبل، ومن ثم لا مدينة بالمكان هذا. مزرعة ربما وربما صحراء أو بحيرة ملحية خلّفها انفجار نووي أو فراغ

جوي فيما لو صدقت نبوءة العراف الهندي الذي قرأ له كتاباً بالانجليزية حول مستقبل الارض وانفجارها الاكيد وتطايرها إلى شظايا في الكون.

بماذا تفكر المرأة الجالسة على الكرسي المطاطي ليس بعيداً عن الرجل، المرأة الحاملة لكتب التنجيم وعلوم الفضاء واسرار الخلايا الحية؟

تقول كتبها التي تصدقها كل التصديق، ان ابسط زهرة برية نلاقيها في الطريق ما هي إلا كون بحاله، قدراتنا المحدودة كبشر هي التي تحجب عنا شساعته. لم لا نكون اذن خلية بجسد هائل لا ندرك ابعاده؟ لم لا تكون كرتنا الارضية خلية صغيرة تسبح بسائل لمفاوي يسمونه الهواء؟ اين حدود الجسد العملاق الذي نحن نواة تافهة من تركيبه الخلوي، وهل تسافر مركباتنا الفضائية لاكتشاف تلك الحدود؟ اين الرأس المسيّر واين الاطراف، اين العين الرائية واين الاذن؟ اسئلة كثيرة تراود تلك المرأة صاحبة كتب التنجيم واسرار الخليقة المزججة العينين.

تأمل الشاب امرد الخد، مثلنا ينتظر دوره لدخول عالم الآلات العجيبة التي ابدعتها وخزنتها وراء الستائر والحجب، الآلات التي تأخذنا إلى الماضي البعيد كي نرى جذورنا واسلافنا، نرى معاركهم الدموية وخيالاتهم الساذجة ومدنهم التي اقاموها على الآبار وعند الطرق وفي السفوح وحول المعابد. ترينا جساس والزير، كريشنا وزرادشت، يوليوس قيصر والاسكندر المقدوني، موسى وفرعون مصر، الهنود الحمر والغزاة الاسبان. كان الشاب يفكر أيضاً بمدن مختلفة الابنية عجيبة البشر، وسائط نقلهم لا ترى، طيرانهم يتم بين الابنية وتحت الارض ووسط بحار كثيفة الموج. انها مدن المستقبل تنبثق في ذهنه واضحة وضوح المومياءات والمطاعم وبندول الكرة المتأرجح.

نسيت أن اخبرك ان بهو التأملات مكون من عشرة بُهيّات صغيرة، في كل بُهي دهشة، ففي البُهي الرابع وعند زاوية مضاءة بمصباح فوسفوري تنتصب ماكنة لقياس دقات القلب، ما على الراغب إلا وضع اصبعه على زر

صغير احمر ليرى اسرار جسده: عدد دقات القلب، سرعة تدفق الدم، الضغط، نسبة الاملاح، سنوات العمر، تؤشر ذلك ارقام زرق لا تخطىء مطلقاً كما كتبت المدينة على الآلة.

البهي الخامس: مكعب زجاجي مؤطر بعوارض فضية ومضاء اضاءة حسنة بيضاء يتوسطه مرقب على طاولة حديدية جنبها كرسي دوار، وللمرقب عدسة مسطحة ترى ما لا تراه العين. ضع قطعة من تويج زهرة بحجم الاظفر على صفيحة الزجاج وركز عدسة المرقب عليها: مدينة: قنوات لحمل الغذاء تلتف وتدور وسط حقول مطاطية تحتوي على غرف مكعبة تمص الغذاء بأنابيب شعرية غليظة، كهوف لطرح الفضلات، كروموسومات تمشي بخفة، جنود حراسة مدججون بسوائل حمضية لابادة العدو، مصانع لانتاج اولاد جدد، مصانع لتنقية الفضاء، مركبات تنتقل على فقاعات هوائية في الحقول المطاطية، سلالم لتسهيل المرور.

المرأة العاملة باسرار الخلايا والفضاء على حق اذن، فمن يدرينا، انا وأنت، إذا ما كان ثمة شخصان يتجولان في ابهة تلك المدينة التي لا نراها إلا بالمجهر وهما دائبان باكتشاف مدينتهما. هل تستطيع الجزم بان ذلك الكروموسوم المتحرك بذلك التويج الذي بقدر اظفر الوليد لا يفكر مثلنا ويحلم مثلنا بارتياد فضاءات بعيدة؟

تلك قلامات قميئة من معارفها، لكنها رغم هذا تستلب منا كبرياءنا وجبروتنا، تحولنا إلى اقزام بحضرتها المرعبة، بافقها العميق الغور.

ليست كباباً تركيا هي فقط ولا شراب عنب من سهول بلغاريا، ليست قناعاً لآلهة من آلهات المايا ولا نبتة من جزر هاواي. ليست موالاً من ديار بكر ولا سمفونية لشايسكوفيتش فقط.

انها كل ذلك، انها المرقب الموجه إلى التبّانة والسكير الحالم وانا وانت

المتعطشين لفك الالغاز، فاصبر وناولني يدك في رحلتنا نحو السماء، سماء رأسها المقبب.

نحن خلف باب عريض ينصفق وراءنا دون صوت.

على الحائط المقابل المؤطر بذبالات حمراء وصفراء وخضراء وبنية ثمة بانوراما. بانوراما لارضنا، للخلية التي لا يدرك كنهها: صور متعاقبة تقص للمشاهدين تاريخ هذا الجسم الغريب الذي ثلثاه ماء. هذه الكرة المشبوحة بفضاء أجرد، المدخنة المتفجرة بمعجزاتها وويلاتها وكوارثها، المحاطة بكواكب وكويكبات واجرام وثقوب بيض وسود ومجرات وشظايا شموس تفجرت قبل ملايين السنين.

ارض الذرة الصفراء.

ارض المارد المدعو بالإنسان.

ارض النفايات النووية وبرادة الحديد والوردة.

ارض المسارح المتجولة في الطرقات وتلك المشعشعة الاضواء البارقة على ليالي الصخب وضحكات النساء وسحر الرجال.

ارض ما ندعوه بالقلق والتمرد والود والنظرة المتشفية ولباب القلوب.

ارضنا التي تتسع للعقرب والعنكبوت وصرار الليل والضفدع المترصد ضحيته.

التي تتسع لأمجادنا وأحقادنا، لبحارنا وأشعة شمسنا، التي نصفها ثلج ونصفها نار مخبأة بأعماقنا.

انفجارات بركانية تنزف نفسها، تضيء الستائر المخملية وزوايا الاعمدة وعيوننا المفتوحة وهي تلاحق المسائل النورانية والحديد المنصهر والتراب المتلظي المكون جزراً جديدة الزائح عن حدوده السنة البحر المتموجة. آبار نفط صهاريجها منحنيات صخرية كالرحم. غابات اسبندار وزان واحراش هائلة الخلقة تجولت بين متاهاتها ذات يوم حيوانات ما رأتها عيون اهل المدينة قط:

ديناصورات بذيول طويلة، طيور جارحة غشائية المخالب لها افواه ماصة أو مفترسة، افيال يغطيها صوف ناعم كصوف الخرفان، ماموثات عملاقة تصطاد زرافات لفطورها وتماسيح لغدائها وتبتلع عند العشية بغزلان مخيفة القرون، حيتان برية بأربعة اطراف تدلف إلى كهوف لا يضيئها سوى مشاعل ابينا الشبيه بالشمبازي، فهو الذي خط على ضوئها تصاوير تلك الاحياء التي كانت تحاصره حد الموت.

الباتوراما التي نراها تروي لنا تحولات الآباء، وهم يرتقون سلم التاريخ درجة درجة، يتعثرون، يسقطون، يرتاحون سنيناً وقروناً إلا أنهم يعاودون الصعود، يزيحون عن اجسادهم لبدات الشعر والاظفار الطويلة ورائحة الدماء، يزيحون توحشهم وبقايا تقرنات بشراتهم، يصنعون من الجلود ملابس، من الخشب بيوتاً، من الورق صحفاً، من المياه غذاء، يشيدون الجسور على الانهار، يفترسون الجبال بطرقهم الملتوية، يتطلعون إلى السماء بدهشة غامرة. هي الدورة الحلزونية لوجودنا، الغيمة ذات الاشكال الخلابة، غبار الازمان المتساقط من سجادة الكون تهزها يد عملاق لا نراه.

رأس المدينة يكتشف جسده، يجند لمغامرته آخر ما توصلت اليه البشرية.

رأس المدينة يعيد تشكيل ماضينا، يتقاذفه ككرة من المطاط.

تختلط الحقائق بالاوهام، التواريخ بالبديهيات بالبراهين، الاديان والنظريات والتهويمات والاحلام. تختلط فيه السنون والاحقاب والقرون، من جعبة الاقوى تتوالد الحوليات والكتب والسير والبطولات، ولا أحد ينير لنا ما بجعبة المهروس تحت الارجل، مَنْ مرّت عليه عجلات الايام مرورها على الطرق الممهدة.

مَنْ من الشخصيات التي سمعت بها ترغب برؤيتها؟

الهندي الاحمر المغطى الرأس بالريش ذو الرمح المسموم والنشاب النافذ،

من كانت القارة سجادة لسطوته والفصول انجيلا لرؤياه؟ الهندي الذي لم تكن بشرته يوماً حمراء على الاطلاق انما هو اختراع المدينة؟

قارىء الريح، باصر الارواح، المتربع على موقده الشتائي حالماً بأمجاد القبيلة وبطولات الاجداد، الثلجة المائعة، العود المرنان، النجمة الخافتة، ريح آخر الليل، حشيشة المنحدر، وردة الدم، عظمة الليل، دمعة طير الوقواق، تلك هي بعض من اسمائه.

ساحر الزولو، باصدافه وعظامه ورمحه الطويل المنقوع بدماء اعدائه، ساحر الزولو الذي يرقص على وقع طبل جلده جلد بقرة وحشية تحت شجرة بانبو عجفاء عمرها عشرة قرون.

بحارة البحار وهم يصارعون امواجاً من مرجان واخطبوطات، من وهم وخيالات تولدها دورانات المحيط.

قراصنة ما قبل البخار؟

فضولي انت لرؤية: جبل اسوس المشتت الهدوء بسبب ضربات امواج البحر المتوسط، حكيم من حكماء الهند يتوضأ بمياه الغانج، راهب من التبت، درويش بتكية في اسطنبول، قبة الشيخ محي الدين بن عربي، ثريات الامام الرضي، متاهة المهدي بملوية سامراء؟

كيف تود الرؤية ومن أي باب أو طريق؟

افلام فيديو، شرائط سينمائية، شرائح ضوئية، صفائح من البلاستيك، بنود من الورق رسمت عليها الشخوص والامكنة بحبر مائي أو بألوان مستخلصة من الازهار.

حرب البسوس.

شريط سينمائي طويل اخرجه احد عمالقة السينما المصرية دون أن يضع

اسمه عليه تواضعاً.

جنود جساس مصفحون بالزرد والدروع الدمشقية، ينزلقون وسط واد من الحميض والعرعر والشيح والقيصوم، يهمزون خيولهم نحو اعدائهم.

الاعداء، رجّالة وراكبون يتقدمهم فارس يرغي وزبد، انه الزير سالم:

أنا الوتر المقطوع
انا الشجرة الشائكة
أنا الهوة التي لا يدرك قاعها
الفرس الجامح أنا

ثم يتقدم جساس على فرس شقراء عنقها طويل وعيناها تقدحان شرراً، تطأ الارض بحوافر قدت من الصخر لها رنين، يتحدر من تلة مغطاة بازاهير شمام ذابلة.

: الرمح يغوص بقلب مدمى جساس
: الصخرة ترتطم باختها جساس
: الحصاة بين القدم والخف جساس
: الثمرة المرة بهرش اليقطين جساس
: المرأة العاقر بين النساء جساس

ارى السأم يطغي على وجهك والملل ينمّل اعضاءك وزفراتك تتصاعد وسط بريق السيوف المتعاقبة على الشاشة. انني اقرأ جيداً ما يدور خلف شعرك الكث، أنا أنت، فدعنا نغادر سخرية القاعة، نهرب من تاريخها الذي على هيئة سيوف ورماح ودماء تصطبغ بها الاودية.

عن أية بسوس تحدّثُ هذين الخذروفين الدائرين وسط اروقتها؟

نحن في عتمتك يا مدينة تزوّر نفسها، يا بزاقة تزحف إلى فم العظاية، مآقيك تلوث تطلقه محرقاتك الالف، فمك ينضح نفطاً، حواسك الكترونات

وسيلانات نووية، فاي حياة ترتجين واي خلود.

ايتها القدم المنزلقة انجا بعد انج إلى هاوية الفضاء.

انظر تلك الدكة العالية. عشرات التلفزيونات علقت بكلاليب حديدية، مضاءة اجمع تنقل المشاهدين إلى مدن أخرى يحلمون بها. طوكيو تجيء صافية عبر وجه انثوي املس البشرة سبط الشعر. ابراجها، جزرها المرجان، اسنة سيوف الساموراي، الحدائق المرصوفة بالمرمر، السيارات الانيقة، الكومبيوترات اليدوية المحمولة بالجيب، دوارات الضوء الراقصة.

موسكو: ثلوج ثلوج وقباب وكاتدرائيات مهجورة خالية من الايقونات والمباخر، قصور قياصرة اندثرت رفاتهم في صحارى سيبيريا، رايات حمر تهمزها ريح قطبية محملة برذاذ العواصف والموسيقى.

موسكو، طوكيو، ريوداجانيرو، مدريد، بكين، القاهرة، بيروت، فأي العواصم تفضل؟

أين هي المدن الرملية الملفوفة بسيلوفان الفيضانات والحروب الاهلية والجوع، اين نواكشوط وبغداد وبنغلادش واديس ابابا، اين ليما وازقة زمبابوي وبركانات الهندي التي تتفجر كل الف عام مثل اديانها الجديدة؟

إلى أين تأخذينا ايتها العارفة بكل شيء الجاهلة لنفسها؟ إلى أين تقودنا اروقتك وطوابقك واجهزتك المعقدة؟

ترينا العالم بأدق التفاصيل ونظل لا نفقه شيئاً، كلما ازددنا معرفة كلما ازددنا جهلاً.

صحراء لا انتهاء لها، والاسئلة تفتح المزيد من الاسئلة، وكل جواب يطل على سؤال. الوردة كون تقول مجاهرك، الارض ذرة في فضاء، الارض طاقية على هواء تقول لنا البانوراما، كل جسد مجرة بكاملها وكل مجرة جسد

قمىء إذا ما قارناه بالمجرات الاخرى. كل ثانية تولد ملايين من النجوم وتموت ملايين. الثانية من زمننا الارضي حياة طويلة لدوبيات لا تراها.

لماذا تضعين كل هذه الالغاز بين ايدينا، الثنك تودين الخلاص من عبء باهظ ام لأن الاسرار فتنتك.

الغاز، الغاز، الغاز تصفعك اينما ادرت وجهك.

تعال ندخل الصالة الجانبية المكتوب عليها: صناعة تاريخ المدينة، فهي تقع في الرواق الثاني الملاصق لصالة حرب البسوس.

جنب الباب ثمة صندوق زجاجي يحتوي على قائمة طويلة تستطيع فيها قراءة ما يلي:

- تاريخ الحروب منذ بدء الخليقة حتى اليوم.
- تاريخ الاديان السماوية وغير السماوية.
- تاريخ الوصال الجنسي وفنونه.
- تاريخ الاجناس البشرية.
- تاريخ الاسماك والزواحف.
- تاريخ ابن خلدون.
- تاريخ جيفارا ومقتله في احراش بوليفيا.
- تاريخ الطيران.

لا يمكن قراءة ما تحتويه القائمة برمته، وان اراد الرائي مشاهدة تاريخ ما، ما عليه إلا أن يختار الصويلة والرقم، حيث يقوده سهم ضوئي إلى المكان. حين تدخل الصويلة الداخلية ثمة صندوق على الباب يدلك على مصدر التاريخ الذي ترغب. لكل تاريخ مصدر يرويه. تاريخ الاسماك مثلاً، بامكان المرء رؤيته عن طريق مصدر سوفيتي او امريكي او صيني أو عربي او يهودي... إلخ. الحروب، ثمة عشرة آلاف مصدر لروايته، لا تتفق لا في التفاصيل ولا في

الاستنتاجات.

المدينة لا تطلب منك تصديقها، تطلب الانحياز الاعمى، تطلب ان لا تكون في الوسط. لا تقل ليتنا لم ندخل هذه المتاهة.

نحن لم ندخل المتاهة، اننا فيها منذ أن قذفنا ذلك الرحم الاظلم إلى الهواء والنور وارتعاشات الماء.

لقد عشت المدينة قبلئذ آلاف المرات، دخلت اروقة تاريخها وذقت اطعمتها وادهشتك موسيقاها وسافر بك خيالها إلى الفضاء واعماق المحيطات وداخل روحك.

انني اوقظ ذاكرتك فانت سريع النسيان.

لن أعود بك إلى الباب ولن اصعد بكإلى خارج القبة.

سأتلاشى هذه اللحظة كما شعاع صغير يبلعه الليل.

المدينة هي انت، الارض هي أنت، الخلية هي أنت، انت الاعجوبة وفقاعة الماء، انت الصوت والصدى.

المدينة امامك مفتوحة الاذرع تعرض مكنوناتها بكرم.

دع قدميك تقودانك إلى هناك ولا تلتفت نحوي.

● يمزج شاكر الأنباري الخيال بالواقع، فتتداخل الذاكرة بالهم اليومي، وتصبح النصوص مدخلاً إلى سرد تبسيطي لتفاصيل نفسية، ولمعاناة إنسانية، ولعلاقات مع الرموز والوقائع والتفاعلات.

نديم توفيق جرجورة
جريدة السفير

● يتمكن من تسليك مادته في الإتجاه الصحيح نحو تكوين جسم قصصي متكامل، يرسم البشر في المكان والبيئة والسمات، من دون أن يتخلى عن جنوحه إلى فكاهة دسمة ولغة تتقافز على نفسها كأنها تغلي.

جاد الحاج
جريدة الحياة

● اللغة عند قاصنا معاصرة، وثّابة مشحونة بالأهواء، والقارىء أنّا تصفح سيقرأ لغة مشغولة، معتنى بها.

جنان جاسم حلاوي
جريدة النهار البيروتية

تصميم الغلاف : طالب الداوود